4

رَوْضَةُ المُبَلِّغِينَ

كتاب دوري يتضمن مقالات تخصصية للمبلّغين

2014 م

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

بيروت - لبنان - المعمورة - الشارع العام

هاتف: 471070/ 01 - ص- ب: 53/ 327024/ 25

www. almaaref.org

email: info@almaaref.org

الكتاب:	روضة المبلّغين (4) - 2015م
تأليف:	المركز الإسلامي للتبليغ
نشر:	جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الإصدار الرابع:	2014 م - 1436هـ

روضة المبلّغين

إصدار دوري يتضمن دراسات تبليغية تخصصيّة

4

المركز الإسلامي للتبليغ
www.almenbar.org

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

المقدمة..... 7

الوحدة الإسلامية 9

الباب الأول: الإسلام والحضارة..... 15

هجرة وأفول الحضارات في القرآن 17

موت الأمم وهجرة الحضارات في القرآن 35

الشهيد مطهري والوجه الآخر للحضارة الغربية 73

مساهمة الحوزات الدينيّة في التمدّن الإسلاميّ..... 113

الباب الثاني: سيرة تبليغية 183

إنجازات الإمام الحسن المجتبى عليه السلام خلال عشر سنوات في المدينة المنوّرة..... 185

أساليب السيدة زينب عليها السلام التبليغيّة 203

إرهاصات أرضيّة إحياء العلوم الإسلاميّة في زمان الإمام الباقر عليه السلام 213

الباب الثالث: مجتمع وأسرة 223

البنى التحتية للإصلاحات الاجتماعيّة..... 225

أساليب التربية الدينيّة..... 231

الباب الرابع: مهارات تبليغية 239

الترغيب والترهيب ركنان أساسيّان في التبليغ 241

المبلّغون، مهامٌ وحلول 249
عشرة أصول عملية في سبيل تبليغ حيويّ 255
مستلزمات التبليغ 265
الباب الخامس: من التراث 271
سُلَّمٌ إلى السماء 273
حديث الغدير، الولاية أو المحبة؟ 281
النقل المجعول والمشهور 289

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نقطة انطلاق

بعد البَدء باسم الله المبارَك والمبارِك...

أعزاءنا حملة همٍّ ومسؤولية الكلمة والتبليغ، إذ نضع بين أيديكم هذا الإصدار الرابع من سلسلة روضة المبلغين...

نلفت إلى أن ثمَّة موضوعات تشكل فيما تتناقله الأندية والأوساط الثقافية عناوين حساسة جداً يفترض أن لا نغيب عنها معاشر المبلّغين لنكون جارين على جادة الحكمة القائلة: «**العارف بزمانه لا تهجم عليه اللوابس**».

ولنكون كذلك مالكين لمفردات لغة الزمان وأهله ليسهل علينا خطابهم وسماعهم، ولتتحد لغة الخطاب في عمليات الإفهام والتفاهم.

ومن أهم ما يروج من بضاعة في الميادين الثقافية والإعلام الثقافي بل حتى في الإعلام العام مسائل أمثال الحرية، وحقوق الإنسان، والحضارة، والتمدن... وإضافة إلى مفردات وأمور أخرى كثيرة يضيق عن بيانها هذا المختصر.

وكثيراً ما يتم تقديم النماذج الغربية والمادية بل الإلحادية لهذه المفردات بعد الترويج والتسويق الإعلامي والتعليمي أي الأكاديمي وتُفرض على أذهان وعقول أجيالنا لتصبح معياراً يحكم الفكر والمزاج والسلوك لهذه الأجيال وغيرها إلى سائر أفراد الأمة.

ومن أسوأ آثار هذا الترويج المسخَّر له طاقات وأدوات أفراد ووسائل عملاقة أن تجد كثيراً من متصدري المشهد الثقافي مُستَلَبِينَ أمام إبهار هذه الأدوات والوسائل والوسائط... وهذا ما يفضي إلى أن ينجح المستعمرون في استعمار النفوس بعد أن فشل استعمارهم للبلاد بنهضات الشعوب وثوارها... وهذا غرض الحرب الناعمة وهذا الإصدار يطل شيئاً ما على واحدٍ من مفردات الصراع الثقافي وأدواته وهو الحضارة والمدنية... على أننا لا ندعي أننا قد أكملنا البحث فيه ووفيناه حقه...

ولكننا سنبقى نولي هذا الموضوع وأمثاله اهتمامنا بكل ما نقدر عليه من خلال ما هو قادم بإذن الله من أعداد هذه السلسلة... سلسلة روضة المبلغين.

والختام سلام

والحمد لله رب العالمين

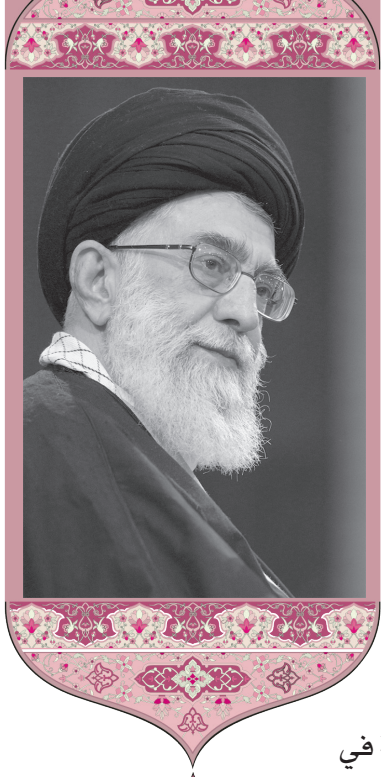

الوحدة الإسلامية

إن قضية الوحدة الإسلامية تعتبر اليوم إحدى أهم الأولويات الإعلامية والتبليغية في العالم الإسلامي. فبعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران نشطت الدولارات النفطية والقروض الأميركية وغير الأميركية بشدّة، للقضاء على وحدة العالم الإسلامي وكان التركيز يتم ـ بشكل خاص ورئيسي ـ على قضية السنّة والشيعة.

وبما أن شعب إيران هم من الشيعة، فإن الاستكبار بذل كل ما في وسعه للحيلولة دون تمكن الثورة ـ التي قام بها هذا الشعب ـ من مد الجسور وإقامة الاتصالات مع بقية أنحاء العالم الإسلامي وبلدانه الأخرى، وإرتأوا أن منع حصول ذلك يمكن أن يتم عبر رفع حدة الخلاف وتصعيده بين الشيعة والسنّة، لذلك قاموا بتأليف العديد من الكتب في هذا المضمار وطباعتها وننشرها على نطاق واسع...

ويوجد لدي في مكتبتي الخاصة عدد كبير من الكتب التي ألفها المفكرون المتلبسون بزي رجال الدين وذوو الأقلام المأجورة، المنبثّون في العالم الإسلامي، مستهدفين تحريض الشعوب ضد الجمهورية الإسلامية وايقاع العداوة والبغضاء بينهما، فوجدوا أن ذلك ممكن عن طريق تأجيج نيران الخلاف بين الشيعة والسنّة.

إنني حين أقرأ بعض تلك الكتب أتمتم مع نفسي: رباه! كم يخشى أعداء الإسلام والثورة على أنفسهم ومناصبهم من هذه الثورة ويتوجسون منها خيفة؟!

وكم لهذه الثورة الإسلامية من العظمة والأهمية بحيث تجعلهم يتشبثون بكل الوسائل ويلجأون إلى كل الأساليب لإيذائها؟ ويا عجباً من أن الذين كانوا ـ وما يزالون ـ يتحدثون باسم الدين ويتشدقون به وكذلك الذين يكتبون باسم الوعي والفكر ويتظاهرون بهما زيفاً، هؤلاء هم أيضاً لا يخجلون من أنفسهم وفي مقابل الحصول على الأموال والدولارات من أسيادهم يبذلون الجهود والمساعي الحثيثة من أجل تجريح الجسد الإسلامي، فالوحدة إذن إحدى أولويات الاعلام والتبليغ اليوم[1].

الدعوة إلى حكم اللّه سبحانه وتعالى

أمر آخر يعتبر من أولويات التبليغ والإعلام في داخل المجتمعات الإسلامية وهو الدعوة إلى حكم الإسلام، إن الإسلام لا يقتصر على الأحوال الشخصية ـ بل وحتى هذا المجال أيضاً لم يبق بيد الإسلام وإنما تلاعب فيه حكّام كثير في البلدان الإسلامية وأبعدوه عن متناول الإسلام ـ والإسلام ليس للعبادة وإحياء القلوب في زوايا المسجد والبيوت وحسب، وإنما جاء الإسلام في سبيل إدارة شؤون الحياة الإنسانية. الإسلام نظام للحياة ينبغي ايضاح هذا الأمر للشعوب كلها[2].

فالمطلوب وجوب العمل على ترسيخ الاعتقاد بحاكمية الإسلام، وهو أمر واضح دأب عليه مسلمو العالم على امتداد قرون عديدة، وحتى كبار العلماء في بلدنا من أجل تحكيم دين اللّه في الحياة، امتداداً لنهج الأنبياء عليهم السلام.

(١) محاضرات القائد ـ الفكر الأصيل ـ منظمة الاعلام الإسلامي ١٤١٠هـ.

(٢) محاضرات القائد ـ الفكر الأصيل ـ منظمة الاعلام الإسلامي ١٤١٠هـ.

وهذا ما يجب عليكم ترسيخه في الأذهان؛ ليعي الناس أن حاكمية الإسلام تعني حاكمية العدل والعلم على المجتمع الإنساني، وهي الحاكمية القادرة على بناء أجسام الناس وقلوبهم وعواطفهم وأخلاقهم، وحياتهم المادية والمعنوية في الدنيا والآخرة هذا هو معنى حاكمية الإسلام.

فحاكمية الدين هي البديل عن حكم الطاغوت الذي: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ﴾[1] لأن حكم الطاغوت معناه حكم استشراء الفساد وطمس معالم الدين وخراب الدنيا، نعم خراب الدنيا أيضاً كالذي شاهدناه عن كثب في بلدنا، ولمسه من عاش في تلك الحقبة الزمنية.

فحاكمية الله معناها سعادة وخلاص الناس وتلبية متطلباتهم الأساسية، وتوفير كل ما تستلزمه حياتهم المعنوية والمادية والفردية والإجتماعية في الدنيا والآخرة. عليكم تبيان هذه الأمور للناس وخاصة للشباب وعلى الرغم من أن شعبنا مؤمن بهذه العقيدة من أعماقه ويدافع عنها بكل وجوده، وقدّم طوال سنوات الحرب الثمانية الكثير من دمائه، لكن لا ينبغي التغاضي عن مكائد العدو الذي يعمل على جني عوائد مساعيه على المدى البعيد[2].

التفريق بين الإسلام الأمريكي والإسلام الأصيل

ومن ضمن الأولويات الاعلامية والتبليغية في العالم الإسلامي شرح وتوضيح الفرق بين الإسلام الأميركي والإسلام المحمدي الأصيل النقي، إن الإسلام الأميركي تعبير يرمز إلى الإسلام الذي يخلو من المحتوى والمضمون ويقتصر على القالب والإطار... وهو الإسلام الذي «**يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض**» وهو أيضاً الإسلام الذي لا يوافق على أن ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[3] أنه الإسلام الذي يرفض أن ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٥.

(٢) محاضرات القائد ـ الفكر الأصيل ـ منظمة الاعلام الإسلامي ١٤١٠هـ.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤١.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] وهو الإسلام الذي لا يؤمن بـ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[2] والإسلام الذي يرفض حاكمية الإسلام، وبالتالي فهو الإسلام الذي يداهن أميركا وينسجم معها، ويوافق على أعمال أميركا وفساد الغرب وفسقه، هذا هو الإسلام الأميركي... إنه الإسلام الخليط الهجين، وإسلام التكبر والزهّو وإسلام القوى الظالمة.

أما الإسلام النقي الخالص، فهو الإسلام الذي ينطق به القرآن وتصدع به آياته، وهو الإسلام الذي يحمل الخصائص والمميزات التي عرضتها. ينبغي إيضاح هذه الحقائق، لكي تتبيّن ما هي حقيقة الإسلام الذي ندعو إليه ودعا إليه رسول الله ﷺ[3].

تقوية وترسيخ المعتقدات الدينية:

ما هو المضمون الذي يحظى اليوم بأهمية أكبر؟ وما هو الشيء الذي يجب بيانه للناس من فوق المنابر؟ يمكن الإجابة على هذا السؤال بكلمة واحدة، وهي: إنّ المضمون الخطابي الأهم في يومنا هذا هي تلك المباحث التي تقوي وترسّخ معتقدات الناس الدينية. إلا أن هذه الكلمة خاضعة للبيان والتفصيل، فبعض المعتقدات لا يعتريها أي اهتزاز أو تغيير، فكيف نستهدف ترسيخ المعتقدات لدى المخاطب؛ على المبلغ أولاً النظر إلى مواطن الجهل لدى المخاطب، فيجب عليكم معرفة الأمواج الموجهة لتدمير أفكار مخاطبيكم، لتكونوا على بيّنة من المطلوب. إذ لا ينبغي أن تتزاحم في ذهن المخاطب عشرات الأسئلة التي لا تكون مورد اهتماماته، بدلاً من الإجابة عنها.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٣) خطاب القائد ـ التبليغ في العصر الحاضر ـ ١٤١٨هـ.

وكلامي هذا لا يختص بشهر محرم، بل ينبغي أن يُتخذ أساساً في التبليغ، فإذا ما توليتم مهمة التبليغ في الجامعات أو في القوات المسلحة أو في أية طبقة أو شريحة اجتماعية كانت، وحيثما وقفتم أمام مخاطبيكم يجب أن تضعوا في حسبانكم أولاً ماهية الأسئلة والاستفهامات التي تراود ذهنهم[1]...

التبليغ ومراعاة مقتضيات الزمان:

القضية التي تحظى بالاهتمام هي أن التبليغ والدعوة إلى الحق وإلى الإسلام لهما في كل مقطع زماني مقتضياتهما. ولا بد من التعرف على هذه المقتضيات، ومعرفة المخاطب والبحث عنه والعثور على الكلام المناسب الذي يجب طرحه عليه. وأعتقد أن ما ينبغي اتخاذه كمحور للتنسيق في ما بينكم هو الوسيلة التي يجب بواسطتها التبليغ في عالم اليوم، وإلى أي شيء ندعو، ومن اية زاوية يجب أن ننظر إلى مشاكل الناس وقضاياهم حتى يتسنى لنا عرض الإسلام عليهم على نحو سليم.[2]

(١) محاضرات القائد ـ الفكر الأصيل ـ منظمة الاعلام الإسلامي ١٤١٠هـ.

(٢) وسائل الدعوة الإسلاميّة ومبانيها ٢٨ محرّم ١٤١٩ هـ.

الباب الأول

الإسلام والحضارة

- هجرة وأفول الحضارات في القرآن
- موت الأمم وهجرة الحضارات في القرآن
- الشهيد مطهري والوجه الآخر للحضارة الغربية
- مساهمة الحوزات الدينيّة في التمدّن الإسلاميّ

هجرة وأفول الحضارات في القرآن

علي أكبر ذاكري(*)

الهجـرة تعني حركـة مجموعة من النـاس مـن مكان إلى مكان ومـن أرض إلى أخرى. الهجرة إمّا أن تكون آفاقية أو أنفسية.

الهجـرة الأنفسيّـة: هي الهجـرة الداخلية، هي الهجرة مـن المعصية وتركها والحركة نحو الصلاح. الهجرة من مصائد الشيطان والحركة نحو الحرمان.

المهاجر في الروايات هو الشخص الذي هاجر المعاصي وتركها.

الهجـرة الآفاقية: هي الهجرة مـن مدينة إلى مدينة أخرى ومن ديار إلى ديار أخرى. الهجرة من قوم والالتحاق بقوم آخرين.

يعتقـد الكثيرون أنّ الحضـارات قد وُجدت في العديد مـن الأماكن بعد هجرة الأمـم والشعـوب من مكان إلـى آخر. وقد وُجـدت الحضارة الإيرانيـة بعد هجرة الآريين إلى إيران. وأمّا سبب هذا التحوّل فهو أنّ التلاؤم مع بيئة الحياة الجديدة، يحتـاج إلى مزيد من الجهـود والعمل والحركة ما يجعل رؤية الإنسان أعمق فينظر إلى الأمور بدقّة ويخرج من عالم الظلمات والجهل.

ومـن هنا، أهتم الإسـلام بالهجرة لأجـل العلم والتجربة، وشجـع أتباعه على المهاجـرة. لقد أمر الرسـول ﷺ أتباعه قائلاً: «**اطلبوا العلم ولـو بالصين، فإن طلب العلم فريضة علي كل مسلم**»[1].

(1) وسائل الشيعة، الحر العاملي.

(*) كاتب إيراني في مجلة حوزة.

يقـول العديد من أصحاب الـرأي والدقّة في الحديث المتقدّم: ابحث عن العلم حتّى لو كان في المدن والأراضي البعيدة.

وذكـر آخرون معنـى آخر لهـذا الحديث: لم يطـرح الرسـول ﷺ مسألة بُعْد الطريق فقط، بل كان يريد الصين أيضاً؛ لأنّ الصين في تلك الفترة كانت صاحبة حضارة متقدّمة. لذلك أراد الهجرة إلى الصين للحصول على العلوم.

إنّ التوصيـة بالسفـر وتَعَلّم العلوم يأتيان فـي إطار اتساع الرؤيـة الكونية.لقد كانـت إبداعـات العلمـاء والنوابغ والكثير مـن المفكّرين المسلميـن، بعد الهجرة العلمية وهناك من العلماء من كانت هذه سيرته أمثال «**أبي علي ابن سينا**»، و «**أبي ريحان البيروني**»، ومولوي وسعدي وناصر خسرو و... فوصلوا إلى مراحل الكمال والشهرة.

العلـم في صدر العالِـم كالنهر الجاري الذي يتحـرّك باستمرار ولا يتوقّف عن ذلك إذا لم تعطَ معرفة وعلوم العالم حَقّها في المدينة والأرض الموجود فيها، فإنّ علومـه ومعارفه تحركه لترك تلك الديار والانتقال إلى مكان آخر يكون فيه معرفة بقدر وأهمية هذه العلوم. وتظهر علوم العلماء عندما يجلس محبو العلم على مسند السلطة فيعملـون على تقويتها ويهيّئون الأرضية الاجتماعية لاكتساب العلم والميل نحوه. أمّا هجرة الحضارات في هذا المقال فهي التي تقابل موت الحضارات.

نعتقـد أنّ الحضـارات لا تمـوت، بل إذا فقـد شعب في مكان مـا، الخصائص الضروريـة واللياقة اللازمة لارتقاء الحضـارات، عند ذلك تظهر هذه الحضارات في مكان آخر.

بنـاءً على هذه الرؤية قد تزول أمّة أو قـوم أصحاب حضارة، إلّا أنّ حضاراتهم تنتقـل إلى مـكان آخر؛ لأنّ روح الحضـارة باقية، وهذه الروح هـي التي تتنقّل من

مـكان إلى آخر حيث تغادر هذه الروح بدن الحضـارة الذي تعرّض للموت، وتنتقل إلـى بدن يمتلـك الأرضيّة لنموّها. يعتقـد الكثيرون أنّ الثقافة هـي روح الحضارة وباطنها، ويعتبرون أنّ الثقافة التي تصنع الحضارة تنتقل إلى مكان آخر بعد موت الحضارة التي صنعتها حيث تشرع في التأسيس لبناء جديد.

إنّ هذا الكلام هو من جملة المقولات المهمّة في بحث الحضارة والثقافة ولتوضيح الموضوع نقسم البحث إلى ثلاثة محاور:

1- **معنى الحضارة والثقافة وارتباطهما ببعضهما: لتتضح ماهية الشيء الذي يهاجر من الحضارة التي زال بناتها أو اتجهت نحو الضعف.**

2 - **معنى الهجرة ورأي القرآن حول هجرة الحضارات، فهل يوافق القرآن الكريم على مقولة موت الحضارات أو هجرتها؟**

3 - **أفول الحضارات من وجهة نظر القرآن.**

أمّا أهمية البحث فهي أننا سنحصل على معرفة أكبر حول مستقبل الحضارات الحاكمة على العالم فنعرف هل اقتربت هذه الحضارة من الأفول، أم أنها ما زالت تتحرّك في الاتجاه الصعودي.

اقُتبسـت كلمـة الحضارة (تمـدن) من المَـدَن والمدينة،[1] وهـي تعني اختيار المـكان،[2] والحضـارة بمعنى السكن فـي الحضر، وبعبارة أدقّ هـي قبول الطبع المدني. وأمّا من حيث التفاصيل فتستبدل الأعمال الفنية والطبع والمعرفة والوعي مكان الخشونة والجهل والاعتداء وتجاوز الحدود.[3]

(1) قاموس معين،ج1، 1139،أمير كبير، طهران.

(2) تاج العروس، مرتضى زبيدي،تحقيق علي شيري،ج18، 53، دار الفكر، بيروت.

(3) أقرب الموارد، سعيد الشرتوني،ج3، 1194، المطبعة اليسوعية، بيروت؛ قاموس دهخدا، على أكبر دهخدا.

وأمّا عبارة الحضارة في اللغة العربية فهي تحمل المعنى ذاته وهي تعني السكن في الحضر والمدينة والحضارة تخالف البداوة وهي السكن في الصحراء.

قالـوا إنّ الحضـارة هـي السكن في المدينـة والقرية وذلك علـى عكس الذين يعيشون في الخيم والصحراء.[1] أمّا في الإنجليزية فيعبرون عن الحضارة بكلمة Civilization.[2]

إذاً أساس الحضـارة هو الجمع وامتلاك روحية الحيـاة مع الآخرين في مكان واحـد هو المدينة. يجتمـع الناس في كلّ مكان وفي كلّ مجتمـع حول ثقافة خاصّة ويؤدّي كلّ شخص من أفراد المجتمع دوراً لتسهيل حركة المجتمع وخدمة الآخرين ويساهم الجميع في منع الحملات والغزوات، وإذا لحق الظلم أحداً فمُنع من حقّه أمكنه متابعة ذلك عن طريق القانون فيكون المجتمع متحضّراً.

وبمـا أنّ اجتماع البشر في مـكان واحد هو المجتمع، أصـل الحضارة، قالوا:لا يمكـن أن تكـون الحضارة في مكان يابس خالٍ ولا يقبـل الزراعة والسكن. من هنا وُجدت الاجتماعات البشريـة الأولى إلى جانب الأنهار الكبيرة أمثال النيل ومابين النهرين(دجلة والفرات).

وأمّا الذي يصنع الحضارة ويوصلها إلى أوج التكامل، فهو الثقافة الحيوية التي تسـري إلى بدن المجتمع. عندما تصل الثقافة إلـى مرحلة الأوج، تكون الحضارة قـد وجدت من جهة أخرى فإنّ تقدّم الحضارة وثباتها يؤدّيان إلى استحكام وثبات أسـس الثقافـة، ويثبـت زواياها ويقوم بـدورٍ فـي إبداعها وخلاقيتهـا فتظهر في المجتمع حركة ثقافية قوية وواسعة الحضور ويكون كل واحدٍ منهما سبباً في تعالي وارتقـاء الآخر. تظهـر الثقافة في الحضارة المتقدّمة وتنمـو وتتطوّر وكذلك حال

(1) دائرة معارف البستاني، بطرس بستاني، ج7، 96، دار المعرفة، بيروت.
(2) القاموس الجامعي الإنكليزي الفارسي، عباس ومنوجهر آريان بور،ج1، 390، أمير كبير، طهران.

الحضارة أيضاً إذ تتقدّم وتتطوّر في ظلّ الثقافة القوية العميقة والمتجذرة.

وكانت الحضارات القديمة أكثر بقاءً واستمراراً بمقدار ما كانت تتمتّع به الثقافة من قوّة وقدرة. الثقافة المستمرة والفاعلة هي سبب بقاء الحضارة. وتكون الحضارة أكثر بقاءً واستمراراً وتجذراً إذا امتلكت نواة أساسية والتي هي الثقافة. إنّ كلّ ركن تعتمد عليه الحضارة فهو ممزوج بالثقافة. إنّ مسائل الوحدة والتناسب والتناسق التي تؤدي إلى ثبات الحضارة والتي تزول الحضارة من دونها، تصبح ممكنة في ظلّ ثقافة قوية.

يمكن الوقوف على هذه المسألة من خلال الحضارات الباقية والتي اعتبرها توينبي[1] خمسة واعتبرها هانتينغتون[2] تسعة: الغرب، الإسلام، الكنفوشيوسية، الهندية.[3]

إنّ الدّقة في الحضارات والتعمّق فيها يبيّنان أنّ جوهرها الأساس لم يتعرض للزوال، بل كان يتراوح بين الأوج والهبوط.يتعرض الجوهر الأساس الذي هو الثقافة والدوافع والإبداع في الحضارات إلى الزوال بسبب وجود غير الملائمات وعدم وجود الأرضية المناسبة للنشاط والفعالية والظهور، ثم تظهر الحضارة في مكان آخر أكثر مناسَبة وملاءمة.

صحيح أنّ ويل ديورانت يتحدّث حول موت الحضارات؛ إلّا أنه يمتلك رؤية تدعم نظرتنا وهي أنّ: أفول الحضارة يوفّر الأرضيّة لظهور حضارة أخرى في مكان آخر أو عند قوم آخرين:

(1) تاريخ الحضارة، أرنولد توينبي، ترجمة يعقوب آجند، المقدمة، الأربعة عشر، مولى طهران.
(2) المجتمع الإسلامي النموذجي ومبادئ الحضارة الغربية، مجموعة من المؤلفين، 302، الأمانة العامة الدائمة لمؤتمر الأبعاد الوجودية للإمام المهدي عجل الله فرجه الذي يعقد كل سنتين.
(3) م.ن،الحضارة الإسلامية في الفكر السياسي للإمام الخميني،، 57، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني قدس سره، طهران.

«الحضـارة كالحيـاة، عبـارة عن النزاع المستمـرّ مع الموت. وكمـا أنّ الحياة لا يمكـن أن تبقـى إلّا أن تخـرج مـن أشكالهـا القديمة وتختار صـوراً أكثر شباباً وأكثـر جـدّة، كذلـك الحضارة، يمكـن أن تبقى بعد تغيير إقامتهـا وتغيير دمها. ولهـذا السبـب انتقلت الحضارة من الأور إلـى بابل ويهودا ومن بابل إلى نينوى ومـن هناك إلى تخت جمشيد وساردیـس وميلتوس، ومن هناك أيضاً إلى مصر واليونان وروما».[1]

إنّ الثقافـة هـي أهـمّ الدوافع في تبـدل الحضارات وأفولها في مـكان ومن ثمَّ ظهورهـا في مـكان آخر. والثقافـة هي العامل الـذي يجعل الحضـارة تهاجر إلى مـكان أكثر ملاءمـة. إنّ الثقافة هي أهـمّ عوامل تجذّر الحضارة فـي الأرض إلى جانب أمور أخرى أمثـال: الجغرافيا، الطقس، الأرض المنتجة، الثبات السياسي، الأمـن و... والثقافـة هـي الحاجة الأولـى في وجـود الحضارة. الثقافـة هي روح وأساسـ الحضارة. ومن هنا، فالجدير - وقبل الدخول إلى أصل البحث أي هجرة الحضارات - الإطلالة على العلاقة التي تربط الثقافة بالحضارة:

العلاقة بين الثقافة والحضارة

من جملة المقولات الجديرة بالعرض في بحث هجرة وأفول الحضارات، أنه ما هـو الذي يهاجر، وما هـو الشيء الذي يتعرض للأفول حيث يمكن إدراك ذلك من خـلال الآثار المتبقية بالأخص الآثـار الثقافية التي تعود إلى الحضارات القديمة. استعملـت الثقافـة أو فرهنگ وفرهنج في الفارسية بمعنـى العلم والعقل والفضل والأدب والعظمـة والتدبير. وتطلق هاتان العبارتان في الفارسية على الشجرة التي تموت في أرض لتخرج من مكان آخر.[2]

(1) تاريخ الحضارة، المشرق مهد الحضارة، ويل ديورانت، ج1، 258،انتشارات الثورة الإسلامية، طهران.
(2) البرهان القاطع، برهان الخلف للتبريزي، 1481،أمير كبير.

وذُكـر لعبـارة Culture فـي الإنجليزيـة المعنى الـذي ذُكر لعبـارة فرهنگ في الفارسية: الزراعة، التعليم والتربية، الحضارة، الاستعداد والتهذيب.[1]

يكتب أحـد أصحاب الاختصاص حول التناسب والتلاؤم بين عبارة الثقافة في الإنجليزية والفرنسية والفارسية، مذكراً بالنقطة الآتية:

«**إنّ عبارة** «Culture» في الإنجليزية والفرنسية والتي يقابلها في الفارسية عبارة فرهنگ، تعني فـي الأصل شقّ الطرق والحراثة. تتـرك الثقافة والمعرفة أثراً في الذهـن شبيهاً بالشـقّ والحراثة حيث تزرع في حياته بـذور الفهم والشعور وكمال المعرفة، وفي النهاية تثمر حديقة الروح الآدمية وورود المعرفة والإيمان...».[2]

يجـب الالتفـات إلـى أنه ذُكر في معنـى الثقافة فـي اللغة الفارسيـة أنها تعني المعرفـة والأدب والتدبير وهي بمعنى التعليم والتربية والتهذيب أيضاً. وهذا يعني أنّ العلـم الذي يحمل عنوان الثقافة هو الذي يجتمع مـع التدبير والأدب والتعليم، وذو القيمة هو الذي يترافق مع التهذيب والتربية.

المسألـة الأخرى الجديرة بالاهتمام في المعنى اللغوي لعبارة «فرهنگ» والتي تعنـي «**الفرع**»، فـلا يقصد منها كلّ فـرع، بل المقصود الفـرع اللّين من الشجرة والقابل للانعطاف والطريّ.

يجـب أخذ هذا المعنى بعين الاعتبار فـي المعرفة والثقافة. الثقافة تبقى حتى لـو فُصلت عن أصلها إذ إنّ بإمكانها الحياة والتأقلم مع البيئة الجديدة. وإذا كان الجـذع الأساس للشجرة لا بد أن يجفّ مع مرور الزمـان إلّا أنّ الفروع والأغصان والتي هي روح الشجرة هي التي تطلّ من جديد من أماكن أخرى فتنمو وتكبر وتثمر في أرض أخرى.

(1) القاموس الجامعي انكليزي- فارسي آريان بور،ج1، 526.
(2) عالم اليوم وغداً، على أكبر كسمائي، 488، مؤسسة اطلاعات، طهران.

إذا اعتبرنـا أنّ الثقافة هي بذرة الحضارة، فإذا ماتت الحضارة فإن بذورها لا تموت ولا تزول بل يمكن أن تنمو من جديد في مكان آخر.

هناك آراء متعدّدة في هذا الخصوص تساهم في مجموعها في توضيح حقيقة العلاقـة بيـن الثقافة والحضـارة، اعتبر بعض المفكّرين أنّ الثقافـة والحضارة بمعنى واحد واختلافهما هو في دائرة الشمول:

إنّ دائـرة الثقافة محدودة ودائـرة الحضارة واسعة. قيل في تعريف الحضارة: «**حضـارة الأمّـة عبارة عن مجموعـة المُثُل والعادات والسنـن الموروثة والسنن والعلـوم والفنون والمراكز الاجتماعية التـي تساهم في بقاء المجتمع البشري وتنقلها نحو التكامل**».[1]

وفي عبارة أخرى:

«**الثقافـة عبارة عن الوجود القوميّ والوطنيّ الخاصّ، بينما الحضارة عبارة عن: المظهرة للوجوه العامّة للبشرية**».[2]

وأُطلق لفظ الحضارة على التقارب الثقافي بين العائلات الكبيرة.[3]

الحضـارة طبق رؤية أخـرى عبارة عن حالة التوحّد التـي تظهر على الثقافات المتعـدّدة، وهي عبارة عن الأوج الثقافي. يقول صاموئيل هانتينغتون بعد توضيحه أنّ كلاً مـن الثقافة والحضارة تشتملان على القيـم، الضوابط، المناهج الفكرية والمؤسسات ذات الأهمية الكبيرة عند الأجيال في كلّ مجتمع.[4]

«**الحضـارة ذات وجـود ثقافـي، والحضـارة هـي أكبـر اجتمـاع ثقافـي وأوسع**

(1) دائرة معارف العلوم الاجتماعية المقارنة، عليرضا شايان مهر، ج1، 402، انتشارات كيهان،طهران.
(2) تاريخ الحضارة، علي شريعتي،ج1، 14.
(3) دائرة معارف العلوم الاجتماعية المقارنة،ج1، 404.
(4) حوار الحضارات وصدامها،السيد صادق حقيقت، 27،نقلاً عن صدام الحضارات، صاموئيل هانتنغتون، ترجمة مجتبى أميري،

مستوى من الهوية الثقافية التي يمتلكها الشخص. تُعرّف الحضارة من حيث العناصر العينية المشتركة فهي: لغة التاريخ، المذهب، السنن والمؤسّسات، وتُعرّف من حيث الارتباط والقرابة الذهنية والباطنية للإنسان».[1]

وقد قدّم ويل ديورانت تعريفاً للحضارة شبيهاً بالتعريف المتقدّم، فاعتبر الحضارة عبارة عن الإبداع الثقافي:

«الحضارة بمعناها العامّ عبارة عن النظم الاجتماعي الذي يؤدي في النتيجة إلى الإبداع الثقافي وبالتالي السيلان. يمكن تحديد أربعة أركان أو عناصر أساسية في الحضارة وهي عبارة عن: التوقع والاحتياط في الأمور الاقتصادية، المؤسّسة السياسية، السنن الأخلاقية، والعمل في سبيل المعرفة وبسط الفنون».[2]

ذكر في هذا التعريف أنّ النظم الاجتماعي والقانون هما وسيلة الإبداع الثقافي الذي هو أساس الحضارة. وكتب في مكان آخر أنّ الثقافة واحدة من العناصر الأربعة التي تتركّب منها الحضارة إلى جانب، الأمن، النظم والحرية:

«الأمن ضروري ولازم عن طريق الأخلاق والقانون، والأمن الاقتصادي عن طريق الاستمرار في الإنتاج والتبادل، والثقافة عن طريق التسهيلات الضرورية للنموّ وانتقال العلم والآداب والفنون».[3]

من هنا يمكن القول إنّ للثقافة هوية أخرى مستقلّة عن الحضارة، وبالتالي الاعتقاد بأنّ الثقافة تختلف عن الحضارة. هما ظاهرتان مختلفتان إلا أنهما مرتبطتان من دون أن يكون بينهما أي شكل من الملازمة. يقول أصحاب هذه

(1) قبسات، العدد 14، 132.
(2) تاريخ الحضارة، د. علي شريعتي، ج1، 3.
(3) لذات الفلسفة، ويل ديورانت، ترجمة عباس زرياب الخوئي، الانتشارات العلمية الثقافية، طهران.

الرؤيــة في إثبات مدّعاهم: هنــاك الكثير من المجتمعات التي وصلت الثقافة فيها إلــى أدنى المراتب، مع أنها مجتمعات متحضّــرة تقابل المجتمعات التي لا نصيب لهــا مــن الحضارة مع أنها صاحبــة ثقافة، وعليه فكما أنّ هنــاك حضارة من دون ثقافة، هناك ثقافة من دون حضارة أيضاً.[1]

إذاً يمكن القول إنّ أيّاً من الحضارات لا يمكن أن تتطور من دون خلفية ثقافية، وكلّ حضــارة إنما تظهر في ظلّ الثقافة ولكن ليس من الصحيح أنّ كلّ ثقافة تؤدّي إلى وجود حضارة.

استخــدم المفكّــرون الأنغلوساكسونيون الثقافة بمعنى عــامّ واعتبروها تشتمل علــى الحضــارة. لقد وضع هؤلاء الثقافــة والحضارة في مقابــل بعضهما البعض. اطلقــوا الحضــارة على مجمــوع العناصــر المادية والآثــار الفنية وأشــكال وصور المؤسّسات الاجتماعية التي تهيّئ المجتمع للظهور.

الثقافــة طبق هــذه الرؤية عبارة عن مجمــوع الظواهر المعنويــة والاخلاقيات الأدبيــة والفنية والإيديولوجيات التي تؤدي إلى وجود واقع جديد خاصّ بأمة معينة في مرحلة محدّدة[2].

وعلــى هــذا الأساس يعتقــد البعض أنّ الحضــارة ما مادامت فــي حالة البروز والوجــود فهي عبارة عــن الحضارة حيــث تكتسب عنوان الحضــارة عندما تظهر بحالــة الثبات ويكون آثارٌ وأبعادٌ مادية. وأمّا عند المقارنة بين الحضارات لمعرفة الحضارة الكبــرى، فيؤخذ بعين الاعتبار الرؤى والعلــوم وكذلك الأبعاد التاريخية والتقدم والتطور الظاهر في الآثار التي تركتها الحضارات.

(1) قبسات،العدد 14، 119.

(2) قاموس العلوم الاجتماعية،آلن بيرو، ترجمة د.باقر ساروخاني، انتشارات كيهان.

يبــدو أنّ الأستاذ مطهّري من جملة الأشخاص الذيــن أكّدوا على هذه المسألة في التفريق بيــن الحضارة والثقافة. اعتبر الشهيد مطهّــري أنّ الاختراعات تعود إلــى الحضارة بينمــا تنشأ المعنويات مــن الثقافة[1]. ويعتقد إلــى جانب ذلك أن البشريّة لن تكون موفّقة من دون أخلاق ومعنويات.

«الإنسـان المنحـطّ مـن الناحيـة الأخلاقيـة، لـن يكـون موفّقـاً فـي أعماله الأخـرى. من هنا، كانت الأبعاد المعنويـة للحضارة الإنسانية ذات تأثير واضح، لا بل آثارها كبيرة وفوق التصوّر، إذ لا يمكنها أن تكون غير مؤثّرة»[2].

ممّــا لا شــكّ فيه أنّ الحضــارة لا يمكن أن تقوم من دون ثقافــة مرنة، وبالتالي لا يمكنهــا الاستمــرار. لا يمكــن أن تكون الحضــارة من دون مبــدأ وأرضية قبلية. والثقافــة هي مبدأ الحضارة. الثقافة هي التــي تدفع المجتمع نحو الأمام، وترفعه إلى مستوى أعلى، إنّها تؤدّي إلى ظهور الحضارة.

وتترافــق الحضــارة والثقافــة مــع بعضهما بعد ظهــور الحضارة، فــإذا فقدت الحضــارة الثقافة المرنــة التي ساهمت في وجودها، اضمحلّــت وتوقّفت مع مرور الزمان وتوجّهت نحو الأفول، فتخرج روحها والتي هي الثقافة من بدنها حيث تنتقل إلى أرض أكثر استعداداً لقبول الثقافة، فتظهر حضارة أخرى.

وبعــد هذا التحــوّل، لا يبقى من الحضارة المتقدمــة إلا الاسم. وتحفظ آثارها العلمية في الكتب والآثار التاريخية في البناء. يعتقد الأستاذ مطهّري أنّ الحضارة تبقــى وهــي غير مختصّة بقوم محــدّد! والثقافة عبارة عــن روح الأمم والأمة التي تنتزع روحها منها، لا تبقى أمة حيث تفقد القدرة على التطوّر:

(1) فلسفة التاريخ، الشهيد مطهري،ج1، 32، 45، صدرا، طهران.
(2) م.ن، 32.

«يفرقـون بيـن الثقافـة والحضـارة ويقولون: الحضـارة عامّـة، أي أنها غير مختصّـة بقـوم محـدّد، إلّا أنّ ثقافـة كلّ أمـة عبـارة عـن روح تلـك الأمّـة... إنّ للمجتمع روحاً، وروحه عبارة عن الثقافة وتبقى كلّ أمة ما دامت ثقافتها باقية وتـزول الأمة عندمـا تزول ثقافتها. لذلك يقولـون: إذا أردتم القضاء على أمة، عليكـم القضاء علـى ثقافتها بداية، وعندما يسلبون الأمـة ثقافتها، فقد نزعوا روحهـا، وعندمـا ينزعـون الروح، تمـوت، وتصبح الأمـة مجرد أشـلاء لا يمكنها البقاء... على كل الأحوال الثقافة هي روح المجتمع».[1]

ولأنّ الثقافـة مهمّـة في الحضارة تحـدّث ويل ديورانت عـن عناصر الحضارة الثمانية حيث كانت الثقافة والمعنويات تشكّل ستة عناصر منها.

أمّا عناصر الحضارة من وجهة نظره فهي عبارة عن: «**العمل، الدولة، الأخلاق، الدين، العلم، الفلسفة، الأدب، والفن**».[2]

يُستنتج ممّا تقدّم أنّ الرؤى الأربع المتقدمة تتمحور في جزء من الأفق الواحد:

أ- وحدة الثقافة والحضارة.

ب- تُطلق الثقافة على الوجه المعنويّ والحضارة على الوجه الماديّ.

ج- الثقافة ذات بُعْد قومي بينما الحضارة ذات بُعْد عامّ.

د- الثقافـة هـي الوجـه المـرن للحضـارة والحضـارة هـي وجههـا الثابـت.
بشـكل عامّ، فإن الثقافة التي هي روح وباطـن الحضارة، هي سبب حركتها وانتشارها وتعاليها. عندما تفقد الحضارة قواها المتحركة وعندما لا تتمكّن من زيادتها، تصبح مقعدة وعند ذلك تكسر الثقافة هذا البدن الذي أصبح

(1) م.ن، 45.
(2) تاريخ الحضارة، ج1، 990.

غير مناسب لنموّها ورشدها فتهاجر إلى مكان آخر فيبقى الوجه المادي للحضارة. وقد ذكر أغلب الفرق هذه المسألة.

موت أو هجرة الحضارة

اتجهت الحضارة التي كان لها وجود لسنوات وقرون طويلة نحو الزوال بعد مرور الزمان، وفقدت قدرتها على النفوذ وأصبحت مقعدة حيث وصلت إلى النهاية.

والسؤال المطروح هنا: هل تقبل الحضارات الزوال وهل تموت؟ أم أنّ الحضارات لا تموت والذي يموت حقيقة هو أصحابها فيفقدون القدرة على الحركة نحو الأمام فيتوقّفون.

يعتقد البعض أنّ الحضارات – كما كافّة القوى الطبيعية – تابعة لطريقة مشتركة من حيث الولادة والنمو والانحطاط والموت. نُسب هذا الرأي إلى أشخاص أمثال، اشبنغر[1]، ودانيلو سكي وتوينبي حيث قالوا: «**إنّ كافة الحضارات، تولد وتنمو وتنضج ومن ثم تموت**»[2] صحيح أنّ هؤلاء الأشخاص لم يكن لديهم تحليل واحد في توضيح رؤيتهم، إلّا أنهم يعتقدون بموت الحضارات. يعتقد توينبي أنّ الحركة الدائرية للحضارات تشتمل على أربع مراحل:

1 – **مرحلة الظهور أو الولادة.**

2 – **مرحلة النموّ والتكامل.**

3 – **مرحلة النزول، أو السقوط.**

4 – **مرحلة التجزئة.**[3]

(1) مستقبل الغرب،ز.ج،دبيوس،ترجمة بهاء الدين بازاركاد، 22، ابن سينا، مدخل إلى تاريخ الحضارة، ويل ديورانت، ترجمة أحمد بطحائي، خشايار ديهيمي،، 259، انتشارات الثورة الإسلامية.

(2) مستقبل الغرب، 75.

(3) م.ن، 60.

يتفـق اشبنغر وتوينبي على أنّ موت الحضـارة يحصل عندما يزول الإبداع من المجتمـع المتحضّر. يعتقد توينبي أنّ الأشخاص هم الذين يحرّكون التاريخ ويبين أنّ مـوت الحضـارة يصبح واقعاً عندمـا لا تتمكّن المجموعـة المحركة من إبداع قوىً بالمقدار الكافي لمواجهة المشـكلات فتتحوّل هذه المجموعة الصغيرة وهم قـادة المجتمع إلـى مجموعة ظالمة فتـزول الوحدة الاجتماعية وتُجـزّأ الحضارة وتموت.[1]

وهـو من جملـة الأشخاص الذيـن يعتقـدون أنّ الحضارة الغربيـة في معرض السقـوط. ويقابل هذه الرؤية، الرؤية الأخرى التي يعتقد أصحابها أنّ الحضارة لا تموت. بل تتجه نحو الحضيض؛ وأنّ الذي يموت هو الأمم والشعوب التي تتفرّق عن بعضها، وسبب تفرقها هو الانحطاط الثقافي الذي يقوم بدور في ظهور الحضارة.

يعتمـد بحث حوار الحضارات، أو تصادمها على مبدأ أنّ الحضارات في العالم المعاصـر أصبحت عديدة وهي تتمتّع بالقدرة على الحوار أو التصادم حتّى لو كان بعضهـا في الأوج والبعض الآخر دون ذلك. أمّا الحضارة التي تتنزل من الأوج إلى المراتـب الدنيا، فهي لا تزول، بل تظهـر روحها المتكاملة في مكان آخر، وهذا هو الذي يُعَبّر عنه بهجرة الحضارات.

يقول الشهيد مطهّري:

«**للحضارة طلوع وغروب؛ أي أنها تطلع في مجتمع ثم تصل إلى الانحطاط في ذاك المكان فتطلع في مكان آخر**».[2]

(1) م.ن، 65.
(2) فلسفة التاريخ، الشهيد مطهري، ج1، 246.

كتب سوروكين في نقد المعتقدين بموت الحضارات:

«هناك الكثير من المعتقدات الثقافية للحضارة اليونانية والرومانية ما زال يُعمل بها حتّى اليوم وتشكّل جزءاً من حضارتنا وثقافتنا ومؤسّساتنا، أو أنها دخلت في أفكارنا وسلوكنا وعلاقاتنا. كانت هذه المعتقدات حية وفاعلة وكانت مؤثّرة فينا حتى إنها أكثر حياة من الموضة التي كانت رائجة بالأمس أو من الكتاب الذي وصل قبل سنة إلى أكبر مقدار من البيع. إنّ أيًّا من الحضارات القديمة لم يمت...»[1]

صحيح أنه لم يبق في اليونان علماء أمثال أرسطو وأفلاطون وأن اليونان لم تقدّم فكراً جديداً؛ ولكنّ الذي كان موجوداً في أوج بلوغ الحضارة اليونانية، موجود بين أيدي مجتمعاتنا المتحضّرة اليوم أو أنّ نتائج الحضارة الإسلامية موجودة اليوم في الغرب.

يعتقد ويل ديورانت الذي عمل على توضيح زوايا تاريخ الحضارات أنّ: الحضارات لا تموت بل الأقوام والطوائف هي التي تزول.وتعرّض لبحث هذا الموضوع في كتابيه لذات الفلسفة ومدخل إلى تاريخ الحضارة.

يقول في الكتاب الأوّل تحت عنوان «**استمرار الحضارة**» أثناء جوابه عن سؤال: هل يمكن أن تبقى الحضارة حيّة إلى مدة غير محدّدة، أو أنها محكومة بالفناء؟:

«الحضارة ليست أمراً ماديّاً حتى تتعلّق بأرض وتراب محدودين، بل هي خليط لا يقبل اللمس من الإبداعات الفنية والثقافية. وإذا كان يمكن نقل هذا الخليط إلى مكان جديد يتمتّع بقوى مادية، فإنه يحفظ بشكل كبير ويبسط نفوذه وتصبح حقيقته متجذرة. الحضارة لا تموت بل تبقى بدءاً من الدولة والجيش

(1) مستقبل الغرب، 75.

والسياسيين والمحاسبين الذين تمتلكهم الحضارة والتي نمت وتطوّرت على أساس وجودهم. وأمّا الذي يموت فهو الأقوام والجماعات. الحضارة اليونانية لم تمت. بل الأرض التي أنجبت أمثال هومر والاسكندر لم تعد قادرة على تقديم نوابغ آخرين، فالحضارة اليونانية لم تبق اليوم في ذاك المكان، بل هي حية في مكان آخر وفي مكان معنوي وهو عبارة عن الحافظة للنوع الإنساني... كان أفلاطون وتلامذته يتحركون بشكل غير محدود في الأكاديمية وفي كلّ ساعة كان يحضر درسه آلاف الطلّاب. نعم الأمم والجماعات هي التي تموت، والأرض القديمة أصبحت يابسة حيث يمسك الناس معاولهم لينقلوها إلى مكان آخر بما يمتلكون من فنّ وذكريات ومحفوظات. إذا جعلت التربية هذه الذكريات واسعة وعميقة، فتهاجر معها والذي يتغير هو المكان والمسكن»[1].

يعتقد ويل ديورانت أنّ «**الحضارات هي الأبناء الروحيون للنوع الإنساني**»[2] وما هو موجود بين أيدينا اليوم هو النتائج التي قدّمها هؤلاء الأبناء، فالحضارة لا تموت بل تبقى حيث تظهر في مكان آخر. ثم إنّ ويل ديورانت يكرّر هذا الكلام في كتابه مدخل إلى تاريخ الحضارة ويقول:

«**الحضارات لا تموت كما أنّ الحضارة اليونانية لم تمت. بل الذي زال هو قالبها وقد انتشرت في أرض أخرى، فالحضارة اليونانية محفوظة في حافظة النوع الإنساني. الحضارات حية وهي نتاج روح البشر. والأمم هي التي تموت. والحضارة تهاجر مع التعليم والتربية وتختار مسكناً جديداً لها في مكان آخر**»[3].

(1) لذات الفلسفة، 306.
(2) م.ن، 307.
(3) مدخل إلى تاريخ الحضارة، 263.

بناءً على ما تقـدّم فالمقصود من هجرة الحضارات هو سريان إنتاج المجتمع المتحضـر القديم إلـى مجتمع متحضر جديـد. ويتصل هذا السريـان طبق رؤية ديورانت بالحقيقة عن طريق التعليم والتربية والتي يطلق عليها الثقافة، فتجد لها مكانـاً عند قوم آخرين وهذا يعني أنهـا باقية. وأمّا الأمم المتحضّرة فهي التي قد تنحـطّ فتميل في يوم مـن الأيام نحو البربريّة فتزول مظاهـر الحضارة بالتدريج منها. يبدأ موت الأمم من خلال زوال الثقافة أو الانحراف فيها. ومع حركة الثقافة بين الصعود والهبوط يتلاشى الشعب المتحضّر ويصل إلى مرحلة الموت.

عندمـا تكون المرحلة، مرحلة انحطاط ثقافي، يستغـل العدوّ الخارجيّ الفرصة للهجوم ويقضي على ما تبقى من الروح الثقافية والجماعية، وقد يعمد تارة إلى إزالة مظاهر الحضارة. لقد حوّل الاسكنـدر عرش جمشيد إلى خراب، وعمل المسيحيون للقضـاء على مسلمـي الأندلس، ومـع هذه الحمـلات والحروب بقيـت بعض جلوات الحضـارة الإسلاميـة. ولكن لـو لم يحصـل انحطاط ثقافـي وفسـاد اجتماعي في المجتمع، فالثقافـة قادرة على مواجهة الحملات الخارجية بقـوّة وصلابة، وبالتالي إرغـام العدوّ علـى الاستسلام. صحيـح أنّ المغـول خرّبوا المـدن الإسلامية وقتلوا الآلاف من الناس؛ إلا أنّ الثقافة الإسلامية كانت قوية ومتعالية وقادرة بحيث انجذبوا إليها. الحضارات من وجهة نظر الإسلام تقبل الهجرة والتكامل، وذلك للوصول إلى الحضارة العالمية الواحدة، أي حكومة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

موت الأمم وهجرة الحضارات في القرآن

هل تهاجر الحضارات من وجهة نظر القرآن الكريم أم أنها تموت؟

تحدّث القرآن الكريم في العديد من الآيات الشريفة حول زوال الأمم والأقوام والمجموعات من العصاة والمذنبين. وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الأمم والأقوام هم أصحاب حضارة، فهل كان القرآن الكريم يريد القول إنّ الأمم تزول أو الحضارة؟.

هل وافق القرآن الكريم على نظرية الحركة التكاملية للمجتمع البشري، وبالتالي اعتبار أفول الحضارات ليس بمثابة الموت وأنّ المقصود زوال الأمم والأقوام؟ أو أنّ القرآن الكريم رفض هذه النظرية فاعتبر أنّ أفول الحضارات بمثابة موتها؟ ما هو أوج الكمال وأعلى مراتبه من وجهة نظر القرآن؟

هل الكمال والتطوّر وأوج المجتمع البشري تتصل بالحقيقة في ظل القرآن؟ أو أنّ كمال وتطوّر لمجتمعات لا يحتاجان إلى الإيمان من وجهة نظره أيضاً؟

1- **موت الأمم وهجرة الحضارات:** يظهر من خلال البحث والدراسة أنّ القرآن الكريم لا يتبنّى موت الحضارات؛ بل الذي يتبنّاه هو موت الأمم والأقوام. ويظهر من خلال آيات القرآن السماوية أنّ الحضارات تهاجر وتنتقل من أرض إلى أرض، والقرآن الكريم لم يستخدم مصطلح الحضارة؛ إلا أنه استخدم عبارتي القوم والأمة اللتين تحكيان عن المجتمع وعن الناس أصحاب الحضارة.

عندمـا يتحـدّث القرآن الكريم عـن قوم أصابتهـم نار ذنوبهم، ممّـا أدّى إلى الخراب والفساد، فقد استعان بعبارتي «**أهل القرية**» و«**القرية**».

وعندمـا يتحـدّث عن تحوّل حال قوم فإنه يُرْجع هـذا التحوّل إلى روحية أولئك القوم سواء كانت لجهة التعالي أو ما يعارض ذلك:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]

قد يكون تحوّل روحية الناس في اتجاه الصلاح وقد يكون في جهة الفساد، تحوُّل وضـع الناس مرتبط بهـم، ولا جبر في المسألة على الإطلاق. وهـذا يعني أنّ لكلّ قوم وجماعة، روحاً جماعيّة حيث يعتمدون على هذه الروح في تحديد مصيرهم.

ملاحظـة: هنـاك بحث بين المفكّرين حول المجتمـع، فهل للمجتمع شخصية مستقلّة بعيداً عن الأفراد أو أن الأمر ليس كذلك؟.

في هذا الخصوص، هناك أربع نظريات:

1- **أصالة الفرد.**

2- **أصالة الفرد عندما يكون بين أفراد المجتمع علاقة ميكانيكية مع بعضهم البعض.**

3- **أصالة الاجتماع حيث تحكم المجتمع الروح الجماعية.**

4- **أصالة الفرد والمجتمع معاً فيكون التركيب بينهما من نوع التركيب الحقيقي، مثال ذلك التركيب الكيميائي حيث يكون لكلّ فرد خاصيّة وتحصل خاصِّيَّة أخرى من خلال اجتماع الأفراد.**[2]

(1) سورة الرعد، 11.

(2) مجموعة الآثار، الشهيد مطهري ج13، 816.

صحيح أنّ الأفراد في المجتمع هم الذين يتخذون القرارات وأنّ لهم دوراً كذلك فإنّ للجمع دوراً أيضاً هذا الجمع الذي عَبَّر عنه القرآن بالأمة. يتحدث القرآن عن موت وحياة المجتمع:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1]

اعتبرت الآية الشريفة أنّ موت الأمة لا مفرّ منه؛ إلّا أنه لا يلزم من موت الأمة، موت حضارتها؛ لأنّ الحضارة تصبح متعلّقة بالمجتمع الإنساني عندما تقع الأمة والقوم في قبضة الموت وتتوقّف الحضارة عن التطور، إلا أنّ هذه الحضارة تتطوّر وتنمو بين جمع آخر وأمة أخرى. المجتمع البشري يتحرك في الأساس نحو الكمال والتعالي، وكل مجموعة من البشر ينقلونه قدماً إلى الأمام بمقدار تدبيرهم ومعرفتهم ورؤياهم حتى يوصلوه إلى قوم آخرين.

كتب الأستاذ مطهّري في شرح هذه النقطة، وتوضيح الآية الشريفة: يجب الدقة في ما أشار إليه «**توينبي**» من أنّ كلّ حضارة محكومة بالموت والزوال، فإذا كان المقصود مجتمعاً خاصّاً، فهذا صحيح، وأما إذا كان المقصود موت المجتمع الإنساني الذي ترتبط به الحضارة، فهذا ليس صحيحاً؛ لأنّه:

«**يمكن تحليل هذه النظرية إلى أمرين: الأوّل أنّ كلّ مجتمع إنساني إذا أُخذ بمفرده، عند ذلك يكون له دورة محددة**؛» لكلّ أمة أجل «**إنّ حضارة وثقافة القوم التي تتطوّر، ليس لها عمر لا ينتهي، بل ستموت في يوم من الأيام. هذا إذا أخذنا كلّ مجتمع على حدة.**

الأمر الآخر هو تكامل المجتمع الإنساني. المجتمع الإنساني يختلف عن كلّ قوم مستقلّ؛ لأنّ الأمر المسلّم به هو أنّ انحطاط وأفول الحضارة في قوم يقارن ظهورها على قوم آخر، وهكذا حال الإسلام... يغرب الإسلام من بلد

(1) سورة الأعراف، 34.

معين، أمثال فلسطين، إلا أنه يظهر في باكستان بالتقارن مع ذلك... إذاً أن نأخذ الحضارة والثقافة البشرية في قوم معينين فهذه مسألة وإما أن تكون في كل المجتمع البشريّ فهذه مسألة أخرى...»[1]

يشيـر كلام الأستاذ هذا وبوضـوح إلى أنّ موت الأمم لا يعني موت الحضارات؛ لأنّ الـروح الجماعية التي تضفي الكمال على المجتمـع البشري، باقية حيث تطلع الحضارة في مكان آخر. إذاً الآية لا تدلّ على موت الحضارات.

2- **إرث الأقوام السابقة الزائلة للأقوام اللاحقة:** يُستفاد من مجموع الآيات التي تحدّثت عن زوال الأمم والأقوام، أنّ زوال قوم لا يؤدي إلى زوال ثقافتهم. حتى إنّ الأقوام التي ابتليت بعذاب مفاجئ، يأتي من بعدهم قوم آخرون يرثون حضاراتهم ويطورونها ويوجدون ثورة في أركانها.

يعبـر القرآن الكريم عن الذين يرثون قوماً تعرضـوا للزوال، بعبارة الخليفة أو الوارث حيث يرثون حضارة القوم السابقين، نشير هنا إلى بعض الموارد:

أ- جاء في القرآن الكريم حول قوم عاد:

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۡۜطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[2]

جاء في تفسير كشف الأسرار في شرح الآية الشريفة:

«اذكروا نعمة الله لكم حيث جعلكم ساكني الأرض، من بعد قوم نوح وأورثكم مساكنهـم ومنازلهم وأموالهـم وكانت مساكنهم في الأحقاف من رمل عالج من حضرموت إلى بحر عمان»[3]

(1) مجموعة الآثار، الشهيد مطهري، ج13، 817.
(2) سورة الأعراف، 69.
(3) كشف الأسرار وعدة الأبرار، الخواجه عبد الله الأنصاري، باهتمام علي أصغر حكمت،ج3، 659،أمير كبير.

وجاء في تفسير المنار:

«أي واذكروا فضل الله عليكم ونعمه إذ جعلكم خلفاء الأرض من بعد قوم نوح وزادكم في المخلوقات بسطة وسعة في الملك والحضارة»[1].

وجاء في تفسير الميزان:

«وخصّ من بينها نعمتين ظاهرتين هما أنّ الله جعلهم خلفاء في الأرض بعد نوح وأنّ الله خصّهم من بين الأقوام ببسطة الخلق وعظيم الهيكل البدني المستلزم الزيادة والشدّة والقوّة، ومن هنا يظهر أنهم كانوا من ذوي حضارة وتقدم».[2]

ويكون لخلافة قوم لقوم ومجموعة لمجموعة وشخص لشخص، معنى إذا ترك له أثر. عندما خلف قوم عاد قومَ نوح انتقلت إليهم أرضهم مع ما كان عليها من ثروة وبناء و... ثم أضافوا إلى تلك الثقافة الميتة الحياة وقد تحدّث الله تعالى حول عظمة حضارتهم: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾[3]

ب- يتحدث القرآن الكريم عن قوم ثمود الذين جعلهم الله تعالى خلفاء قوم عاد:

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[4]

(1) تفسير المنار، محمد عبده، تقرير رشيد رضا، ج8، 498، دار المعرفة، بيروت.
(2) الميزان، محمد حسين الطباطبائي،ج8، 178.
(3) سورة الفجر، 8.
(4) سورة الأعراف، 74.

جاء في تفسير نوين[1]/ 178 حول قوم ثمود:

«ثمود قوم من العرب وهم أبناء كاثر بن إرم بن سام بن نوح حيث كانوا يعيشون في وادي القرى في الجبال بين الشام والحجاز وكانوا أصحاب مهارة في صناعة الأحجار والبناء، كانوا يقصّون الأحجار وينقشونها ويبنون قصوراً شامخة مرتفعة، وقد روى العديد من المفسّرين أنّ أوّل شعب بدأ يقصّ الحجارة من الجبال وينحت بها ويبني أبنية، هم طائفة ثمود حيث بنوا ألفاً وسبعمائة مدينة بالحجارة» وكان صالح منهم أرسله الله مبعوثاً إليهم لأجل هدايتهم.

طلبوا المعجزة منه فجاء بها، إلا أنهم لم يعودوا عن طريق الباطل ولم يتوقّفوا عن عبادة الأصنام واستمرّوا بإهانة وأذية النبي وتجرأوا على معجزته حتى أصيبوا بالعذاب».

كتب الشيخ الطوسي في شرح الآية:

«أي تفكروا فيما أنعم الله عليكم حيث جعلكم بدل قوم عاد بعد أن أهلكهم وأورثكم ديارهم بوأكم في الأرض أي مكنكم من منازل تأوون إليها».[2]

يظهر من القرآن الكريم ومن رأي المفسّرين أنّ قوم عاد قد زالوا وبقيت حضارتهم العظيمة إرثاً لقوم ثمود وقد تمكّن قوم ثمود من الارتقاء في درجات الكمال بسبب الحضارة التي وصلت إليهم حتى بلغوا مرحلة تحدث عنها القرآن الكريم: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾[3]

«أي تذكّروا إذ جعلكم الله تعالى خلفاء لعادٍ في الحضارة والعمران والقوّة والبأس».[4]

(1) أي التفسير الجديد (في العربية).
(2) التبيان،الشيخ الطوسي،ج4، 450، مكتب الإعلام الإسلامي، قم.
(3) سورة الفجر، 9.
(4) تفسير المنار،ج8، 503.

ومـن هنا، فإن هلاك وزوال الأمة والقوم، لا يعني زوال حضارتها؛ بل إذا زالت أمـة من الحيـاة، تنتقل حضارتها إلى أمـة أخرى تعمل علـى إيصالها إلى مراتب الكمال.

ج-تحدث الله تعالى عن بني إسرائيل وأنهم وارثو فرعون وقومه مع أنهم كانوا يعارضونـه وقد استلمـوا الأرض الموعـودة ومصر بعد فرعـون والفراعنة فأسّسوا لحضارة كبيرة، مع العلم أن:

مـا بنـاه فرعون أزالـه الله تعالى. وهذا يعنـي أنّ الأبنية والآثـار حتى لو جرى تخريبها أو تغييبها عن الأنظار، فإنّ البشر ترث روح الحضارة المتعالية[1]:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾[2]

واستعمـل الله تعالى وبالإضافة إلـى الآية الشريفة، عبـارة الوراثة في سورتي الشعراء [3]والدخان:

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾[4]

ومع أنّ الله أرسل إليهم الطوفان والجراد وتعرضوا للدمار ومع ذلك بقي جزء مـن آثارهم حيث انتقـل إلى القوم الذين جـاءوا من بعدهم كما جـاء في القرآن الكريم ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾[5].

(1) م.ن،ج9، 98.
(2) سورة الأعراف، 137.
(3) سورة الشعراء، 57-59
(4) سورة الدخان، 25-28.
(5) سورة الأعراف، 166.

يظهر من الآية الشريفة ومن الآيات الأخرى أن خلافة قوم لقوم ووراثة مجموعة لمجموعة هما من السنن الإلهية التي لا تتوقّف لا بل تستمر ما دام العالم عالماً.

طبعـاً لا يخفى أن بيـن الحضارات اللاحقـة والحضـارات السابقة اختلافات أساسية، فالحضارات اللاحقة تأتي بثقافة جديدة وتتكامل وتبدأ حركتها.

تُعرّف كلّ حضارة من خلال ما يشير إليها من علامات ورموز خاصّة. فحضارة اليهود، تختلف عن حضارة مصر وعن حضارة إيران القديمة وكذلك عن الحضارة الإسلاميـة حيـث يوجد بينها افتراقـات أساسيـة. يقولون على سبيـل المثال: إنّ حضارة إيـران القديمة لم تهتمّ بالكتابة كما اهتمت بها الحضارة الإسلامية التي لم تهتمّ في التعليم الديني بالمجسّمات والفنون التصويرية.

3- وحدة وتكامل المجتمع: إذا كانت التعاليم الإسلامية تتحدّث عن المستقبل وبشكل قطعي على أنه للصالحين والأتقياء الذين يرثون الأرض ويرثون روح التطور والكمال والحضارة الإنسانية، تتضح هذه النتيجة وهي أنّ روح المجتمع والحضارة تتجه نحو الكمال وأن كمال الحضارة هذه في المستقبل يثبت أنّ الحضارات لا تموت، بل تهاجر من أرض إلى أخرى وهذه من جملة السنن الإلهية.

وإذا كان الأمر غير ذلك، أي أن تتجه الحضارات نحو الزوال وليس نحو السطوع والكمـال، فهـذا يتعارض مع الوعـد الإلهي للصالحيـن والأتقيـاء والمستضعفين بالخلافة. يصبح للوراثة معنى عندما يصل للوارث شيء ذو قيمة.

يقـول العلامـة الطباطبائـي في تفسيـر الآيـة الشريفـة: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[1]:

(1) سورة الأنبياء، 105.

«الوراثة والإرث على ما ذكره الراغب انتقال قنية إليك من غير معاملة. المراد من وراثة الأرض انتقال التسلّط على منافعها إليهم واستقرار بركات الحياة... فيكون مؤدّى الآية أنّ الأرض ستتطهّر من الشرك والمعصية ويسكنها مجتمع صالح يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً».[1]

ويقول العلّامة: **«وهذه البركات إمّا دنيوية راجعة إلى الحياة الدنيا كالتمتّع الصالح بأمتعتها وزينتها... وإمّا أخروية وهي مقامات القرب التي اكتسبوها في حياتهم الدنيا فإنها من بركات الحياة الأرضية وهي نعيم الآخرة كما يشير إليه قوله تعالى حكاية من أهل الجنة:**

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ وقوله:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾»[2]

إذاً الناس المؤمنون والصالحون هم وارثو الحضارات الكاملة والمجتمعات المتطوّرة. بناءً على هذه التعاليم القرآنية، فالحضارات لا تنطفئ، بل تنتقل من مكان إلى آخر وتبقى روحها حيّة وجارية، فتغرب في مكان وتطلع في مكان آخر، حتّى يصل الأمر إلى الحضارة الكاملة الزاخرة بالمعنويات والبعيدة عن كلّ نقص أصيبت به الحضارات القديمة، وذلك على أيدي الإنسان الكامل:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾[3] وجاء في آية أخرى (النور،55)

(1) الميزان،ج14، 330، الأعلمي، بيروت.
(2) سورة المؤمنون، 11.
(3) سورة القصص، 5؛ سورة النور، 57.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾.

وهناك آيات أخرى تدلّ على هذا الأمر، وقد تحدثت إحدى الآيات الشريفة عن أمّة محمّد ﷺ باعتبارها الأمّة التي تخلف الأمم السابقة:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾[1] ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[2].

إذاً تصبح خلافة ووراثة المؤمنين والصالحين للأمم السابقة، ممكنة تتصل بالحقيقة عندما تتجه الحضارة البشريّة نحو الكمال والوحدة.

طرح الأستاذ الشهيد مطهّري عدداً من الأسئلة بالالتفات إلى آيات الوراثة: هل تستمر الثقافات والحضارات والمجتمعات والأمم على ما هي عليه دائماً؟ أو أنّ حركة الإنسانية نحو حضارة وثقافة واحدة ومجتمع واحد حيث يكون ذا لون واحد وهو الإنسانية؟

وهل الحضارات والثقافات متعددة زيادة على تطوّرها؟ أو أنها من الممكن أن تصل إلى الوحدة أثناء سيرها نحو الكمال؟

ويقول في الجواب:

«إنّ هذه المسألة، مرتبطة بمسألة ماهية المجتمع ونوع ارتباط الروح الجمعية والروح الفردية ببعضها البعض، بناءً على نظرية أصالة الفطرة، وإنّ الوجود الاجتماعي للإنسان وحياته الاجتماعية وفي النهاية روح المجتمع الجمعية وسيلة لفطرة الإنسان النوعية تختارها لأجل الوصول إلى الكمال النهائي، لذلك يجب القول: تسير كافّة المجتمعات والحضارات والثقافات

(1) سورة النور، 55.
(2) سورة يونس، 14.

نحو التوحّد، واتحاد الشكل وفي نهاية الأمر الإندماج ببعضها البعض، وإنّ مستقبل المجتمع الإنساني، هو المجتمع العالمي الواحد الذي تصل فيه كافّة القيم الإنسانية الفعلية إلى فعليتها، وعند ذلك سيصل الإنسان إلى كماله الحقيقي وسعادته الواقعية، وفي النهاية إلى إنسانيته الأصيلة»[1]

إنّ المستقبل هو لأصحاب التقوى والحقّ، بينما الباطل والباطلون سيكون مصيرهم الزوال. هذا وعد الله الذي سيكون حقيقة في يوم من الأيام:

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[2]

يتحدث العلّامة الطباطبائيّ حول كيفية كون العاقبة للمتّقين،[3] وقد كتب في شرح الآية المتقدّمة:

«وكون العاقبة مطلقاً للمتقين من جهة أنّ السنة الإلهية تقتضي بذلك، وذلك أنه تعالى نظم الكون نظماً يؤدّي كل نوع إلى غاية وجوده وسعادته التي خلق لأجلها، فإن جرى على صراطه الذي ركّب عليه، ولم يخرج عن خطّ مسيره الذي خُطَّ له... والإنسان الذي هو أحد هذه الأنواع... هداه الله إلى عاقبته الحسنة، وأحياه الحياة الطيبة، وأرشده إلى كلّ خير يبتغيه»[4].

إنّ كمال المجتمع البشريّ هو بالتقوى ومداراة الحقّ وإنكار الباطل والمجتمع، الكامل هو المجتمع الذي يقيم الحقّ ويبتعد عن الباطل والذي يختار أفراده طريق التقوى، وأمّا الحضارة التي تقوم في ظلّ هكذا أعمال، فهي حضارة كاملة وهي حضارة أتقياء الأرض.

(1) مجموعة الآثار، الشهيد مطهري،ج2، 359.
(2) سورة الأعراف، 128.
(3) الميزان،ج4، 106، مجموعة الآثار،ج2، 359.
(4) الميزان،ج7، 225.

لا يمكـن أن تُقـام حضـارة الأتقياء مـن دون بذل الجهود ويصل عـدوّ الله إلى حقيقة عندما ينهض الأتقياء انطلاقاً من الثقافة والشعور والفكر والإدراك والألم فيكونون كالصاعقة على مخربي الحضارات وعلى المفسدين في التاريخ، ليجلسوا على مسند إحياء الحضارات فيؤسّسون لحكومة الصالحين. وبما أنّ رجالاً كهؤلاء سيأتون وأنّ هكذا صالحين سيكون لهم وجود، وعد الله تعالى بحضارتهم في نهاية تاريـخ البشر، ويكـون هذا الطلوع بعد غروب الذين عملـوا على توجيه حضاراتهم نحو الفسق وانحرفوا عن ما أراده الله تعالى.

ممّـا لا شكّ فيـه أنّ الصالحين سيمسكون زمام الأمـور، وسيرثون الأرض وأنّ غير الصالحين والفاسقين سيبتلون بالعذاب الأليم.

لقد وعد الله، وسيتحقّق هذا الوعد. من جملة ذلك ما جاء في الآية الشريفة:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾[1]

هنـاك نوعان مـن الخراب والموت: الخراب والمـوت الطبيعيّان وذلك عندما ينتهـي عهد البنـاء وتصبح الأعمـدة عاجزة عن حمـل السقف، فتنهـار الأعمدة وينهار السقف بتبعها. كذلـك الإنسان، تفقد أعضاؤه قدرتها فيصبح قعيد الأرض ويفقد روحه بإذن الله فيصل إلى الموت.

إلّا أنّ هنـاك نوعـاً آخر من الخـراب والموت تحدث الله تعالى عنـه كثيراً في العديـد من الآيـات، وهو الموت قبـل الموعد (طبعاً هناك موت وخـراب آخر قبل المـوت يحصل على أثـر السوانح و... وهذا غير مقصود مـن البحث هنا) ويكون على أثر عذاب الله ممّا يجعل حياة المجتمع والأمة مضطربة و...

(1) سورة الإسراء، 58.

ولكن لماذا يحصل ذلك؟ ولماذا يلقي الله قوماً أسرى للموت ويخرّب مدنهم وقراهم؟

أراد الله تعالى وجود مجتمع متكامل وبشرٍ صالحين. يقضي الله على قوم ليمنع وجود المعاصي التي تصدر عنهم، وأمّا المعاصي التي تمنع الإنسان من الكمال والتي تجعل الكون مظلماً فيجري إزالتها من خلال إزالة هؤلاء الأشخاص المفسدين، ويرتقي قوم آخرون يعملون على تخليص الكون من الظلام معتبرين من الماضي.

وتستمرّ هذه الحركة حتى يستقرّ الإنسان الكامل في حضارة ومجتمع كامل. كما نُقلت آراء متعددة في تفسير الآية الشريفة المتقدّمة.

يعتقد بعض المفسّرين أنّ الآية الشريفة تتحدّث عن ما قبل القيامة حيث يحصل خراب كافّة القرى والمدن. وللعلّامة الطباطبائي رأي آخر. وبما أن رؤيته تتفق مع ما نحن فيه، لذلك سنقوم بنقل عباراته. يعتقد العلّامة أن الآية الشريفة المتقدّمة، معطوفة على الآية الشريفة 16 من سورة الإسراء والتي تنصّ:

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾

ثمّ يقول بعد ذلك:

«الغرض العامّ بيان سنّة الله تعالى الجارية بدعوتهم إلى الحقّ ثمّ إسعاد من سعد منهم بالسمع والطاعة وعقوبة من خالف منهم وطغى بالاستكبار».

ثمّ يكتب في شرح الآية الشريفة:

«وعلى هذا فالمراد بالإهلاك التدمير بعذاب الاستئصال كما نقل عن أبي مسلم المفسّر والمراد بالعذاب الشديد ما دون ذلك من العذاب كقحط أو غلاء

فينجر إلى جلاء أهلها وخراب عمارها أو غير ذلك من البلايا والمحن.

فتكون في الآية إشارة إلى أنّ هذه القرى سيخرب كلّ منها بفساد أهلها وفسق مترفيها، وأنّ ذلك بقضاء من الله سبحانه».[1]

إذاً وبناءً على الآيات الشريفة، تبتلى الأمم والأقوام المنحرفون بالغضب الإلهي ويكون المصير هو الذي نصّت عليه السنة الإلهية حول قوم نوح وعاد وثمود، فيجمع بساط الظلم والظلام ليحل مكانه التعالي والكمال والتطوّر للمجتمع الإنساني حيث تنتشر الحضارة المعنوية بعيداً عن القبائح والرذائل والظلم و...إنّ هذا المجتمع هو الذي يبنيه المهديّ عليه السلام حيث يكرّس فيه القيم والأمن[2] فتخرج له الأرض دفائنها وتنزل له السماء بركاتها.

هجرة الحضارات في القرآن، الدوافع والأسباب.

اتضح أنّ القرآن الكريم يتبنّى عقيدة هجرة الحضارات. فيما يلي يجب أن نبحث حول دوافع وأسباب هجرة الحضارات من مكان إلى آخر. لماذا تفقد الحضارة القدرة على التطوّر في أرض بينما تمتلكها في أرض أخرى؟

إنّ دراسة الحضارات القديمة، تبين أنّ الشعوب والأرض تكون في مرحلة وبرهة من الزمن تحمل لياقة ونموّ وتطوّر الحضارة وتفقدها في مرحلة وبرهة أخرى.

فالروم على سبيل المثال كانوا ولمدّة ألف سنة[3]، يحملون قدرة واستعداداً عاليين، فتمكّنوا من إيجاد حضارة كبيرة وحافظوا عليها لسنوات طويلة، وبعد ذلك فقد الروم هذه القدرة والاستعداد وفقدوا ذاك الدفء الذي تحيا الحضارة تحت ظلاله؛ لذلك هاجرت الحضارة الرومانية إلى أماكن عديدة، أي أنها تفرّقت

(1) الميزان،ج13، 132، الأعلمي، بيروت.
(2) مجموعة الآثار،ج13، 819.
(3) جولة في تاريخ العالم، جواهر لعل نهرو، ترجمة محمود تفضلي،ج1، 200، أمير كبير.

إلى أجزاء، هاجر كلّ منها إلى مكان.

يشير القرآن الكريم إلى أنّ تقدّم وانتشار وانحطاط الحضارة إنما هو في ظلّ عمل الناس وضعفهم فيه. إذا كانت الأرض تمتلك خصائص وأرضية الإنتاج والعطاء الحضاري، وكان شعب تلك الأرض مُجدّاً وصاحب قدرات فكرية وجسمية، عند ذلك لا تتّجه تلك الحضارة نحو الانحطاط، والعكس صحيح، أي إذا وجد الضعف وطلب الراحة وإذا فقدت القدرات الفكرية الضرورية، عند ذلك تكون الأرض عقيمة من الحضارة ولا تلد تلك الأرض حضارة على الإطلاق. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

الله تعالى لا يطفئ مصباح أمة مُضاءً، إلّا أنّ الأمة هي التي تضع هذا المصباح في مهبّ الريح حيث سينطفئ هذا المصباح بالتأكيد طبق السنّة الإلهية. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2]

البشر قادرون على الوقوف في وجه الرياح، وقادرون على حفظ هذا المصباح مضاءً دائماً، وقادرون بما يمتلكون من بُعْد نظر وجامعية في الفكر، من منع كلّ الآفات والأخطاء التي تدفع الحضارة نحو الظلام والتي تجعل من أسسها ضعيفة. وكلّ أمة تتمكّن من إدراك سرّ بقاء حضاراتها، يمكنها الحفاظ عليها لسنوات طويلة، وبالتالي بإمكانهم الحفاظ عليها بعيداً عن الأخطار التي تهدّدها. أمّا أبرز وأهمّ أسرار الحضارة التي ذكرها المتخصّصون في الحضارات وأصحاب المطالعة في تاريخ الأمم، فهو القدرة على التكيّف مع تحوّلات الزمان. إذا لم تصرّ الأمة التي وُلدت الحضارة فيها على الأمور غير الضرورية لبقائها، وإذا لم تنظر إلى المستقبل بعين الماضي، فستبقى هذه الحضارة.

(1) سورة الرعد، 11.
(2) سورة الأنفال، 53.

يعتبر الشهيد مطهّري أنّ النظر إلى المستقبل بعين الماضي، سبب خراب وأفول الحضـارة، ويوضح سرّ أفول الحضـارات نقلاً عن إدوارد هالتـكار، المتخصّص بالتاريخ والمنظّر في باب التاريخ وحضارة البشر:

«يتمكّـن الإنسـان مـن التغلّب على أساس انحطاط الحضـارة بما يمتلك من نموّ معرّفي. والسرّ في ذلك أنّ أمة ترتقي لأسباب خاصّة، إلّا أنّ ظروف المكان تتغيّـر بعـد ذلـك، وأنّ هؤلاء قـد ارتووا مـن الماضي بحيث يميلـون إلى النظر للمستقبل بعين الماضي دائماً؛ أي أنهم يغفلون عن التغييرات، فيضعف زمانهم وأمّـا إذا ظهـرت حضارة مـع روح وخصائص خاصّة وأعطـت شعبها القدرة على المرونـة، أي عـدم الإصرار على الأمور غيـر الضرورية، فهذه الحضارة يمكنها أن تبقى للأبد».[1]

بنـاءً علـى هذا التحليل، فإنّ كافّـة العوامل والدوافع والأسبـاب التي تؤدّي إلى وجود الحضارة، لا يمكنها أن تكون كذلك على مستوى بقائها.

ينبغـي على الشعـوب صاحبة الحضـارات عدم التعلّـق بماضيهـا والغفلة عن الأحداث المحيطة بها. الزمان يغير الكثير من الأمور، وإذا لم يتغير قالب المجتمع والحضارة وإذا لم يتغير الباطن تارة ولم يحصل التأقلم مع الزمان، يفقد حيويته وضياءه ويصبح في الحاشية.

قد تكون الأمة صانعة للحضارة في مرحلة ما، وقد تكون في مرحلة تعيش حالة تطوّر وتقدّم حيث تحمل لواء الحضارة، إلّا أنها تصبح منزوية وخارجة عن الزمان إذا كانـت تعود إلى الماضي باستمرار وإذا كانت تعتبر أنها مكتفية بالماضي وإذا كانت تجد أنها في غنى عن الموجات الجديدة والمستقبلية، حيث تعتبر كلّ حركة وابتكار وكلّ كلام جديد، أمراً صغيراً حقيراً غير ذي قيمة.

(1) مجموعة الآثار،ج13، 818.

يؤكّـد القـرآن الكريم علـى أنّ البشر يجـب أن يكونوا مبدعين فـي كلّ حركة، وإذا وصـل المجتمـع إلى أوج الكمال أو تدنى إلى مستويـات الذلّ، فكلّ ذلك يتعلّق بأهـل ذاك المجتمع. إذا أتجه هؤلاء الناس لإيجـاد تغيير إيجابي، يتجه المجتمع نحـو الإيجـاب ويبلغ الأوج، وأمّـا إذا كان التغيير سلبياً وابتعد عـن الأمور الحسنة والخصـال الحسنـة والسلوك الحسـن، فسيغرق فـي الوحول العفنـة، وسيسقط المجتمع في وحول الذلّ. نعم يجب عليهم عدم تقليد الآباء والأجداد بشكل أعمى، ويجب رفع كلّ ما يمنع التقدّم والتطوّر.

حـذّر الله تعالى البشر في القرآن الكريم وأراد لهم الخروج من حصار التقليد ومعرفة طريق الصواب من الضلال بوساطة فكرهم.

إذاً يؤكّـد القـرآن الكريـم أنّ الناس هـم الذين يقومون بالـدور الأساس حيث يمكنهم إيجـاد حضارة بجهودهم وعملهم وحركتهـم السليمة والعاقلة، وكل ذلك طبقاً للسنّة الإلهيّة وأمّا الاستسلام للضعف والخضوع والكسل والحركات المريضة وعدم التلاؤم مع السنن الإلهية، فكل ذلك يؤدّي إلى موت الحضارة. ومن المناسب التوقّـف مليّاً عند رؤية القرآن الكريم لظاهرة الحضارة والشعب المبدع للحضارة ومـن المناسب الاطّلاع على زوايا حياة الشعوب والأقوام أصحاب الحضارة الذين أخبر القرآن الكريم عن زوالهم وذلك للعبرة والتعلّم.

طبعـاً في هذا المجال لا يمكـن الإشارة إلى كافّة الموارد التـي ذكرها القرآن الكريـم، إلا أنه من الممكن الالتفات إليها ولو بشـكل إجمالي، والإشارة إلى بعض السلوكيـات القبيحة التي ابتلي بها موجـدو الحضارة حيث كانت عاقبتهم الزوال، وبالتالي أفول الحضارة في تلك الأرض وطلوعها في أرض أخرى.

هذه الرؤية، تبين جزءاً من رؤية القرآن والتي هي رؤية دقيقة وجامعة وعميقة.

1- **الظلم:** الظلم يهدم البنيان. القصور والأبنية لا تهدمها الريح الصرصر بل آهات المظلومين.

يتحـوّل أصحـاب الحضارة بعد مدّة فـي أعين الناس إلى وجـوه قبيحة منفّرة بسبب سلوكيّاتهم غير المناسبـة، فيفقدون النفوذ الشعبيّ والقاعدة الاجتماعية؛ لذلـك يتّخذون مواقع معادية للناس فيتحوّلـون نحو الظلم للحفاظ على مواقعهم، والظلم يضعف ويهدم قصور الحضارة.

ولكـن ما هو الظلم؟ وما هـي مصاديقه؟ لعلّ البحث هنا غير مختصّ بتقديم تعريـف دقيق. ولعـلّ من المناسـب التذكير ببعض النماذج التي ذكرهـا القرآن الكريـم، وذلك كما وضّحها المرحوم الأستـاذ محمد تقي جعفري في شرحه نهج البلاغـة حيث وضح زوايا الظلم بدقّة حيث يعتبـر أنّ الظلم أعلى وأكبر ممّا يقال في التعريف حيث كتب:

«**يظـن بعض البسطـاء أنّ الظلـم عبارة عن القتـل العمدي لإنسـان أو أكثر. فـي هـذا الحال يكـون القاتل ظالماً والمقتـول مظلومـاً. أو أنّ الظلم عبارة عن حرمـان شخص أو مجتمع من المعاش ومن محصول تعبه وبشـكل عام، يظنّ هؤلاء أنّ الظلم هو الاعتداء الواضح على مال وروح وحيثية الفرد أو المجتمع، حيث يكون الاعتداء محلّ تنفّر كافّة البشر. مع العلم أنّ موضوع الظلم حسّاس للغايـة وهـو أوسـع مـن الظواهـر المتقدّمـة. أمّـا معنى الظلـم فهو عبـارة عن الاعتداء على القانون الواقعي**» للحياة المعقولة» وعلى هذا الأساس:

1 - إنّ أدنى اعتداء على نداء الوجدان، ظلم للذات.

2- السماح للآخرين بالاعتداء على الذات،ظلم لها.

3- التقليل من قيمة العمل والنشاط ونتيجة جهود البشر، ظلم.

4- إيجاد وظروف تجعل الشخص يصرف النظر عن حقّ عمله ونشاطه، ظلم، حتى لو كان المظلوم راضياً ومسروراً بالظروف.

5- إيجاد الاضطراب وأسباب الركود الفكريّ عند الآخرين، ظلم.

6- الاعتداء على حرية الآخرين، ظلم، حتّى مع تحريف معنى الحرية والحصول على رضا الشخص عينه الذي يتمّ الاعتداء على حريته، أو تحريف الظواهر المقبولة.

7- إيجاد الاحتياجات المصنوعة بين الناس لإجبارهم على اختيار بضاعة أو أفكار غير ذات قيمة، ظلم.

8- التلاعب بأفكار وعواطف الناس لإلزامهم الاحتياجات الأنانية، ظلم.

9- استغلال أذهان الناس لإظهار أنّ صورة الحقّ إلى جانبهم والتعدّي على شخصية البشر،ظلم.

10- تقديم الذات للإدارة السياسية للمجتمع من دون التسلّط على الأهواء واللذائذ الذاتية، هو اعتداء وظلم للمجتمع.

11- سحق القوة والامتياز الذي يحصل والذي يمكنه علاج آلام الناس والتقليل من مشاكلهم والذي يمكنه رفع حجر من أمامهم لتحسين أوضاع حياتهم المادية والمعنوية، هو أسوأ أنواع الظلم التي تمارس على الناس، عدا عن كون هذه القدرة والامتياز سلاحاً يحارب في ساحة البقاء.

بشكل عامّ الظلم هو المفهوم المقابل للعدالة. العدالة، هي السلوك المطابق للقانون، وبما أنّ كافّة شؤون الناس الفردية والاجتماعية، مشمولة بالقانون بمعناه العام، فالظلم هو الانحراف عن ذاك القانون بأيّ شكل حصل. ويكفي للقضاء على مجتمع أو حضارة وجود واحد من أنواع الظلم التي ذكرنا ببعض مصاديقها».[1]

أشار القرآن الكريم في العديد من الآيات الشريفة إلى أنّ الظلم هو سبب زوال المجتمع والأمم وأفول الحضارات، وهنا نكتفي بذكر بعض هذه الآيات:

(1) ترجمة وتفسير نهج البلاغة، محمد تقي جعفري، ج5، 168، مكتب نشر الثقافة، طهران.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[1]

القـرن وجمعه قرون علـى معنيين: الزمان ومرحلة وبرهـة معنية أو أهل زمان خاصّ.

يعتقد بعض أصحاب اللغـة أنّ للقرن حقيقة في كلا المعنيين.[2] المعنى الأول مشهور؛ وقد يكون المعنى الثاني هو المراد في الآية الشريفة.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[3]

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[4] و...[5]

2- **الفساد:** الفساد هو الخروج عن الاعتدال، سواء كان قليلاً أو كثيراً. مثال ذلك الفساد في النفس والبدن و....[6] ويستخدم في الغالب بخصوص عمل الإنسان.[7] ويطلق الفساد على الاستيلاء على مال الآخر بالباطل؛ لأنه خروج عن الاعتدال.[8]

عندمـا يُبتلى المجتمـع بالفساد، سواء كان اقتصاديّـاً أو اجتماعيّاً، فقد خرج عـن حدّ الوسط والاعتدال. والفساد: هو الاعتـداء على حقوق الآخرين عن طريق الاعتداء على القانون والتخلّف عنه.

---

(1) سورة يونس، 13.
(2) تاج العروس،ج 18، 443.
(3) سورة القصص، 59.
(4) سورة الأنعام، 47.
(5) سورة الأعراف، 4 - 5.
(6) مفردات الراغب، 379.
(7) م.ن، 274.
(8) تاج العروس،ج5، 166.

من هنا اعتبر القرآن الكريم أنّ عمل المفسدين سواء كان في الاقتصاد أو الاجتماع هو فساد أو إفساد في الأرض؛ لأنّ عمل المفسد من وجهة نظر القرآن، لا ينحصر بدائرة صغيرة وليس صحيحاً أنّ هذا الفساد لا يخرج عن حدود الشخص وأطرافه ولا يتعدّى إلى أماكن أخرى في المجتمع؛ بل يسري الفساد إلى كافّة أركان المجتمع ويحرق الأخضر واليابس.

يعتبر القرآن الكريم أنّ صاحب الوجهين والمنافقين الذين يتصرّفون بشكل في الظاهر وبشكل آخر في الخفاء، الذين لهم أسلوب حياة في الخلوة، وأسلوب آخر في الجلوة، الذين يتظاهرون بالإيمان ويخفون في بطونهم الكفر، يعتبرون المؤمنين فاسدين وناشرين للفساد.

رفع القرآن الكريم النقاب عن وجوههم وعدّد صفاتهم واحدة واحدة وحذّر من فسادهم ويقول:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[1]

يعتبر القرآن الكريم أنّ هذه الحركة ذات الوجهين عبارة عن مرض؛ لأنّ الإنسان السالم ليس له إلا وجه واحد ويجب عليه إيجاد الوفاق بين ظاهره وباطنه، إمّا أن يُظْهر الإيمان أو الكفر، وأمّا الطريق الثالث فهو مرض. جاء في آية أخرى حول المنافقين المُفسدين والباحثين عن الفساد:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾

(1) سورة البقرة، 11-12.

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[1]

جاء في شأن نزول هذه الآيات:

«نزلت هذه الآيات في الأخنس بن شريق، وهو رجل جميل. جميل البيان. كان يتظاهر بحبّ الرسول ﷺ ويعتبر نفسه مسلماً. كان كلّما جاء إلى الرسول ﷺ، يجلس معه ويظهر إيمانه، وكان يُقسم أنه يحبه وأنه آمن بالله، وكان الرسول ﷺ يأنس به ويلاطفه ويُظهر له المحبة. عندما ظهرت عداوة بينه وبين طائفة ثقيف، هجم عليهم وقتل حيواناتهم وأحرق مزروعاتهم».

يتحدّث القرآن الكريم عن فرعون وأنه شخص فاسد ومفسد، ومن جملة فساده أنه كان يقتل الرجال ويبقي على النساء:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2]

تحدّث القرآن الكريم في سور: الأعراف، هود، الشعراء عن هلاك قوم نوح، هود، صالح ولوط وشعيب، وأشار إلى أنّ هؤلاء الأقوام كانوا أصحاب حضارة وثروة ومكنة، ثم زال ما عندهم بسبب الفساد. وكلّ قوم يزولون على أثر الفساد. وهنا نشير إلى بعض النماذج على لسان القرآن الكريم:

أ- **الفساد الاقتصادي:** الاقتصاد من جملة الأسس والأركان المهمّة والأساسيّة في المجتمع، وهو من الأعمدة الأساسيّة للحضارة.

إذا سقط هذا الركن المهمّ، تسقط كافّة أركان المجتمع الأخرى الواحد بعد

(1) سورة البقرة، 205.
(2) سورة القصص، 4.

الآخر. يؤكّد القرآن الكريم لنبيه شعيب وفي سبيل الحفاظ على هذا الركن سالماً، أن يبذل جهده لإصلاح اقتصاد مجتمع مدين حتى لا يسقط المجتمع.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[1]

أمر الله تعالى شعيباً الانتقال إلى أهل مدين وتحذيرهم من الفساد في الأرض وليؤكد لهم أن فسادهم في الأرض وانحرافهم الاقتصادي وغير الاقتصادي، بعدما عمل الصالحون والرسل وأنبياء الله العظام على إصلاحها وتطهيرها، هو بمثابة السقوط في وادي الموت الكبير.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2]

جاء في تفسير المنار حول معنى الإصلاح والإفساد:

«إنّ الإفساد في الأرض، يشمل إفساد نظام الاجتماع البشريّ بالظلم وأكل الأموال بالباطل، والبغي والعدوان على الأنفس والأعراض وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام. وإصلاحها، هو ما يصلح به أمرها، وحال أهلها من العقائد الصحيحة المنافية لخرافات الشرك ومهانته، والأعمال الصالحة المزكّية للأنفس من أدران الزوائل، والأعمال الفنية المرقية للعمران وحسن المعيشة فقد قال تعالى في أوائل هذه السورة [الأعراف]:

(1) سورة هود، 85.

(2) سورة الأعراف، 85، سورة الشعراء، 183.

«﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ فقد أصلح الله تعالى حال البشر بنظام الفطرة وكمال الخلقة ومكّنهم إصلاح الأرض بما آتاهم من القوى العقلية والجوار وبما أودع في خلق الأرض من السنن الحكمية وبما يبعث به الرسل من مكملات الفطرة، فالإفساد إزالة صلاح أو إصلاح وقد كان قوم شعيب من المفسدين للدين والدنيا، كما يُعلم من هذه الآية وما بعدها، والإصلاح وما يكون بفعل فاعل وهو أمّا الخالق الحكيم وحده، وأمّا سخرهم للإصلاح من الأنبياء عليهم السلام، والعلماء والحكماء الذين يأمرون بالقسط، والحكّام العادلين الّذين يقيمون القسط، وغيرهم من العاملين الذين ينفعون الناس في دينهم ودنياهم، كالزرّاع والصنّاع والتجّار وأهل الأمانة والاستقامة، وهذه الأعمال تتوقّف في هذا العصر على علوم وفنون كثيرة، فهي واجبة، وفقاً لقاعدة ما لا يتم الواجب إلّا به، فهو واجب..»[1]

لقد أغلق قوم شعيب الطريق على الإصلاح وفتحوا طريق الفساد. وبما أنّ مدينتهم كانت على ملتقى القوافل، لذلك كانوا يستفيدون من هذا الأمر بشكل سيِّئ ويضيّقون على القوافل والتجّار ويشترون بضاعتهم بثمن بخس، ويبيعون بضاعتهم بثمن عالٍ، أي أنهم كانوا يفسدون في المعاملات وبتبادل البضاعة.

وكانوا يمنعون الناس من الالتحاق بالحق والاجتماع على شعيب.

﴿ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾[2]

(1) تفسير المنار،ج8، 526.
(2) سورة الأعراف، 86.

روي عن ابن عباس في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾

أنــه قال:«**كانـوا يجلسون فـي الطريق فيقولـون لمن أتـى عليهـم، إنّ شعيباً كذّاب فلا يفتننَّكم عن دينكم**»[1].

«**يُلاحظ أنّ ابن عبّاس اعتبر أنّ الصراط هو الطريق الحقيقي بينما اعتبره مجاهد أنه الطريق المجازي وقال: المقصود كلّ طريق حقّ**».

وبمــا أنّ أهــل مدين والأيكة لم يصغــوا للحكم والنصائــح ولتحذيرات الأنبياء المصلحيــن والذيــن يستشرفــون المستقبــل، انحرفــوا عــن الطريــق، فابتلــوا بالعــذاب الأليم وكان الدمار من نصيبهــم: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[2].

وجاء في آية:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾[3].

قوم شعيب هم نموذج أخبر الله تعالى عن عملهم ومصيرهم. والسنّة تقتضي عذاب كلّ قوم وجماعة تعمد إلى الفساد وعدم الإصغاء إلى النصائح والتحذيرات، وهي سنّة جارية في كلّ مكان وفي كلّ أرض.

(1) تفسير المنار،ج8، 531.
(2) سورة الأعراف، 91.
(3) سورة هود، 94-95.

إنّ الحضارات ومهما كانت كبيرة شامخة وتمتلك عدداً كبيراً من الجنود والقادة أصحاب التدبير، تتجه نحو الزوال عندما يدبّ الفساد إلى الأركان الاقتصادية.

كتب الأستاذ محمّد تقي جعفري:

«**يمكن للفساد، أو الاختلالات الاقتصادية أن تكون سبباً لزوال كلّ حضارة؛ حتى لو كانت الحضارة تتحرّك في أعلى مستوياتها... البديهيّ أنّ المسائل الاقتصادية تشكّل قوام الحياة البشرية وساحة حركتها؛ لأنّ الإنسان لا يمكنه الاستمرار بالحياة من دون استهلاك موادّ الطبيعة، سواء كانت الحياة في شكلها الابتدائي أو في أعلى أشكالها**».[1]

ب- **الفساد الجنسيّ**: خلق الله تعلى الإنسان مع احتياجات متعدّدة. ووضع أمامه طرقاً لتحقيق كلّ واحد من هذه الاحتياجات، فإذا تمكّن من إرضاء حاجته عبر الطريق الصحيح، فقد اختار الطريق السليم ووصل إلى المنزل بسلام، وإلا سيُبتلى بالانحراف والوقوع في المستنقعات.

ت - **الحاجة الجنسيّة**: هي حاجة شريفة قيّمة وضعها الله تعالى في وجود الإنسان ممّا يضفي على المجتمع الإنساني الحركة والسعي والانشراح، وهي حالة تخرج الإنسان من حالة الركود، وبها قوام أركان المجتمع.

يتمكّن الإنسان وبوساطة هذه الحاجة، من الابتعاد عن الانزواء وعن حياة الغابات والصحاري ويلحق بالجمع، فيهب لتأسيس عائلة ويعمل بجدّ واجتهاد لإدارة المجتمع، فتتحرّك عجلة الحياة، ويزداد النسل البشريّ من خلال اختيار الشريك إذ إنّ قوام المجتمع بهذا النسل، وعلى أثر ذلك تظهر الحضارة ويتمتّع الإنسان بالكمال في ظلّ مجتمع وفي أرض متطوّرة.

(1) ترجمة وتفسير نهج البلاغة، ج5، 218.

فإذا كانت هذه الحاجة قد وُضعت في وجود الإنسان من أجل بقاء النسل البشريّ وتأسيس المجتمع وإثمار الحياة والتخلّص من الوحدة والحيرة والانزواء، فإذا لم يعمل الإنسان على إيجادها بشكل صحيح وإذا رفض ما أمر به الأنبياء عليهم السلام، عند ذلك ستحصل الجريمة البشرية كما أصاب بعض الفرق والمجموعات التي كانت تشبع هذه الرغبة بأيّ وسيلة وطريق، وهنا يشير القرآن الكريم إلى واحدة من هذه الجرائم البشرية وذلك لأجل الاعتبار منها:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1]

كان قوم لوط يعيشون النعمة وكانوا يعيشون في أرض يُطلق عليها سدوم وعمورة، وهي أرض عامرة خضراء وفيها العديد من المراعي والحيوانات.

إلّا أنّ هؤلاء القوم لم يشكروا النعمة واختاروا طريق الفساد، فأقاموا مجالس الفساد من دون حياء إذ إنّهم اختاروا الرجال وابتعدوا عن النساء.

آمن لوط بإبراهيم ثمّ جاءه التكليف من الله تعالى لنجاة قومه من مستنقع المثليّة. عمل كثيراً إلّا أنّ النتيجة لم تكن مُرضية. وفي النهاية ضاقت الأمور عليه فطلب من الله تعالى إزالة أساس هؤلاء القوم من ساحة الوجود:

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[2]

استجاب الله تعالى له، وأرسل ملائكة العذاب إلى هؤلاء القوم لتخريب ديارهم وقلبها رأساً على عقب، فدُفن في الأرض جميع عبدة الشهوات:

(1) سورة العنكبوت، 28.
(2) سورة العنكبوت، 33.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾

جرت السنّة الإلهية، وأنجز الله تعالى وعده وتمّ القضاء على القوم الفاسدين:

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[1]

ج-**الإسراف**: خلق الله الإنسان ووضع الطبيعة في اختياره من أجل الاستمرار بالحياة وللحفاظ على النشاط فيها والتطوّر والتكامل.

أعطى الله تعالى الإنسان، العقل والشعور والقدرة على معرفة الحقّ من الباطل ليتّبع طريق الكمال وليميّز بينه وبين المخلوقات الأخرى وليؤسّس للحياة والمجتمع الإنساني وليحافظ على الطبيعة ويستفيد من مواهب الطبيعة في حياته وحياة الموجودات الأخرى وذلك بشكل عقليّ، وأعطاه الله الجسم القويّ ليتمكّن به من التغلّب على الموانع والعبور عنها ولينظم حياته على أفضل وجه، وجعل فيه القوّة الشهوانية ليتمكن من الوصول إلى الهدف وزيادة النسل البشريّ والحؤول دون الاندثار، فإذا لم يستفد الإنسان بشكل صحيح من آلاء الله ولم يستخدم ما أعطاه الله في سبيل الكمال وتمتين أسس مجتمعه، وإذا جعل قواه واستعداداته وكذلك الطبيعة وما فيها والعناصر الأربعة: الماء والتراب والهواء والنار، أموراً عبثية أو استفاد منها من دون ضوابط بل كان مسرفاً فيها، خرج عن زمرة من أحبّ الله:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[2]

(1) سورة العنكبوت، 34.
(2) سورة الأعراف، 31.

إنّ الاستفـادة من أنواع المآكل والمشرب والمواد الغذائية، مقدارٌ محدَّد، فإذا تجاوز حدود الاستفادة وجدت الآفات. لقد غرقت العديد من المجتمعات الإنسانية والحضارات في مستنقع الموت وذلك للإسراف في المآكل والمشرب، ولأنّ الكثير من الدول بالأخص الدول المتقدمة، تتجه نحو الإسراف والتبذير، يعيش جزء من العالم في ظلمات الفقر والجوع حيث إنّ الجوع يلاحق الكثير من تلك المجتمعات.

لقد دقّت الحضارة الغربيـة والعديد من المجتمعات والدول المتطوّرة، ناقوس موتهـا بسبـب الإسراف والتبذير، وستصـل إلى الانحطاط والـزوال إذا استمرّت بهذه الحركة التخريبية، وإذا لم تنزل من مركب الغرور والكبر وإذا لم تبتعد عن الإسراف والتبذير.

كان فرعـون علـى رأس المجتمـع المصـريّ المتحضّر والمتطـوّر، وكان يتمتّع بقـدرة وسلطة وهيمنة وثروة وشوكة لا حدود لها؛ حيث لم يكن لأحد أن يتصوّر أن يسقط هذا الشخص ممّا كان فيه؛ إلّا أنّ تلك الحضارة قد سقطت وزالت سلطته وغرق في الماء ذليلاً حتّى إنّ الماء حمل جسده إلى الساحل لأجل العبرة.

اعتبر القرآن الكريم أنّ هذا الإنسان العاصي والظالم، من المسرفين:

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1]

ويقول:

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[2]

(1) سورة يونس، 83.
(2) سورة الدخان، 30-31.

السنّــة الإلهية أن يــزول المسرفون والمبذّرون. هذا قانون عــامّ ودائرة شموله واسعة. إنّ كلّ قوم وأمة ومجموعة لا تصغي لنداء الحقّ ولا تذعن لله تعالى وتتعامل مع آلاء الله من دون قواعد وضوابط وتسرف فيما هو بين أيديها، سيكون مصيرها الزوال.

هكـذا كان مصيــر قوم عاد أصحــاب القصور والأبنية العظيمــة، ومع ما كانوا يمتلكـون من عظمــة وقدرة وكذلك قوم ثمــود والذين كانوا على مقــدرة عالية في البناء في قلب الصخور والجبال الصعبة، وكانوا على مقدرة عالية في شقّ الجبال والصخور،[1] وذلك بسبب معاصيهم الكثيرة ومن جملة ذلك الإسراف والاستفادة غير الصحيحة من القوّة والسلطة والفكر والطبيعة ومن نعم الله المتعدّدة، فدُفنوا في قلب الصخور وأحاط بهم العذاب الإلهي وزالوا من الجذور.

كان قــوم ثمــود يمتلكـون كلّ مقوّمــات الراحة والحيــاة الطيبة مــن البساتين والمراعي والمحاصيل والبيوت الجميلة، إلّا أنهم لم يصغوا لصالح عليه السلام واتبعوا المسرفين، فكان ما حدث لهم كما حدثنا الباري عز وجل في سورة الشعراء.[2]

كذلــك قوم لوط الذي كانوا من المسرفين حيث تجــاوزوا الحدود التي وُضعت لهــم، فلم يكتفوا بالنساء بل وصل التجاوز والاعتداء إلى الرجال والصبيان، فكان لهم العذاب الأليم:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[3]

3- **الترف:** تبقى الحضارات والمجتمعات ثابتة وصلبة من خلال بذل الجهود ومن خلال التضحية والعمل لأجل الإنسان الآخر الذي يتطلّب القناعة

(1) سورة الفجر، 7-9.
(2) سورة الشعراء، 147-148-149-150-158.
(3) سورة الأعراف، 81.

والابتعاد عن الترف، ومن ثَمَّ تقبل الحرمان والمحرومية والتعايش مع الصعوبات والآلام ومشقّات الأيام.

إنّ أيّ حضـارة وأيـة حركة تاريخيـة عظيمة، وأية حركة تغيريـة مصيرية، لم تقدّم أيّ ابتكار وخلاقية ولم تغرب من ساحة الوجود إلا بعد الغرق في الترف.

فـي كلّ مكان وُجدت حضارة وفي كلّ مكان وُجـد مجتمع وعلى امتداد التاريخ، كان النـاس يصلون إلـى العزة والمقدرة والحضارة والمجتمـع الحيوي، إلّا ورافق ذلك التفكّك والآلام.

ظهـرت الحضارة الإسلاميـة على أثر الجهـود والتضحيـات والإرادة الصلبة وكان حيوياً لسنوات. ولكن لو تحول هؤلاء الناس المضحّون ليدخلوا مجالات العمل علـى اختلافها والذين يضحّون فـي الليل والنهار ليبنوا حضارة ومجتمعاً قوياً من دون توقّـف، وإذا غرقت الأجيال اللاحقـة في الانتصارات بعد الوصول إلى الأوج، وطلبـوا الرفاه والترف وحسن العشرة وإذا أمضَـوّا أيامهم على جانب من الترف وفـي حدائقهم الغناء ينعمون بما امتلكوا من ذهـب وبساتين وفواكه عديدة، وإذا استخدمـوا الآخريـن لأجـل مآربهم وسكنـوا القصور مرتاحي البـال غارقين في أيامهـم الجميلة يسرفون فـي كلّ ما يحيط بهم... من الواضـح أنّ هذه الحضارة ستـؤول إلـى الأفول حتى يصـل بها الأمر إلـى أن تبقى مدنهم خاليـة لا تجد من يحافظ عليها أو يحرسها وستبقى خالية من الغَيور الذي لا يحرّكه أيّ شيء عندما يأتي العدو. هكذا حضارة لن يكون مصيرها سوى الزوال.

كتب جواهر لآل نهرو حول غرق الحضارة الرومانية في الظلام:

«أليـس مـن الغريـب أنّ مدينـة إمبراطـور الـروم السلطويـة تتجـه نحـو الانحطـاط والـزوال بهذه السرعـة والسهولـة إذ وصل الأمر بالقبائـل أن تهبّ لمقارعتها ومحاربتها».

قد يتصوّر البعض أن ما وصل إليه الروم هو بسبب التقسيم أو لأنّ روما أضحت كالصدف الخالي من الداخل. قد تكون هذه الأمور صحيحة.

«وصلت سلطة الروم في تلك الأيام إلى أوج الشهرة والاعتبار، ويشير تاريخ الروم القديم إلى أنّ الكثير من الناس كانوا يعتقدون أنها تقود العالم. لذلك كانوا يتصرّفون معها باحترام فائق، لا بل يمكن القول باحترام خرافيّ. وعلى هذا الأساس، استمرّت روما بحياتها، كان الظاهر أنّ الروم أصحاب إمبراطورية قوية، وفي الحقيقة كانت هذه السلطة غير ذلك. الظاهر أنّ روما كانت هادئة، يتراءى العدد الكبير من رجالها وأتباعها في المسارح وساحات الرياضة والأسواق، إلّا أنّ ذاك الوضع كان محكوماً بالانقراض؛ لأنّ الحقيقة أنّ هناك دولة ضعيفة، وانهار أساسها، بالأخص وأنها كانت تُعرف بالحضارة الإشرافية التي بنيت على أساس الفقر والاستعباد»[1].

الثروة، شفرة ذات حدين، يمكنها أن ترفع شأن المجتمع وتوصله إلى الأوج وتجعل أسسه صلبة قوية ثم إنّها تضفي التعالي على الفنون والصناعات وتزدهر الزراعة بوساطتها وكذلك تربية المواشي وينتشر العلم والمعرفة ويزول الجهل...

كما أنّ الثروة بإمكانها إغراق المجتمع في مستنقع الموت بسبب الاستفادة غير الصحيحة.

كتب ويل ديورانت:

«هذا هو تقريباً القانون العامّ التاريخيّ أنّ الثروة التي هي سبب ظهور الحضارة، تنذر بانحطاط وانقراض تلك الحضارة أيضاً. والسبب في ذلك أنّ الثروة كما بإمكانها إيجاد الفناء، تؤدّي إلى وجود الترف وجعل الجسم والطبيعة لطيفين وظريفين»[2].

(1) جولة في تاريخ العالم،جواهر لآل نهرو، ج1، 282.
(2) تاريخ الحضارة، ويل ديوارنت، ج1، 263.

يعتبر القرآن الكريم أنّ ظاهرة الترف، هي ظاهرة شؤم للمجتمع الإنساني وهي خطر كبير على مستوى العزّة والقدرة، ويُهيِّئ المترفون الأرضيّة لأيّ نوع من أنواع الذلّ والوضاعة والمهانة في المجتمع.

إنّ الذين يهيّئون الأرضية لعدم الرضا الجماعيّ ويوسعون دائرة الفقر من خلال طمعهم وظلمهم واستئثارهم بالأملاك العامّة ويضيّقون المجال على الناس الفقراء الذين لا حول لهم ولا قوّة حيث يصبح هؤلاء جاهزين لأيّ تغيير، هنا يبدأ العدوّ الهجوم من دون أن تتوفر القوة المقابلة للمقاومة والمواجهة.

إنّ طمع أولئك يمنعهم من سماع صوت الحقّ؛ لذلك وقفوا أمام حقانية رسل الله وأعلنوا إننا كافرون بما أُرسلوا به:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[1]

أمّا الأمم التي لا تستعدّ لمواجهة الطامعين والمترفين العاصين لأمر الله والمتخلّفين عن القانون والمعايير الأخلاقية والإنسانية، ولم يهبّوا للمعارضة متّبعين في ذلك الأنبياء والعلماء أصحاب العلم والتقوى، ليطهّروا الأرض من أوساخ الطامعين المترفين، هؤلاء سيغرقون في المستنقعات التي أوجدوها بالفسق والمعصية:

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾[2]

4- **الالتزام والتقيد بالأفكار القديمة:** ارتقت الحضارات الإنسانية الكبيرة في ظلّ الأفكار الجديدة والمتعالية وفي ظلّ العقلانيّة.

(1) سورة سبأ، 34.
(2) سورة الإسراء، 16.

إنّ الأفكار الجديدة والثقافات الحيّة هي التي تؤدّي إلى إيجاد الحضارة وتحرّك عجلتها.

تحصـل الحضارة على الحياة والحركة نحو الكمال والتطور والتعالي من خلال الأفـكار والتعاليـم المتجدّدة وتتنفّس فـي أجواء الفكر الجديـد المتطوّر والمبدع والعميق، فلا تذبل مع مرور الزمان ولا تتوقّف عن الحركة.

ينبغـي علـى الحضـارة أن تطير على أجنحـة العقلانية والاستفـادة من عقول الآخرين وأفكارهم المتجدّدة ومن خلال التخلّي عن الأفكار القديمة غير الفاعلة، لتتمكّن من الإبداع في مجال الفناء والوصول إلى أعلى مستويات التطوّر الصناعي والزراعي والتعليم والتربية، وعليها أن تثبت أقدامها في طرق جديدة على مستوى تربيـة الأطفال والناشئة والشباب. كمـا أنّ عليها إبداع أساليـب جديدة لمحاربة المشاكل الاجتماعية.

الفكر والعقلانية هما روح الحضارة. إذا توقّف الفكر عن الحركة وامتنع العقلاء عـن استخدام عقولهم في سبيل الكشـف عن طرق جديدة لحركة قافلة الحضارة، وإذا جلس الجهلاء على الأريكة، تَفْرغ الحضارة من الداخل وتنهار بسرعة.

إنّ حيوية وتعالي الحضارة يرتبطان بشكل أساس بالأفكار الجديدة والمتجدّدة باستمرار. وقد تكون الأفـكار الجديدة اليوم متعالية بإمكانها إيجاد حضارة ونفخ الروح في جسدها، إلّا أنها قد لا تكون كذلك في الغد وما بعده ممّا يؤدّي إلى الأفول والذبول.

ممّـا لا شكّ فيه أنّ حركة القدماء كانت على أساس الزاوية التي كانوا ينظرون منهـا ممّا أدّى إلـى وجود موج خاصّ، ولكن إذا أردنا اليـوم إيجاد ذاك الموج من منطلق ذاك الفكر وتلك الرؤية، فلن نتمكّن من ذلك، بل سنسقط.

إنّ السبب الذي جعل العديد من الحضارات تتعرّض للأفول وعدم القدرة على الحركة في المجالات الجديدة والاستفادة من الأفكار الجديدة لحياتها ونشاطها، هو أنّ أصحابها كانت أعينهم تتجه باستمرار نحو الماضي، فغضّوا أبصارهم عن المستقبل وغفلوا عن كلّ الحركات والجهود والأفكار الجديدة ولم يسمعوا بها.

يقول الشهيد مطهّري في هذا الخصوص:

«هناك سببان لتوقّف المجتمع: الأول: تقديس الماضي أي: التعلّق بالماضي من جهة فيقدّسه، ويقبّح الجديد عمداً لأنه جديد. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك وهناك الكثير حول الأمر الأول وهذا ما واجهه كافّة الأنبياء عليهم السلام حيث كان يقال ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ كان تعاطي الأمم مع الأنبياء عليهم السلام مختلفاً، حيث كانت كلّ أمة تواجه الأنبياء عليهم السلام بخصائص معيَّنة وفساد أخلاقي محدّد، ولكنّ الأمر المشترك الذي واجهه كافّة الأنبياء عليهم السلام، هو أصل التقليد.

الثاني والذي هو عكس هذا الوضع، العداء مع الجديد، فهو موجود حيث يقبّحون الجديد لأنه جديد، فكانوا يخالفون كلّ شيء جديد. وكان البعض يعمّم الحديث النبويّ: «شرّ الأمور محدثاتها» على كلّ الأمور في الدين. مع العلم أنّ المقصود هنا هو البدعة».[1]

إنّ التطلّع إلى الماضي وإقفال الآفاق على الجديد وإغلاق ساحات ومجالات الجديد والوقوف أمام كلّ فكر جديد، كلّ ذلك يمنع المجتمع من التطوّر ويقفل الطريق أمام تعالي وتكامل الحضارة، وعندما يقفل طريق التعالي والتكامل وعندما لا تتمكّن الحضارة من مماشاة الزمان والإجابة عن احتياجاته، تصل إلى الأفول والزوال.

(1) مجموعة الآثار، الشهيد مطهري، ج13، 806.

إنّ التعلّـق بالفكـر القديم ليـس منحصراً بالمسائـل العقائديـة والدينية، بل كلّ نـوع من التعلّق الفكـريّ وكلّ فكر قديم، بمثابة آفة للتطـوّر والتعالي. إذا أغلق المفكّرون والعلمـاء والمثقّفون، نوافذ أذهانهم وأفكارهـم أمام التحوّلات العلمية والظواهـر الجديـدة والأساليب المحدثـة، وإذا رفضوا الإبداعـات والاختراعات العلميـة في مجال العلم، وإذا لم يستفيـدوا من الأساليب التعليمية الجديدة، فهم بذلك يأخذون المجتمع إلى الحضيض ويقوِّضون أسس حضاراتهم.

وهناك الكثير من الحضارات التي تلاشت بعد ما ابتليت بهذا المرض.

كتب جواهر لآل نهرو قائلاً:

«إنّ نهايـة إمبراطوريـة الروم الغربيَّة والتي كانت فـي الوقت عينه مرحلة نهاية جلال وعظمة روما حيث زالت الحضارة الظاهرية والسطحية التي وجدت في روما، في ظرف يوم واحد تقريباً؛ لأنّ مصادرها قد جفت قبل ذلك بكثير.

وعلى هذا الأساس نحن نرى أنّ إحدى مراحل التاريخ العظيمة شهدت تراجعاً للبشريـة. وقـد حصـل هـذا الأمر في الهنـد وفي مصـر والصين واليونـان وروما وأماكـن أخرى. وبعد مرحلـة من النشاط العلميّ والتجـارب التي حصلت بمشقّة وتعـب وجهـد على امتداد سنـوات، وبعد حصول حضارة وثقافـة، وجدت حالة من التوقّف. طبعاً لم يكن الأمر مجرد توقف وسكون فقط، بل كان رجوعاً إلى الوراء.

وكأنّ مـا حـدث عبـارة عـن إيجاد حجاب علـى الصـورة الماضية. ممّـا أجبر الناس على تسلّق جبال العلم والاختبار من جديد.

لعـلّ البشـر كانـوا فـي كلّ مرحلة يرتقون قليـلاً، ثمّ بعد ذلـك يصبح طريق الصعـود أكثـر سهولـة. بالضبط كما نشاهد أنّ فـي كل فترة تقوم مجموعة بعد مجموعة بالصعود إلى «قمة إفرست»...

مـن هنـا نرى أنّ الظلام أحـاط بأوروبا، حيث بدأت قـرون الظلام وأصبحت صـورة الحيـاة خشنـة وصعبة وخالية. لم يبـقَ أيّ نوع تقريباً مـن أنواع التعليم والتربية حتى بدا وكأنّ الحرب والنزاع هما الوسيلة الوحيدة للحياة والانشغال. طبعاً مرحلة سقراط وأفلاطون كانت بعيدة للغاية».[1]

يتحدّث القرآن الكريم حول الأشخاص الذين كانوا يشجّعون الناس على تقليد القدمـاء والذيـن كانوا يمنعونهـم من الإصغـاء لأفكار رسـل الله الجديدة، حيث كانوا يعرضون على النـاس أدياناً جديدة ويحذرونهم من التقليد الأعمى والضال والمخرب، ثم يقول:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾[2]

لقـد وضعـت الآية الشريفـة والآيات المشابهة لهـا، الإصبع على أهـمّ سرّ من أسـرار بقـاء المجتمع والحضارة حيث ينبغي علـى المسلمين بالأخصّ الحذر من الذين يُرجعونهم إلى الثقافة والحضارة البالية القديمة إذ لا يمكن التطوّر والتقدّم من خلال التقليد الأعمى وغير المنطقيّ.

المترفون لا يسمحون للدين أن ينهض لعلاج الاحتياجات الجديدة والإجابة عن احتياجات الناس حيث أراد الدين فكّ أغلال القيد الأعمى ليفتح بذلك آفاق الفكر علـى الناس، لذلك ينبغي وعلى الدوام مواجهة هذه الظواهر المشؤومة بوعي وفي كلّ زمان ومكان.

(1) جولة في تاريخ العالم، جواهر لآل نهرو، ج1، 283.
(2) سورة الزخرف، 23.

الشهيد مطهري والوجه الآخر للحضارة الغربية

السيد عباس رضوي(*)

شكلت الحضارة والثقافة الغربيتان في بلدنا، ومنذ بداية ظهورهما وبروزهما وانتشارهما، مقولة للبحث واختصت بجزء مهمّ من الكتابات والحوارات. وصل الحديث عن الثقافة والحضارة الغربية إلى الأوج في عهد الحركة الدستورية وما بعدها. وادعى أصحاب هذه الحضارة أنّ الحركة الصناعيّة الغربيّة هي الجنّة الموعودة، وأنّ تلك المجتمعات هي المدن الفاضلة. من هنا بدأت مجموعات السياسيّين والتجّار والسوّاح و... تتوافد على تلك البلاد وذلك بسبب الحملة إعلامية الغربيّة الواسعة على الرغم من العلم والرؤى البسيطة والقليلة. فكلّ ما كانوا يشاهدونه، كانوا ينظرون إليه بعين الجمال حيث أضحت ثقافتهم الخاصّة خالية من كافّة أشكال الجمال.

لقد أُصيب الذين توافدوا على الغرب بالبهتان والحيرة فانكروا أنفسهم فأصبحوا يعتقدون أنّ الأوروبيين أفضل منهم وأنّ أوروبا أفضل من أرضهم.

وبعد دخول التكنولوجيا والبضائع الأوروبية إلى إيران دخلت معها أخلاقهم وثقافتهم التي أدخلت الأفكار والعقائد شيئاً فشيئاً، فضاقت الأجواء عن الكثير من الآداب الإجتماعيّة وأنماط الحياة، وتهافت المفكّرون وطلبة العلوم على الحضارة الغربية حتّى إنّهم كانوا يتصوّرون أنّ الثقافة الغربية هي الوحيدة الكفيلة بسعادة

(*) كاتب إيراني في مجلة حوزة.

البشريّة. روَّج العديد من أتباع الثقافة الغربية لأفكارها وأصبح الإيراني الباحث عن الحضارة يبحث عنها في الغرب إذ أصبح ينبغي عليه أن يكون غربيّاً من رأسه إلى أسفل قدميه، ومن جملة ذلك في الخطّ واللغة والآداب الإجتماعيّة[1].

لم يكتف بعض مدعي التنوير بهذا، بل تركوا كلّ ما يمتّ بصلة إلى تاريخهم الماضي حتّى لو كان باعثاً على الفخر، فازدادت دائرة الاعتقاد بالغرب والابتعاد عن الثقافة الذاتية، ولم يبقَ أيّ مكان للفكر الدينيّ في هذه الحركة الجديدة حتى إنّهم قالوا: إن سرّ التطوّر الصناعيّ الغربي يعود إل ابتعادهم عن المذهب والثقافة اللّذين كانا في الماضي، ونحن كذلك إذا أردنا الحضارة، يجب علينا أن نتخلّى عن اعتقاداتنا وسنننا القديمة والتخلّص من كلّ قيد وبند. وقد لاقت هذه الرؤية دعماً من قبل الحكومات العميلة للغرب في إيران، وأدّى الأمر في النهاية إلى أنواع من المواجهة بين الدين والثقافة الوطنية.

يُعتبر الأستاذ مطهّري من جملة المفكّرين الذين هالتهم هذه الظاهرة المهاجمة، ولم يكن بعيداً عن مسؤوليّاته ورسالته حيث وقف أمامها بكلّ وضوح وشفافية.

درس الأستاذ مطهّري الغرب وحضارته بشكل عميق وقيَّم مبادئه الفلسفية والاجتماعية بعيداً عن الأحكام المسبّقة، وتحدّث إلى المجتمع حول مختلف زوايا تلك الحضارة. إنّ الدراسة والبحث في رؤى الأستاذ مطهّري يمكنهما أن يؤدّيا اليوم دوراً مفيداً ممّا يضفي نوعاً من الفعالية والحركة على المثقّفين وأهل الفكر. صحيح أن الغرب قد شهد اليوم تحوّلات واسعة، ومع ذلك فالحضارة الغربية اليوم هي مظهر من مظاهر الحضارة الصناعية التي ظهرت بصورة جديدة. يؤكّد الشهيد مطهّري أنّ للغرب وجهين: الوجه الإيجابيّ الذي يجب الاستفادة

(1) الثورات الإسلامية في المائة السنة الأخيرة،الشهيد مطهري، 27،إنتشارات عصر، قم.

منه والوجه السلبيّ الذي يحمل الفساد، وبحثنا يتركز حول الوجه الثاني للغرب. يعتقد الشهيد مطهّري أنّ الغرب يستحقّ المدح في الوجه الأوّل. فالإسلام هو دين الإنصاف والواقعية، وهو ينظر باحترام إلى قيم وحقوق الناس مهما كانوا، وإذا شاهد ما هو ذو قيمة ويمكن الإستفادة منه عند أعداء الإسلام، كان يمتدح ذلك.

قدّمت الحضارة الغربيّة للبشر إبداعات جديدة في مجال العلوم الإنسانيّة والتجريبيّة، رفعت من أمامه العديد من الصعوبات والمشكلات. ثمّ إنّ هناك بعض أشكال التقدم في الغرب هي نتيجة أعمالهم وجهودهم، وهناك أشكال أخرى حصل عليها الغرب من خلال الجهود المستمرّة وتارة عبر طرق غير صحيحة من جملتها الاقتباس من مدارس وأديان وشعوب أخرى أمثال الإسلام والمسلمين، ثمّ يحاولون أن يقدّموا ذلك لنا من جديد. يشير الأستاذ مطهّري عند الحديث عن المسألة الأولى إلى عناوين أهمّها النظم والتنظيم واتباع القانون والانضباط في الأعمال[1]، والاهتمام بالتعليم والحساسية في مسألة الصحّة والنظافة العامّة[2]، واحترام الكبار في السنّ[3]، والعمل على التقدّم بالحياة البشرية والتجربة والتخصّص[4] و... حيث ينبغي على المسلمين النظر إلى الغربيين في هذه الأمور بعين الاحترام ومن ثَمَّ الاقتداء بهم فيها:

«يُضرب المثل بالأوروبيين في الصراحة والنظم ولا يجب علينا أن ننكر ذلك لأنهم أعداء لنا ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [5]. **إنّ إخفاء فضائل العدوّ وعدم الإعتراف بها لا يؤدي إلى إيجاد فضيلة فينا. لا**

(1) مسألة الحجاب، الشهيد مطهري، 134، صدراً
(2) عشر مقالات، الشهيد مطهري، 153، صدراً.
(3) الامدادات الغيبيّة في حياة البشر، الشهيد مطهري، 140، صدراً.
(4) الإسلام و متطلبات العالم المعاصر،الشهيد مطهري، 24،النشرة رقم 48، حزب الجمهورية الإسلامية.
(5) المائدة، 8.

بل على العكس [ذكر فضائلهم] يؤدي إلى العبرة والغيرة عند المسلمين»[1].

أمّا المسير الثاني الذي أوصل الغرب إلى الصناعة والتكنولوجيا فكان على أثر معارضة رؤية الكنيسة الدينية والعلاقة بين الإنسان والله ومحاربة عقلانية أرباب الكنيسة. يعتقد الأستاذ أنّ الحركة العقلانية ومحاربة الجمود والجهل اقتبسه الغربيون من الإسلام. وللإنسان في الإسلام مكانة عالية. إذ بإمكانه الصعود إلى الأوج بتلك الأجنحة، وبالتالي بإمكانه أن يصنع لنفسه عالماً جميلاً وأن يبنى هذا العالم على أساس العقلانية.

للعقل في الإسلام مكانة عالية، والعقل هو المعيار الوحيد لفهم الاعتقادات الأساسيّة أمثال التوحيد والنبوّة. وهو واحد من مصادر التشريع إلى جانب الكتاب والسنّة، وهو حجّة وسند[2]. إنّ قافلة العقلانية التي كانت منشأ الكثير من البركات في الغرب، قد ظهرت من حضن الإسلام والحضارة الإسلامية قبل أن تظهر من الثقافة الأوروبية، حيث لم تحمل أوروبا في إنجازاتها العلمية والثقافية الماضية (القرون الوسطى) سوى محاربة الإبداع والعقلانية[3]. أما المسلمون فكانوا لقرون طويلة قادة قافلة العلم والحضارة حيث نشأ بين المسلمين علماء لا نظير لهم. أدّى صدام الثقافات أثناء الحروب الصليبية إلى أن يستيقظ الغربيون من سباتهم حيث أدركوا نقائصهم فبدأوا حركتهم بالالتحاق بقافلة العلم والبحث. ما يؤسف له أنّ المسلمين الذين كانوا لمدّة عشرة قرون من السابقين والمتقدّمين في العالم على مستوى الحضارة، قد غرقوا في القرون الأخيرة في سبات عميق، فنسوا تاريخهم. لا بل أضحت أوروبا التي ساهمت في هذا السبات من أبرز المستفيدين منه حيث بدأت هذه الحركة العلمية والصناعية. يعتقد

(1) إجابات الأستاذ على نقود كتاب مسألة الحجاب، 32، صدراً.
(2) عالم اليوم وغداً، على أكبر كسمائي، 24، مؤسسة إطلاعات.
(3) دعوى ضد الحضارة الغربية، السيد قطب، ترجمة السيد علي الخامنئي.

الأستاذ مطهّري أنّ الحضارة الغربية في الصور المتقدّمة: أي الاهتمام بالعلم والصناعة والنظم وروحية الحريّة والعقلانيّة والقيم البشريّة الأخرى ذات الجذور الدينية، جديرة بالاستفادة، وهي في الحقيقة عبارة عن تبادل ثقافيّ إنسانيّ يقع في مصلحة المسلمين، وهي تقليد صحيح ومشروع[1]. ولكن ما كان يقلق الأستاذ هو الوجه الخفي للحضارة الغربية.

عمل الغرب، وخلافاً للصورة العلمية والصناعية، أن ينهض على حساب الآخرين، وأن يروّج لثقافته وقيمه عن طريق إزاحة الثقافات والقيم التي تعارضه والتوجّه نحو العولمة. لقد عمل الغرب المستعمر وبعد التخطيط والتبليغ الواسعين وبأساليب خاصّة على توجيه الأذهان نحو مقولة أنّ كلّ ما هو حسن وصالح إنما هو نتيجة ما قدّمه الغرب، وبالتالي فكلّ المذاهب والمدارس ما هي إلّا مذاهب ومدارس متأخّرة ومتخلّفة، ولم تحاول سَوْق البشرية نحو التحضّر. إنّ الانتصارات المتتالية التي حقّقتها الدول الغربية في مجال العلم والصناعة، والأهمّ من ذلك انتصارها في الحرب العالمية الأولى وانهيار الدولة العثمانية حيث لاقى الأمر ترحيباً واسعاً عند المفكّرين العرب والإيرانيين، زادت من محبوبية الأنظمة العربية التابعة للغرب ومهّدت الطريق لقبول القيم والمدارس الناشئة من الثقافة الأوروبية:

«إنّ انتصار الدول المتحدة في الحرب العالمية التي رافقت انتصار الديمقراطية والليبرالية الغربية، زادت من محبوبية الأنظمة السياسية عند المفكرين في آسيا. كان المفكّرون هؤلاء ينظرون إلى الاستقلال السياسيّ على أنه مجرّد وسيلة للتقدم في سبيل الوصول للتغرّب الأوروبيّ وقبول قيم الحضارة الأوروبية»[2].

(1) ملاحظات الأستاذ مطهري، ج2، 251، صدراً.
(2) م.ن، 193.

لم يكتفِ المتغرّبون المسلمون في الدول الإسلامية باتباع الغرب، بل ذهبوا أبعد من ذلك حيث بدأوا يوجّهون التهم للدين والمذهب بأنهما غير فاعلين: الإسلام عاجز عن مرافقة الحضارة البشرية الجديدة! وكان البعض يعيش على أمل أن يمتلك ما امتلكه الغرب. حاولوا إيجاد نوع من المواءمة بين الإسلام وما يدّعيه الغرب ويعتقد به وما يشكل أساس حركته ففسّروا الآيات والروايات بشكل يجعلها متلائمة مع القوانين والضوابط الغربية. كانوا يتركون تعاليم وقوانين أحكام الإسلام التي لا تتماشى مع القوانين الغربية والتعاليم الرائجة والمقبولة عند الغربيين، أو أنهم كانوا يعرضونها بشكل أبتر حتّى إنّهم كانوا يدّعون: أنّ تلك القوانين والتعاليم متعلّقة بالمجتمع البدائيّ في صدر الإسلام! إنّ هذا المرض الناشىء من قصر النظر، كان يعمّ الدول الإسلاميّة. حاول بعض مدَّعي الفكر والمتظاهرين بالعلم تفسير آيات القرآن الكريم برأيهم ليبينوا من خلال ذلك أنّ الآيات الشريفة تنكر الحجاب الإسلاميّ للنساء، وبذلك كانوا يدعمون البرنامج الإلحاديّ لرضا خان[1].

وقد نُشر في مصر عشرات الكتب المعارضة لأحكام الإسلام وتعاليمه[2].

كان الحبيب بورقيبة، رئيس جمهورية تونس، يتمسّك بمقولة أنّ الإسلام يدعم حريّة الفكر وكذلك التطور والتقدّم ليدّعي بأنّ العباءة كحجاب لا تتلاءم مع التقدّم والتطوّر، فأعلن وبشكل رسميّ وصريح عام 1960م عن كشف الحجاب. كان بورقيبة يشير إلى أنّ الرسول ﷺ كان لا يصوم في الأسفار التي كانت بقصد الحرب، ليقول بعد ذلك: البناء والعمل اليوم في حكم الجهاد ويجب على العمّال ألّا يصوموا. كان يعتبر فهمه للدين من أكثر القراءات قيمة[3]. كان الأستاذ

(1) الثقافة والخشونة، 189، مركز الوثائق الوطنية.

(2) أمثال: قاسم أمين في كتاب: تحرير المرأة ومرقص فهمي، في كتاب المرأة في الشرق. راجع: فهم المدرسة العقلية الحديثة، فهد بن عبد الرحمن الرومي، 767، مؤسسة الرسالة.

(3) المغرب الكبير، بل دلتا، ترجمة عباس آكاهي، 65، مكتب الدراسات السياسية والدولية.

الشهيد يستشعر خطر هذه الأفكار الهدّامة على فكر وروح المجتمع الإسلاميّ فكان يحذّر الجيل الصاعد من صورة الحضارة الغربية هذه، ويبيّن لهم ضرورة عدم الوقوع في شراكها، وكان يعمل على نقد وتقييم الإعلام الأوروبي من خلال مقارنة إعلامهم بعملهم[1]. كان الأستاذ يؤكّد على ضرورة مواجهة ظلمات التغرّب والتحريف التي كانت تتسع وتنتشر يوماً بعد يوم: الإسلام دين جامع يمتلك برنامجاً لكافّة احتياجات البشرية الحالية والمستقبلية ومصرّاً في قوانينه وتعاليمه على العزّة والكرامة والحقوق الأساسيّة للناس، وكان يقول: «**نحن لسنا بحاجة لأفكار الآخرين المنسوخة والبالية**».

إنّ تقليد الغرب بهذا الأسلوب ليس لا يدفعنا إلى الأمام فقط، بل يقضي على عزّتنا وشوكتنا[2] وقد ابتليت الأمم التي استسلمت للغرب ولحقت به، بعدم المروءة، وحرموا من عزتهم وحرمتهم.

من جملة الصور السلبية للحضارة الغربية من وجهة نظر الأستاذ مطهّري على النحو الآتي:

أ. **محاربة الدين**: يعتقد الأستاذ مطهّري بعدم وجود ارتباط وعلاقة منطقية بين الرنسّانس (عصر النهضة) في أوروبا وبين الإلحاد. وكما شهدت تلك البلدان وجود مفكّرين غرباء عن الدين وبعيدين عنه أمثال بيكون ورسل، كان هناك مفكّرون معتقدون بالله أمثال آنسلم وديكارت. نعم، كان هناك أشخاص ركبوا أمواج الحركة العلميّة والتجريبيّة في أوروبا، وأمسكوا بزمام ركاب هذه السفينة، وكانت تفصلهم مسافة كبيرة عن الله فربطوا، إمّا عمداً أو عن طريق الخطأ، بين التطوّر الصناعيّ والاجتماعيّ وبين النزعة الماديّة. رفض قادة الحركة الصناعيّة في الغرب الدين، لا بل وأدانوه؛

(1) قصص الأبرار، الشهيد مطهري، 338، صدراً.
(2) حول الثورة الإسلامية، الشهيد مطهري، 104، صدراً.

لأنــه بنظرهم عبارة عن قوّة رجعية معارضــة للعلم ومخالفة للديمقراطية، وأوضحوا أنّ العلمانية هي الحالة الواقعية للحضارة الغربية:

«**إنّ هذه الحرب الثقافية العظيمة التي استمرّت لأكثر من قرنين قد انتهت بالتدريج بانتصار المدنية والثقافة الصناعية. وظهرت معها المدارس غير الدينية والمؤسّسات الدنيوية، وتراجع الدين في الدول الصناعية على وجه العموم. وجهت مجلة التايم سؤالاً على غلاف عدد نيسان 1966: هل مات الله؟**[1]»

لم يكن الغرب، وخلافاً لما يدّعي، علمانياً ومروّجاً للحكومات غير الدينية فقط، بل كان معادياً للدين، وقد أفرد في حضارته الموجودة مكاناً لمحاربة المذهب والمؤسّسات الدينية. أَظْهَرَ الغرب أنّ الدين يحول دون تقدّم المجتمع وفي أيّ مكان حكمت فيه النهضة، تمّ إخراج الدين من دائرة الحكومة والسلطة. صحيح أنّ أعمال الكنيسة والخشونة التي امتاز بها القساوسة كانت مؤثّرة على مستوى النظرة السلبية لقادة الرنسّانس نحو المسيحية[2]، إلّا أنّ هؤلاء القادة قد عمّموا الكراهية والعداء على كافّة الأديان. لقد أصبح التعصّب للتجربة بديلاً من شعار عدم العصبية ومحاربة التحجّر. فلو أخذنا فرنسيس بيكون، على سبيل المثال، الذي كان يردّد شعار الإنسان والعلم والتجربة والذي جعل خلوّ البحث من الغرض من شروط التحقيق والوجه الذي تمتاز به الحضارة الغربية الجديدة، كان في موقع العمل يتحدّث من منطلق الإنسان المتعصّب والحاقد الذي يتهجّم على دين الإسلام، من دون دليل وبرهان، لا بل كان يتحدث بعبارات واهية ويقول:

«**الإسلام دين يقوم على الإكراه وهو يمنع أتباعه من التفكير**»[3].

---

(1) الحرب وضد الحرب، الوين تافلر وهايدي تافلر، ترجمة شهيندخت خوارز مي، 312، انتشارات سيمرغ.

(2) أسباب الميل نحو المادية، مرتضى مطهري، 34، طوس.

(3) أحوال وآثار وآراء فرنسيس بيكون، جهانكيرى، 166، الإنتشارات العلمية والثقافية.

هذا الشخص إمّا أنه جاهل بالإسلام والقرآن وهو الذي كان يمنع الناس من التقليد الأعمى حيث كان يقيّم أفكاره على أساس العقلانية والتفكير، أو أنه كان يتحدّث بتلك العبارات انطلاقاً من التعصّب والعداء. إنّ الذي يسعى إليه سياسيّو الحضارة الغربية اليوم، محاربة الإلهيات المخلصة، وبما أنّ الإسلام هو أهمّ الأديان التوحيدية الذي جعل من خلاص ونجاة البشر أكبر وأبرز اهتماماته، فقد جعلوه في مقدّمة الأمور التي يعادونها، مع العلم أنهم يعترفون باحترام عبادة الأصنام والمذاهب البدائية[1].

الغرب المعاصر يبذل كلّ جهوده للدفاع عن الأنظمة المعادية للدين، وقد جعل من قضيّة مواجهة الإرهاب وسيلة لمحاربة الإسلام. طبعاً الغرب جاهز للحياة والمواءمة مع الإسلام الذي لا يرفض الشرك والإلحاد واستثمار الإنسان: يقول الشهيد مطهّري بعد إشارته إلى الظروف الحاكمة على العالم بعد الحرب العالمية الثانية:

«إنّ السياسة الحاكمة على العالم أو على نصف العالم، تريد للإسلام أن لا يموت وأن لا يعيش، بل أن يبقى في حالة نصف حيّ ونصف ميت. لقد انقسم العالم إلى معسكرين: الشرق والغرب. يتفق هذان المعسكران على أمرين: الأول: مسألة ألمانيا، والثاني: مسألة الإسلام. أمّا فيما يتعلّق بألمانيا، فصحيح أنهما يبحثان في الظاهر حولها، إلا أنهما في الباطن متفقان على عدم السماح للشعب الألماني بالحياة... وهكذا هو الحال بالنسبة للإسلام. خلاصة الأمر أنّ معسكر الشرق يعتقد بضرورة القضاء على الإسلام من الأساس، بينما يتجه المعسكر الغربيّ للاحتفاظ به في حالة نصف حياة ونصف موت»[2].

ب. **تدنّي الأخلاق:** من جملة المسائل الأخرى التي اعتبرها الشهيد مطهّري

(1) حول الثورة الإسلامية، 10.
(2) عشر مقالات، الشهيد مطهري، 140، صدرا.

منشـأ الكثير من الأزمات الفردية والاجتماعية، هي أساس الفكر الأخلاقي والمبادىء القيمية لهذه الحضارة. يعتقد الأستاذ مطهّري أنه وبغضّ النظر عـن وجود بعض النظريات المقبولة في بعضـ المدارس الأخلاقية الغربية أمثـال أفكار ونظريات ديكارت و... فـإنّ الحضارة الغربية تدور حول محور المعاييـر التـي لا تعتقد بكرامة الإنسـان، بل تذهب به إلى مـكان أدنى من مستـوى الحيوان. أصبـح الإنسان في هذه المدارس فاقـداً للذات والهوية، وابتعد عن أصله وطينته.

إنّ الحريّة التي يصرّ عليها الغرب، لا يقصد منها الحريّة المعنوية وتنمية الشخصيّة وإعطاء الإنسان حقّه الفطريّ والإلهيّ. بل تدور الحرية حول محور الأهواء النفسانيّة وإعطاء المجال لتحقّق كافّة الاحتياجات النفسية والجسمية للفرد. هذه الحرية هي نتيجة رؤى فرويد حول الإنسان، أو أنّ جذورها تقود إلى أفكار ميكيافيلي ونيتشه حول العالم والإنسان. تجتمع هذه الأفكار حول مسألة واحدة، وهي أن يستفيد الإنسان، الاستفادة القصوى من العالم وأن يتّجه نحو الثروة والسلطة. انتشرت مدرسة ميكيافيلي الأخلاقية السياسية في أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان يعتقد أنّ المواطنين يجب أن لا يكونوا ملتزمين بالمعايير الأخلاقية الرائجة عند الأديان فيما له علاقة بالحكومة والقيادة، وأمّا الأشخاص الذين تمكّنوا من الإتيان بأعمال عظيمة، فلم يفيدوا العمل الصالح بشيء، حتى إنّهم تلاعبوا بالبشر. وبما أنهم كانوا يعتمدون الحيل كالثعالب، لذلك خدعوا الناس ومارسوا كلّ شرورهم:

«القائد الذكيّ، يجب أن لا يكون وفياً لمواثيقه عندما يكون الأمر ضارّاً له حيث لا يبقى أي دليل لالتزامه وتقيده»[1].

أشار الأستاذ مطهّري وأثناء دراسته عقائد فلاسفة الغرب حول الإنسان، إلى

(1) الملك، نيكولو ما كيافيلي، ترجمة داريوش آشوري، 130، كتاب برواز.

مسألة أنّ من جملة الأسس والقواعد الأخلاقية في الغرب، مدرسة السلطة التي كان لها وجود قبل سقراط وقد حاربتها المسيحية، إلّا أنّها عادت للظهور من جديد في عصر النهضة. تقول المدرسة الأخلاقية لميكيافيلي ذات الجذور السياسية:

«**الأصل في السياسة، السيادة وكلّ شيء جائز في هذا الطريق: الكذب، الخداع، المكر والخيانة**».

ويضيف ميكيافيلي: «**عُرضت هذه المدرسة لاحقاً باعتبارها أخلاقاً عامّة وكانت النتيجة أصل السلطة في الأخلاق**»[1].

تعتبر الأديان الإلهية أنّ الحقيقة هي أساس كافّة الأشياء وإذا كانت الأديان تشجّع على العلم والمعرفة، فلأن العلم وسيلة للوصول إلى الحقيقة. إنّ تلك الحقيقة هي أمر معنوي وأعلى من الأمور المادية والمصالح الشخصية للإنسان. وفي الجواب عن سؤال: «**هل العلم أعلى أم المال**»؟ كان جواب الأديان باستمرار أنّ العلم هو الأعلى.

«**أمّا «بيكون» الذي كان لنظرياته الفلسفية دورٌ وتأثيرٌ في الحركة الصناعية الغربية، فكان جوابه أنّ العلم المفيد والأساسي هو الذي يوسّع من دائرته في الطبيعة، وهو الذي يحرّك الوسائل في سبيل رفاه الإنسان. أمّا اعتبار العلوم النظرية من وجهة نظر بيكون، فهو يساوي قدرة الإنسان على إنتاج العمل والمساعدة في الرفاه الدنيوي للإنسان. وبعبارة أخرى، العلم المقدّس هو الذي يخلق السلطة للإنسان ويُظْهر له أسرار ورموز الطبيعة ويؤمّن له المزيد من الرفاه**»[2].

حاول الأستاذ مطهّري تحليل آراء بيكون واعتبر أنّ آراءه قدمت خدمة كبيرة للبشرية على مستوى تحريك العلم في مسير اكتشاف الطبيعة واستفادة الإنسان

(1) الإنسان الكامل، الشهيد المطهري، 248، صدرا.
(2) أحوال وآثار وآراء فرنسيس بيكون، 37.

من الأرض، إلّا أنّها أدّت إلى وجود خسائر أيضاً حيث أنزلت العلم من مقامه الرفيع والمقدّس.

كان بيكون يقول: «**العلم لأجل السلطة وفي خدمتها، والمعرفة لأجل القدرة، وبذلك جعل العلم أسير السلطة وهنا اجتمع طريق بيكون ومسير ميكيافيلي ونيتشه:**

تقوم حركة الكون اليوم على أساس أنّ العلم بشكل عامّ في خدمة السلطة. لم يكن العلم في أيّ وقت من الأوقات كما هو اليوم أسير أصحاب السلطة والقوّة وفي خدمتهم، لا بل إنّ علماء العالم الأوائل هم أكثر الأشخاص أسارى. إنّ أكثر الأشخاص علماً، أينشتاين على سبيل المثال، ولكن من كان يخدم علم أينشتاين؟ كان في خدمة روزفيلت، كان أينشتاين عبداً عند روزفلت ولم يكن باستطاعته أن لا يكون كذلك»[1].

أمّا الرؤى الأخلاقية عند نيتشه التي تركت آثاراً كبيرة في الحضارة الغربية، فكان لها من وجهة نظر الأستاذ مطهري دورٌ كبير أيضاً في نشر الأنانية والظلم. لَخّص نيتشه قيمة الإنسان في القوّة والسلطة، واعتبر أنّ طينة الكون الطبيعية تقوم على أساس إنتصار الأقوياء على الأدنى من ذلك. وإذا أراد الإنسان السير مع الطبيعة، فما عليه إلّا أن يربّي جيلاً من الأقوياء وبالتالي إخراج الضعفاء من ساحة الحياة. يعتقد نيتشه أنّ الدين هو صناعة الضعفاء، ويخالف في ذلك عقيدة ماركس الذي كان يعتقد أنّ الدين هو صناعة الأقوياء. يعتقد نيتشه أنّ الضعفاء صنعوا الدين للقضاء على الأقوياء. يعتبر نيتشه أنّ الأخلاق التي روّج لها سقراط وبوذا والمسيح، هي أخلاق العبودية، وأمّا حوار المساواة والأخوّة والاعتراف بحقوق النساء والمغلولين، إنما هو سبب الفقر والانحطاط. يعتقد نيتشه أنّ هؤلاء

(1) الإنسان الكامل 252.

لا يشكّلون أيّ قيمة، ويجب القضاء عليهم، لا بل يجب حذف الله والآخرة والمحبة والعطف والليونة من الثقافة البشريّة؛ لأنّ منشأ العطف على الآخرين هو العجز، ومنشأ التواضع الحقارة[1]. ينقل الشهيد مطهّري عن العلّامة إقبال اللاهوريّ الذي عَرَف الغرب بشكل صحيح وكان صاحب نظريات في فلسفة الغرب، قوله: «**يفتقد الغرب أيديولوجية صناعة الإنسان والأساس الأخلاقيّ اللائق**».

إنّ الفلسفات والمذاهب الأخلاقية الغربية لا توصل الإنسان إلى الكمال، ليس هذا فحسب، بل تأخذ به إلى الحضيض. إنّ الأوروبي الذي يتحدّث عن الإنسان وحريته، وقف ولقرون متمادية وبوساطة القوّة حائلاً أمام تقدّم الآخرين ولم تتضمّن شعاراته الخادعة سوى الخداع:

«**إنّ مثاليّة أوروبا لم تظهر على صورة عامل حيّ في حياتها على الإطلاق، وكانت النتيجة وجود الأنا الضائعة التي بدأت تبحث عن ذاتها في الديمقراطيات المتعارضة مع بعضها البعض، التي كانت تستثمر الدراوشة لمصلحة الأقوياء. اقتنعوا بما نقول من أنّ أوروبا اليوم هي أكبر مانع في طريق تقدّم الأخلاق**»[2].

يذكّر الأستاذ مطهّري بممارسات الغرب اليوم، ويذكّر بمسألة:

يتّبع الغربيون اليوم طريق أجدادهم ويثبتون ثقافة محورية الأنا في تلك الديار. إنّ الفساد والخشونة في الدول الغربية ليسا إلّا وليد الإنحراف في مدارسهم الفكرية التي نشأت من فلسفاتهم غير الدينية:

«**هذه هي الروح الأوروبية. أمّا منشور حقوق الإنسان الذي يقدّمونه، إنّما هو لخداع الآخرين. التربية الأوروبية والأخلاق الأوروبية الحقيقية، هي أخلاق ميكيافيلي ونيتشه**»[3].

(1) م.ن، 260؛ الفطرة الشهيد مطهري، مجموعة الآثار، ج3، 524، صدرا.
(2) الثورات الإسلامية في المائة سنة الأخيرة، 51.
(3) الإنسان الكامل، 261.

إنّ اهتمام المجتمع الصناعيّ الغربيّ بالتقدّم الماديّ والسرعة في الإنتاج والمصرف وإخراج الدين والقيم الأخلاقية من المجتمع، ترك العديد من الآثار السلبية حيث يحقّ لنا الادّعاء أنّ أيّ منطقة في العالم لم تكن بأمان منه وبذلك نكون غير مبالغين. من جملة ذلك:

1 - **غربة الإنسان عن أخيه:** من جملة النتائج المشؤومة لحضارة أوروبا، أزمة العواطف والمحبة والأحاسيس الطاهرة والعلاقات العائلية. إنّ للإنسان أحاسيس عديدة وتتفتح استعدادات الإنسان وروحه في ظلّ الإتصال الجمعيّ والعائليّ. إنّ التربية والعاطفة والمحبة والصفاء العائلي وارتباط الأقارب ببعضهم، تهيِّئ الأرضية لنموّ الأحاسيس الطاهرة في المجتمع الأكبر. كانت المرحلة المتقدّمة على الحضارة الصناعية عبارة عن مرحلة ثبات العائلة. وكان ما يزال للحنان والعطف مكانهما، وكانت قداسة الوالد والوالدة ما تزال تلقى أهمية خاصّة. وكان الناس أكثر قرباً إلى بعضهم البعض، وقد ساهم الدين في سلامة الأجيال وزرع في الأذهان أعمق المحبة والالتزام نسبة إلى بعضهم الآخر، وكانت تربط الناس ألطف وأشرف العلاقات.

إنّ السرعة في التطوّر والتقدّم والاستفادة قد غلبت كلّ شيء. وبدل أن يعمل الإنسان للاستفادة من الآلة في سبيل نشر القيم المفيدة، أصبح عبداً لها. وعمت فلسفة الإنتاج لأجل المصرف والمصرف لأجل الإنتاج كلّ الأماكن، فشارك الجميع في هذا السباق الذي لا هدف له. أمّا أوّل الأمور التي جرى التضحية بها في هذه الحالة، فهي قوّة العائلة ومحبتها وعطفها. في هذا النمط من الحياة أصبح المرضى يستريحون في المشافي بدل المنزل، وأصبح الطفل يودع الحضانة والكبار دار العجزة. وأمّا الزوج والزوجة فأصبحا يعيشان بعيداً عن بعضهما في الغالب. وأصبح الأبناء غرباء عن الآباء. فتزلزلت تربية الأجيال، وعاش الأطفال

بعيداً عن حضن العائلة الدافئ. ولأنّ الأمّ عاشت في مكان فاقد للمحبّة، فلن تتمكّن من إعطائها لأطفالها. كلّ ما تقدَّم عبارة عن أزمات بدأ مفكرو الغرب يشعرون بظهورها وانتشارها وخطرها[1].

كتب الشهيد مطهّري في دراسة نتائج الحضارة الغربية هذه:

«الأمهات لا يشعرن بالمحبة المطلوبة تجاه أبنائهنّ. وهكذا الأبناء بالنسبة إلى الأمّهات والآباء وبالنسبة إلى الأخوة مع بعضهم البعض، فكيف بالجيران والمواطنين؟»[2].

أكّد الأستاذ مطهّري أنّ فقدان العاطفة الإنسانية في العالم قد ساهم في وجود مسألة المجاعة الموحشة في العالم الثالث وزاد من مقدار الموت الناشىء من عدم العدالة والتمييز العالميّ.

تشهد الإحصاءات على صحّة كلام الأستاذ. يعتبر الخبراء أنّ التكاليف العسكريّة التي تُصَرف في نصف يوم في العالم، كافية لتأمين الاعتبار الكامل لبرامج محاربة المالاريا في الأمم المتحدة. ويكفي ثمن دبابة متطوّرة واحدة في بناء ألف صفّ لثلاثين ألف تلميذ أو لتأمين طعام لثمانية ملايين شخص في يوم واحد. وإنتاج طائرة حربية واحدة يكفي لبناء أربعين ألف صيدلية في القرى. مع العلم أنّ الفقر المطلق وصل في دول العالم الثالث، إلى ثمانمائة مليون شخص، وعدد الأشخاص الذين يعانون من نقص في الغذاء وصل إلى خمسمائة مليون، ويشهد العالم حالات قحط وغلاء كبيرين في مناطق من أمثال: أفريقيا و... وفي كلّ يوم يموت ثلاثون طفلاً لعدم وجود المياه الصحيّة والغذاء الكافي[3].

تعترف الدول الصناعية وما وراء الصناعية بأنّ جزءاً مهمّاً من النموّ الاقتصاديّ

(1) برغمن، المرأة و المذهب و جيل المستقبل، نصر اللّه قادري، 166، انتشارات برگ.
(2) فلسفة الأخلاق، الشهيد مطهري، 233، صدرا.
(3) العالم المسلح، والعالم الجائع، ويلي برانت، ترجمة هرمز همايون بور، 92-100 - مؤسسة انتشارات الثورة الإسلامية.

فيها يعود إلى المصادر الرخيصة واليد العاملة في العالم الثالث. تعمد الدول الغنية إلى إتلاف الموادّ الغذائية الفائضة تلافياً لعدم هبوط الأسعار وتمتنع عن إرسالها للدول المصابة بالقحط. يُصرف في العالم حوالي ملياري دولار لإطعام الكلاب والقطط ويتلف الفائض بينما يموت الجياع الواحد بعد الآخر[1]. إنّ حالة عدم عطف البشر على بعضهم البعض نشأت من الفلسفة الحاكمة عليهم ومن خفوت القيم الدينية في المجتمعات. لقد ساهمت الفلسفات الدنيوية أمثال أفكار بيكون ونيتشه و... التي روّجت للإنسان القويّ وصاحب الثروة، في اتجاه البشرية نحو مقولة أنّ العلم والثروة يجب أن يخدما السلطة في العالم، فكان يتمّ التخلّي عن كلّ تعلّق يعارض هذا الهدف، وهنا يقول فرويد: إنّ قيمة كلّ تضحية وإحساس إنساني، هو النتيجة غير الواعية والروحيات غير العقلانية للإنسان حيث يجب على الإنسان التخلّص منهما. الواضح أنّ هكذا رؤية لن تحمل من النتائج سوى ما نشهده اليوم.

2 - **تفكّك العائلات:** يعتقد الأستاذ مطهّري أنّ من نتائج الفلسفات الغربية الدنيوية، تفكّك العائلة الأخطر من غربة الأفراد عن بعضهم البعض. إنّ طهارة المرأة والرجل وعفة وعصمة النساء من أبرز شواخص الأديان السماوية وقد أوصت كافّة الأديان الإبراهيمية الناس بالالتزام على المستوى الأخلاقيّ والجنسيّ، لا بل حدّدت هذه الأديان عقاباً لتخطّي حدود القيم الإنسانية. لقد ساهمت حكم وأساليب أتباع الأنبياء وطوال التاريخ في سلامة الحياة البشريّة، وضمنت الاستقرار والشعور بالأمان لدى الأجيال.

لقد أدّت أصداء بعض الأفكار التي كان لها دور في عصر النهضة الأوروبي في تزلزل بنيان المجتمعات، فكُسر سور العفّة العامّة. واعتُبر إلتزام وتقيّد العائلة

(1) فلسفة الأخلاق، 237.

بالرابط الشرعيّ نوعاً من الأسر، وحُذفت ضرورة نسبة الأبناء إلى الآباء من القانون.

أمّا فلسفة الأخلاق الرائجة اليوم في الغرب، فلا تعبّر عن منهج كانت ويونغ الأخلاقيّ، بل ما يجري الترويج له هو ذاك البعد الذي رَوّج له فرويد فاعْتُبر الإنسان مجموعة الغرائز والميول المادية الصرفة، فالإنسان عاجز عن تخطّي حدود الغرائز، وينبغي عليه الوصول إلى مرتبة الكمال في إشباع غرائزه ليمكنه التخلّص من السجن الداخليّ والقضاء على عقده النفسيّة.

وأمّا بناءً على المنهج الأخلاقيّ الحديث عند براترند راسل فيجب في الأخلاق الجنسيّة عدم وجود بعض الأحاسيس أمثال الخجل والعفاف والتقوى والغيرة في الإنسان![1]

الواضح أنه في ظلّ هذه الأفكار:

«**يجاز للإنسان أن يتخلّى عن المسؤولية، وأن يكون قاصراً ومقصّراً في ارتكاب أيّ نوع من المعاصي؛ لأنّ كلّ ما نقوم به هو بأمر من اللاوعي، أن نجعل أنفسنا بعيدين عن المسؤولية وعن نتائج أعمالنا**»[2].

يتحدّث مفكّرو العالم وبوضوح: مع أنّ هناك نظريات كثيرة في مجال علم النفس التي ظهرت في أوروبا، إلّا أنّ أفكار فرويد بقيت ولسنوات طويلة كالدم في عروق المجتمعات الغربية التي تركت آثاراً عديدة.[3]

اليوم ومن الناحية الاجتماعية، وفي العديد من الدول التي لحقت بالحياة الغربية، فإنّ الزوجية غير ضروريّة بالمعنى الرائج في الدول الإسلامية، فازداد الطلاق وازداد وجود الأبناء غير الشرعيين[4].

(1) الأخلاق الجنسية في الإسلام و العالم، الشهيد مطهري، 23، صدرا.
(2) عالم اليوم و غداً، علي أكبر كسمائي، 131.
(3) الإنسان بين المادية و الإسلام، محمد قطب، ترجمة السيد خليل خليليان،.17
(4) سلسلة ملاحظات الأستاذ مطهري، ج1، 440، صدرا.

وعلى هذا الأساس وبالتقارن مع رواج الحريات الغربية ازدادت أنماط الحياة طبق الأسلوب الغربيّ، وراجت شعارات المساواة بين الجنسين والاستفادة الأداتية من المرأة، وارتفعت معدّلات الطلاق والأبناء الفاقدين للمعيل... ووصلت أكبر الأزمات العائلية والأخلاقية إلى الأوج، ليس بين الطبقات غير المتعلّمة فحسب، بل بين المجموعات التي ابتعدت عن الثقافة الإسلامية الذين اقتربوا من نمط الحياة الغربية.

اليوم أصبح العالم يدرك وبالتدريج أهمية الوصايا الأخلاقية والحركات الوقائية التي أوجدها الإسلام للمواجهة وتنظيم البرامج الاجتماعية عند أتباع الحضارة الغربية، وذلك على مستوى سلامة المجتمع. وكلّما جرى الاستفادة من هذه الأساليب بشكل صحيح، وصلت العائلة إلى الأمن الضروريّ والمناسب:

«**من جملة الأشياء التي تساهم في ثبات العائلة وبيئتها، مسألة معاقبة الزناة، وهذا هو سبب تزلزل أسس العائلة في أوروبا وضعفها، وكلّما اقترب مجتمعنا اليوم من اتباع الغربيين، اتجهت العائلة نحو التزلزل والضعف**»[1].

إنّ إبتعاد الإنسان الغربي عن الأهداف الدينية والقيم الأخلاقية، لم يحقّق له الراحة الدنيوية لا بل الأكثر من ذلك، إذ قضى على هدوئه الروحيّ والنفسيّ. صحيح أنّ الغربيّ لم يتمتّع بالرفاه الذي يعيشه اليوم، فهو مجبور على متابعة العمل وبذل المجهود للالتحاق بالقافلة الصناعية والنعم والثروة المسرعة. وقد ساهمت الشهوات المتنوّعة في وجود الإسراف والمنافسة والعداء. وأدى الإلتحاق بعربة التقنية إلى أن لا يبقى أي مجال لاحتياجات الإنسان الروحيّة.

3 - **الأمراض العصبيّة والنفسيّة:** لم تساهم التقنيّات والاختراعات الصناعيّة الجديدة في تلبية احتياجات الإنسان الأساسيّة، بل زادت من

(1) التعرف على القرآن، الشهيد مطهري،ج4، 92، صدرا ;سلسلة الملاحظات، ج1، 440.

دائرة الصعوبات والمشاكل، فأصبحت الإدارة الإجتماعية والاقتصادية للمجتمع أكثر تعقيداً وصعوبة. وإذا جعلت التقنية الإنسان غير محتاج من بعض الجهات، فقد أوجدت عنده ثبات الإحتياجات الأخرى. وإذا تمكنت التكنولوجيا والطبّ التقني المتطوّر من علاج بعض الأمراض وشفاء بعض الآلام، فقد ساعدت في وجود أمراض جديدة، وبعبارة أخرى وبدل أن تكون الآلة لخدمة الإنسان، أصبح الإنسان خادماً لها. تحدّث الأستاذ حول هذه الظاهرة تحت عنوان «**أزمة الآلة وأمراض الحضارة**» فالسرعة الكبيرة لعدم الإبتعاد عن الآخرين، جعل حياة الإنسان خالية من الأهداف والمقاصد، وكلّما تطوّر المجتمع في البعد الصناعيّ، كانت أرقام الانتحار تتصاعد وتزداد أعداد المبتلين بالأمراض العصبية والاختلالات النفسيّة.

«**تشير الإحصاءات إلى أنّ الانتحار أكبر في الدول المتقدمة وأكثر من الناحية الصناعية والمتقدمة في الرفاه المادي. وتبيّن التحليلات أنّ السبب في ذلك ليس سوى الخلاء المعنوي وعدم الإشباع الروحي... وتبين تلك الإحصاءات في تلك الأماكن على وجه الخصوص أنه كلّما ازداد التطور والرفاه المادي تزداد الأمراض العصبية والاختلالات النفسيّة... وقد أطلقوا على هذه الأمور اسم أمراض الحضارة**»[1].

ويؤكّد الأستاذ مطهّري أنّ المقصود من نقد هذا البُعْد من الحضارة الغربية، ليس معارضة الرفاه والتطوّر والتقدّم الصناعيّ ولا ندّعي أنّ الرفاه يؤدّي إلى وجود الاختلال النفسيّ ولا نرغب في تسويغ الفقر في العالم غير الصناعي، بل الفقر والحرمان من جملة المفاسد الكبيرة التي يجب أن نعمل للقضاء عليها.

(1) فلسفة الأخلاق، 231.

وكلامنا هو أنّ الحضارة البعيدة عن الدين والقيم الأخلاقية والمعنوية تحمل معها المصائب والفجائع. إنّ السرعة في الوصول إلى الصناعة وعدم التخلف عن الآلة، يؤدّيان إلى وجود علاقات غير عادلة في المجتمع، إذا ترافق مع عدم الإهتمام بالقيم الأخلاقية، ويزيدان من الحرص والطمع والشعور بالتغلّب والتفوق على الآخرين، وإلى المنافسة الفاسدة. أمّا الحياة الطاهرة فهي في ظلّ الإيمان بالله والإلتزام بالقيم المعنوية.

4 - **الاستعمار والاستثمار**: من جملة النتائج الواضحة للحضارة الغربية، استعمار واستثمار الشعوب غير الغربية. إنّ الاعتقاد بمسألة المنفعة والالتزام بمدرسة القوّة، لا يؤدّي سوى إلى استعمار واستثمار الآخرين. الغرب يَنْفُذ ويتسلّط على كلّ مكان بهدف الحصول على الموادّ الأوليّة للمصانع. في الماضي اعتدى الغرب على أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا، واليوم يتبع أساليب جديدة لنقل العقول ورساميل العالم الثالث إلى أوروبا وأمريكا. يعتقد بعض الجاهلين والمخدوعين أنّ الاستثمار والاستعمار مقولتان مختلفتان عن الحضارة الغربية، ثمّ إنّهم يفرقون بين ذلك وبين الحضارة الجديدة في الغرب، ويطلقون عنوان الجهّال على من يعتقد بأنّ الاستعمار من جملة وجوه الحضارة الغربية.

ويعتقد الأستاذ مطهّري أنّ استعمار الغرب للعالم الثالث يعود إلى رؤيته الفلسفية وإلى النظرة القيمية إلى العالم والإنسان. الثروة الغربية هي نتيجة المصادر الصناعية والزراعية الأوليّة التي تمّ الحصول عليها من العالم الثالث وأمّا جذور الاستعمار فهي تعود إلى الرؤية الكونية والفكر الاستكباريّ للغرب.

«إنّ استثمار واستعمار الناس هما من نتائج الحضارة الغربية ويحصل ذلك على أثر الابتعاد عن الدين والمبادىء الأخلاقية»[1].

(1) السيرة النبوية، الشهيد مطهري، 22، صدرا.

ويوضح الأستاذ مطهّري أنّ الليبرالية هي من أهمّ أوجه المدنية الغربية، وهي تعني حرية الإنسان في تربية نفسه وحريته في الفكر والعمل. الإنسان في هذا التعريف قد تخلى عن قيود التكليف، وأمّا الناظر إلى سلوك الإنسان، فليس التعبّد بالدين وليس احترام القيم الإنسانية الخالدة، بل الخوف من التزاحم مع مصالح الآخرين، بالأخص الخوف من ردّات فعل الأكثرية المنافسة، وهذا الذي أدّى إلى الإمتناع عن الإعتداء على حقوق الآخرين. الواضح أنه إذا فُقد الخوف من الله من داخل الإنسان وإذا لم يتمكّن الإنسان من تقديم تعريف واضح للحقّ والباطل، وإذا أنكر الإحترام الذاتي والإنساني للآخرين، هذا الإنسان سيعتدي على حقوق الآخرين إذا ما توفّرت له السلطة والحاكميّة:

«الإنسان من وجهة نظر فلاسفة الغرب عبارة عن موجود ذي ميول وطلبات عديدة، وهو يعيش على هذا النحو. هذه الميول هي سبب الحرية في العمل. أمّا الذي يحدّ الحرية فهو حريّة الميول عند الآخرين. ولا يوجد أي ضابطة أو إطار آخر يمكنه الحدّ من حرية الإنسان وميوله»[1].

وأمّا نتائج النزعة الإنسانية والمدرسة الوجودية التي روّج لها أمثال سارتر هي هذه الأمور. مدرسة النزعة الإنسانية تروّج لأصالة الإنسان في مقابل أصالة الطبيعة وأصالة الله هي تعتقد بضرورة الإبتعاد عن القيم الخارجية المفروضة على الإنسان أمثال الله والدين والعقل والطبيعة. يعتقد هؤلاء أنّ معيار الحقّ والباطل، السيِّئ والحسن، والخير والشرّ، هو ما يقتضيه سلوك الإنسان واحتياجاته. وإذا كانت النزعة الوجوديّة تعتقد بعدم الإستعانة بالمصادر المقدّسة حيث إنّ ذلك لا معنى له في نظرياتها، وإذا كانت تعتقد أنّ الحرية المطلقة هي محور كافّة الأشياء، فلماذا كان بناء هذه المدرسة يقوم على أساس أصالة المادّة والحسّ؟

(1) حول الثورة الإسلامية، 100.

تُقسم أعمال الإنسان طبق هذه الفلسفة إلى نوعين: إمّا أن يبحث الإنسان عن الحقائق المادية التي تسمّى الخير حيث يأمر العقل بقبولها، أو أن يبحث عن أعمال أمثال الفضيلة والجمال وهي أمور لا يمكن أن تدخل في دائرة الخير الماديّ والأعمال العقلانية. تُسمّى هذه الأمور بالقيم. القيم ليست شيئاً بحدّ ذاتها، وليس لها هوية خارجية، بل الإنسان هو الذي يخلقها وذهنه هو الذي يعطيها المعنى.

إنّ القيم الإنسانية في هذه المدرسة ليس لها قيمة أعلى من الاعتبار والأمور الوضعية والموهومة والأعمال الاعتبارية والوضعية التي يستخدمها الإنسان في الوسائل ومقدّمات العمل وليس في الهدف[1]. الواضح عندما لا يعتقد الإنسان بأيّ أمر مقدّس سوى ما يصنعه، تصبح القيم عنده غير ذات معنى؛ فلا يمكنه الإيثار لا بل يؤذي الآخرين من أجل راحته.

تعتقد هذه المدرسة بالحرية المطلقة، والواضح أنّ الحرية المطلقة توصل الإنسان إلى الإنحراف والفساد والاعتداء على حقوق الآخرين. ومن هنا، فالوجودية توصل إلى الفساد وتهيِّئ الأرضية له[2]. إنّ حرية الإنسان هي من حقوقه الأساسية، وهي من القيم الإلهية المتعالية ومن جملة فلسفات بعثة الأنبياء تخليص الإنسان وإيصاله إلى الكمال والجمال.

الإنسان في الإسلام، وخلافاً لفلسفة سارتر، ليس حرّاً وبعيداً عن كلّ قيد وشرط. صحيح أنّ الإنسان أفضل الموجودات ولكنّه جزء من الخلق، وليس شيئاً مختلفاً وغير متجانس مع الخلق. الإنسان مصنوع اللّه، ويجب عليه ان يدفع عنه كلّ ما يمنعه من الوصول إلى اللّه، وقد جاء الأنبياء لتحريره على المستوى الإجتماعي عدا عن الداخل وبالتالي نقله من محورية الأنا إلى محورية اللّه والحقيقة المطلقة. إنّ هذه الحريّة تلقي على الإنسان المسؤولية والالتزام، وتفتح فيه بذور الإيثار

(1) الفطرة، مجموعة الآثار، ج3، 543.

(2) الإنسان التائه، شر يعتي، مجموعة الآثار، ج25، 31، قلم.

والتضحية فيما يتعلّق بالنوع الإنسانيّ. إنّ هذه الحرية والشخصية الداخلية لا يمكن الوصول إليهما عن طريق العلم والسلطة؛ نعم، لو لم يكن هناك شخصية داخلية، لتمكّنت الوسائل والأدوات من إغراقه في الأنانية.

«جاء الأنبياء ليقدّموا للإنسان الحرية الإجتماعية بالإضافة إلى الحرية المعنوية، والحرية المعنوية هي صاحبة القيمة قبل أيّ شيء آخر. ليست الحرية الإجتماعية هي المقدّسة فقط، بل الحرية المعنوية مقدّسة أيضاً، ولا يمكن الوصول إلى الحرية الإجتماعية من دون الحرية المعنوية... لا يمكن تأمين الحرية المعنوية سوى عن طريق النبوّة والأنبياء والدين والإيمان والكتب السماوية»[1].

يذكر الشهيد مطهّري بعد دراسته المدارس الفلسفية الغربية: صحيح أنّ بعض فلاسفة الغرب اقتربوا من الأفكار الإسلامية؛ ولكن هناك العدد الكبير من فلاسفة الغرب الذين ادعوا العمل لنجاة الإنسان من أسر السماء والآلهة فجعلوه أسيراً للأرض، وبنوا مدارسهم وفلسفاتهم بعيداً عن التعاليم المتعالية وقيم الأديان الإبراهيمية بالأخصّ الإسلام.

ويحلّل الأستاذ معتبراً أنّ الفكر الذي أنتج النظريات والحياة الغربية، يقوم على أساس نسيان الله ونسيان الذات والغفلة عن القيم والاستعدادات الإنسانية، والاعتماد على بُعْد واحد من حياة الإنسان، ولذلك اعتبر الإنسان الغربي أنّ الخلقة أمر عبثي وأن ليس هناك من هدف سوى التكاثر والإستفادة القصوى من الدنيا.

كتب الأستاذ عن قول أحد المفكّرين وهو غاندي في شرح نتائج الحضارة الغربية الجديدة:

(1) الحرية المعنوية، الشهيد مطهري، 15، صدرا.

«الغربيّ عاجز عن شيء واحد وهو التأمّل في باطنه. هذا الموضوع بمفرده كافٍ لإثبات عبثية الحضارة الغربية الكاذبة»[1].

تحمل مسألة الحرية المطلقة وغير المقيدة بأيّ قيد وشرط والبعيدة عن حاكمية الله ونسيان الذات، هذه النتيجة وهي أنّ الغرب يشعر بالحرية في الجناية والخباثة وهو لا ينظر سوى إلى نفسه في الوصول إلى الأهداف التوسعية. أمّا المفكّرون الذين شاهدوا مظاهر الحضارة الغربية عن قرب، فقد أدانوا هذا الوجه الخفيّ للمدنية وقدّموا ملفّات كبيرة للجرائم والجنايات والخسارات التي أدخلتها الحضارة الأوروبية والأمريكية إلى البشرية.

أمّا المهاتما غاندي وهو من الهند، فقد دعا الناس إلى مشاهدة الصورة العارية للحضارة الغربية من خلال الإشارة إلى عمل الغرب في بلده عندما كان تحت الاحتلال البريطاني. وقد شاهد غاندي ظلمات وعبثية المدنية الغربية في أفريقيا الجنوبية والهند. تحدث غاندي في رسالة «**هند سوارج**» عن الحضارة الجديدة تحت عنوان «**العيب الكبير**» الذي يلخّص هدف الحياة في الأمور المادية فقط. فلا مكان هناك للأمور المعنوية والعشق والإيثار والتضحية. وأمّا إذا جرى الحديث عن هكذا مفاهيم فهو من باب خداع الآخرين.

يقول بوضوح: إنّ هكذا حضارة هي قبر المساكين، وهذه الحضارة أسوأ من الغربيين أنفسهم؛ على أساس أنّ الغربيين ليسوا شريرين أو سيئين بالذات، بل هم مرضى حضارتهم. كتب حول الحرب العالمية الثانية:

«تشير الحرب الأخيرة إلى الماهية الشيطانية للحضارة التي تحكم أوروبا اليوم. لقد نُقضت كافّة قوانين الأخلاق العامّة على أيدي الفاتحين و باسم الشرف. لم يبقَ أيّ نوع من الكذب قبيحاً عند الحاجة. إنّ وراء كافّة الجرائم

(1) نظام حقوق المرأة في الإسلام، الشهيد مطهري، 137، صدرا.

تقبع الدوافع المادية. أوروبا ليست مسيحية بل هي تعبد الشيطان...»[1].

لقد هجم الغرب على الدول الضعيفة وأغار على العالم الثالث تحت شعار الحرية والديموقراطية والدفاع عن حقوق النساء وإحياء العالم وإيصاله إلى المدنية و... حتّى وصل الأمر بالغربيين إلى عدم الانزعاج من جرائم الجيوش المهاجمة سوى القليل منهم، فاعتبروا ذلك ضرورياً لإيصال الشعوب الأخرى إلى الحضارة:

«في نفس العصر الذي كانت تُكتب فيه مقدّمة على الإقتصاد السياسيّ، كان الفرنسيون يقتلون 45 ألف شخص في ماداغشقر في يوم واحد. بعد أن دعا الجيش الفرنسي الأشراف والأعيان و العديد من المدنيين الفرنسيين لمشاهدة عاصمة الجزائر عن قرب، قام بقصف هذه العاصمة ثمّ احتلها وأسر أمّة بأكملها»[2].

أمّا المشاركون في هذه المجازر، فليس الأحزاب الديمقراطية والتي تدّعي الحرية فقط، بل كانت قد سبقتها الاشتراكية والشيوعية، وقبل ذلك أصحاب رؤوس الأموال حيث وضع الجميع أيديهم مع بعضهم البعض للتطاول على ثروات الشعوب. وأمّا الإختلاف فكان حول تقسيم هذه الثروات فقط. لم يحصل نزاع حول صاحب هذه الثروات، بل كان النزاع في أنها يجب أن تكون بأيدي الرأسمالية أو الإشتراكية. بذلك أطلق الأستاذ مطهّري على الإشتراكية والرأسمالية، شفرتي المقصّ[3]. واعتبر أنّ أساس الحضارة الغربية هو المادية والاعتداء حيث أخفوا أنفسهم تحت لواء الحرية والمدنية.

(1) المهاتماغاندي، رون رولان،ترجمة محمد قاضي، 49، روزبهاز.
(2) مجموعة آثار الدكتور شريعتي، ج4، 161.
(3) حول الثورة الإسلامية، 124.

لقد ثبّت الغرب أركانه على أسس جعلته لا يفكر إلّا بمصالحه. وإذا كان في الأمس يحتلّ أراضي الآخرين علناً فاليوم يقضي على البشرية بسكين الحرية والمدنية. الغرب المستعمر يريد الحرية له فقط وليس للآخرين.

كتب الأستاذ مشيراً إلى جرائم مدّعي حقوق الإنسان الفرنسيين في الجزائر ووحشية الأمريكيين في فيتنام:

«لقد كان جورج بيرو في يوم من الأيام قائداً للإشتراكية الفرنسية، وعندما أرادوا منح الجزائر الاستقلال انتقل إلى المنظمات المجرمة معترضاً على منحهم الإستقلال...»[1].

«هؤلاء هم أنفسهم الذين كانوا في يوم من الأيام يبلّغون ضدّ الإسلام ويرفعون الإنجيل في أيديهم على أنه كتاب المحبة، فاليوم... يلقون كلّ يوم عشرات الأطنان من المحبة على فييتنام. هذه هي المحبة التي حدّثهم بها الإنجيل!! لقد تحولت هذه المحبة لتصبح قنابل حتى إنها أصبحت قنابل من النابالم التي تحرق الأطفال والنساء والعجزة عند نزولها...»[2].

اعتبر الأستاذ مطهّري في إحدى خطبه الحماسية أنّ الجرائم الصهيونية في فلسطين هي من جملة برامج الدول الغربية حيث يقتلون المسلمين باسم حقوق الإنسان ويقول: إنَّ أيدي البريطانيين والأمريكيين هي وراء اليهود. ونحن المسلمين علينا المسارعة لمساعدة إخوتنا الفلسطينيين وأن نُظْهر عزتنا الدينية ونوجّه جواباً قاطعاً لأمريكا وحفيدتها إسرائيل. أمّا الذي جرّأ الغرب علينا فهو إهمال وتساهل الشعوب والدول الإسلاميّة»[3]. وأمّا عن أدوات الاستعمار للتسلّط على المسلمين: فقد حذّر الأستاذ مطهّري الجيل المعاصر مراراً وتكراراً من أهداف

(1) شمس الدين لاتغرب أبدا، الشهيد مطهري، مجموعة الآثار، ج3، ص400.
(2) التعرف على القرآن، ج4، 58.
(3) الملحمة الحسينية، الشهيد مطهري، ج2، 172.

الطامعين ومن طرق نفوذ الاستعمار في الدول الإسلامية، وهي عين الطرق التي يتبعونها الآن، ومن جملة ذلك:

1 - **التفرقة:** من جملة أساليب أعداء الإسلام الفاعلة، وضع المسلمين في مواجهة بعضهم البعض. وهم يبدعون أساليب جديدة كلّ يوم. لقد استعان المستعمرون بالجهل وعدم الوعي الديني عند المسلمين، فجعلوا الفرق الإسلامية تسيء الظنّ ببعضها البعض فامتنعت عن مساعدة بعضها.

يُعتبر إقبال اللاهوري من جملة الشخصيات الكبيرة في العالم الإسلاميّ، وهو من الذين وجّهوا ضربة كبيرة لصورة أوروبا وبريطانيا في نضاله السياسي ونشره للوعي. راج في إيران وفي أوج النضال الذي قاده الشعب الهنديّ ضدّ بريطانيا أنه ناصبي وقد أهان الإمام الصادق عليه السلام. أرادوا من خلال ذلك أن يسيء بعض بسطاء الشيعة في إيران الظنّ بهذه الشخصية الكبيرة.

يبين الأستاذ مطهّري حقيقة الأمر، إنّ جعفر وصادق اللذين أهانهما إقبال، لم يكونا الإمام الصادق عليه السلام، بل الأوّل هو جعفر البغالي والثاني هو صادق الدكني. هذان الشخصان تعاونا مع أعداء الإسلام أثناء الحرب بين المسلمين والبريطانيين، وكانا بمثابة خنجر في ظهر الثورة الإسلامية، وقد خانا القادة المسلمين والوطنيين، وبذلك تمكّن الاستعمار الغربي من التسلّط على الهند لمدّة ثلاثمائة عام. لقد عمل المستعمرون على اغتيال شخصية إقبال وجعل السنة والشيعة يسيئون الظن ببعضهم البعض، فحرّفوا كلامه[1].

أثناء الحرب بين العرب وإسرائيل عام 1347 هـ.ق. (1967)، كان علماء الشيعة يوجّهون الناس إلى خطر اليهود ويدفعونهم لمساعدة إخوانهم الفلسطينيين واللبنانيين. تحدّث الشهيد مطهّري حول هذا الخصوص وحذّر الناس من خطر

(1) مجموعة آثار الشهيد مطهري، ج16، 610، صدرا.

استعمار واحتلال الأراضي الإسلامية وأعلن: أنّ الجرائم الأوروبية في المنطقة لا سابقة لها ولم يكتفِ ربائب أمريكا بالأراضي المحتلّة، بل كانوا يطمعون بالبلاد الإسلامية الأخرى. من واجبنا مساعدة إخوتنا المظلومين. لقد ساهمت هذه الحركة الثورية في وجود إحساس بالتضامن والتعاطف بين شيعة إيران حيث أعلن الناس استعدادهم للمساعدة المادية والمشاركة بالنضال إلى جانب الأخوة الفلسطينيين واللبنانيين.

تحرّك عملاء الاستعمار للقضاء على هذه الحركة الإسلامية. لذلك بدأوا بثّ الشائعات وحاولوا الترويج لمسألة أنّ الشهيد مطهّري سنيّ، وذلك بهدف التقليل من تأثير خطاباته، وبالتالي تحويل التضامن الإسلامي إلى نوع من الفرقة.

يقول الشهيد مطهّري في الجواب على الشائعة التي رَوَّج لها السافاك ضد حسينية الإرشاد التي كانت في ذاك الزمان مركزاً من مراكز ثورته:

«**الآن أصبحت حسينية الإرشاد مذنبة لأنه جرى فيها في يوم من الأيام البحث حول الفلسطينيين: أيها الناس! هبوا لمساعدة الفلسطينيين. هناك عدد من اليهود يحمل الحقد ضد حسينية الإرشاد، وجواسيس إسرائيل كثر في هذا البلد... وهم لا يتركون يوماً! إلا ويروِّجون للشائعات ضدّ حسينية الإرشاد... هم يحقدون على حسينية الإرشاد ولا يتركون يوماً لا يبّثون الشائعات ضدّها. أنا لا أريد منكم شيئاً إلّا أن تفتحوا أعينكم، اعلموا أنّ عناصر اليهود كثر في هذا البلد وفي كافة البلاد الإسلامية. جواسيسهم وأموالهم تعمل باستمرار**»[1].

اعتبر الأستاذ أنّ الوحدة بين المسلمين من أهمّ واجبات الأمّة الإسلامية، وأكّد على ضرورة اجتماع علماء ومثقفي المسلمين لدراسة مسألة التضامن والنضال الإسلامي ضدّ المستعمرين:

(1) م.ن.، 611.

«إنّ أكثر الاحتياجات الإسلامية والضرورية، هي اتحاد وتضامن الفرق والملل الإسلامية، بالأخصّ في الأوضاع الحالية حيث يقوم الأعداء بالهجوم من كافّة النواحي مستعملين مختلف الوسائل ومحاولين إحياء الخلافات القديمة واختراع خلافات جديدة...»[1].

2 - **إثارة الفوارق القومية:** ظهرت القومية في شكلها الحالي في العالم، في بداية القرن التاسع عشر الميلادي في ألمانيا وكانت عبارة عن ردّة فعل مقابل الثورة الفرنسية الكبيرة.

إنّ هذا الاصطلاح في فكر مؤسّسي الغرب؛ أي الناس الذين اجتمعوا في قالب حدود جغرافية معينة وعرق وسابقة تاريخية وثقافة خاصة، هو بمثابة واحد لا ينفك عن بعضه ويشتمل على منافع ومصالح خاصة وكل من كان يفتقد هذا الشاخص، كان غريباً وعدواً[2].

وجد هذا الشعار أتباعاً حقيقيين في الغرب واستُفيد منه في العالم الثالث في برهة من الزمان باعتباره أداة للتضامن الوطني في النضال ضدّ الأجانب. لقد استولى الاستعمار على هذا الموج الثقافي والاجتماعي، فحرفه عن مسيره، فكان بيده بمثابة أداة طيعة لإيجاد الفرقة بين الشعوب والأعراق، وبالأخصّ الشعوب الإسلامية وعمل على تعظيم ماضي الشعوب وإعطاء الأهمية للأبطال القوميين، لينال مراده على مستوى الاعتقادات والأديان والمذاهب الحاكمة في هذه البلاد. لقد كان المثقّفون المتغرّبون من أوائل الذين روّجوا لهذه البضاعة. في هذه اللعبة الجديدة، عاد الإيرانيون لذكريات مرحلة الحكومات الحخامنشية والساسانية وعاد العراقيون لذكريات حضارة بابل والمصريون إلى عصر الفينيقيين

(1) تذكرة العلامة الاميني، مجموعة المقالات، 234، مقالة: الغدير و الوحدة الإسلامية، الشهيد مطهري، مؤسسة انجام كتاب.

(2) الخدمات المتقابلة بين إيران و الإسلام، الشهيد مطهري، ج1، مجموعة الآثار، ج14، 26، صدرا.

والفراعنة وصنعوا من كلّ قضية وسيلة لإيجاد الفرقة بين الشعوب. والجميع يدرك أنّ السيّد جمال كان من أبرز نماذج ودعاة الوحدة الدينية، وقد أمضى عمره في هذا الطريق، ولكن وبعد وفاته اختلف المسلمون في نسبته لأي البلاد؛ مع العلم أنّ السيّد جمال اعتبر أنه ابن الإسلام تلافياً لأيّ جدال قد يحصل حول نسبته إلى بلد معين دون آخر.

كتب الشهيد مطهّري حول محاولات الاستعمار هذه:

«لم يجد الاستعمار وسيلة توصله إلى أصل «فرِّق تَسُدْ» من لفت انتباه الشعوب والأمم الإسلامية إلى قوميتهم وملتهم وعرقهم فجعلهم يغرقون في الافتخارات الوهمية. كان يقول للهندي أنت صاحب السابقة الفلانية وأنت كذا وكذا. وكان يقول للتركي اعمل على إيجاد حركة الشباب الترك...»[1].

لقد عملت طلائع الاستعمار الغربي وبهدف إبعاد الإيرانيين عن الإسلام، على إيجاد برامج عديدة للتعظيم من الآثار المتبقية عن الملوك والحكومات السابقة على الإسلام، وكذلك عملوا على التقليل من عظمة الإسلام والحضارة الإسلامية مقابل الحضارة الإيرانية القديمة. في هذا الإطار، عمل نظام الشاه على إيجاد حفل عامَ 1350 هـ.ق. بمناسبة مرور 2500 عام على الشاهنشاهية، وفي العام 1355 هـ.ق. أوجد حركة سريعة غيّر بموجبها تاريخ الإسلام واستبدل به تاريخ الشاهنشاهية. وتمكّن بذلك من إبعاد الأذهان والأفكار عن التاريخ الهجريّ وتقريبها من الأنظمة الشاهنشاهية الرجعية. وقد هيأت مجموعة من الجهات الأرضية لقبول هذه الحركة الرجعية أمثال: الكتّاب المأجورين، كتّاب البلاط، الفنانين غير الملتزمين، الصحافة التابعة بوساطة المقالات والأقلام[2].

بدأ الشهيد مطهّري حملة التوعية وذلك بهدف القضاء على آثار أمواج الإعلام

(1) م.ن، 55.

(2) ثورة الإمام الخميني، السيد حميد روحاني، ج3، 522، مركز و ثائق الثورة الإسلامية.

والحملة الشاملة التي شرع بها النظام البهلوي التابع. وقد قام بدور مؤثّر على مستوى إزالة الآثار المخربة للأعداء، وذلك بوساطة كتاباته ومحاضراته حول ماهية هذه الموجة الجديدة، وحول العلاقات المتقابلة بين إيران والإسلام. يعتبر الأستاذ أنّ الدافع الأساس للاستعمار من وراء هذه الحركة الثقافية هو إبعاد المسلمين عن بعضهم البعض، وذلك ليسهّل احتلالهم وأكّد على أنّ تضامن واتحاد الشعوب والمذاهب الإسلامية هما من أبرز طرق محاربة الاستعمار:

«إنّ رواج الفكر القومي والوطني والذي يُطلق عليه اصطلاحُ «ناسيوناليسم» وظهوره على صور عديدة: القومية العربية، القومية الإيرانية، القومية التركية، القومية الهندية وغير ذلك في الدول الإسلامية، كان بناءً على وسوسات الاستعمار ومن تبليغاته، وهكذا كانت أيضاً سياسات تشديد النزاعات الطائفية وتقطيع البلاد الإسلامية على صورة دول صغيرة ومتنافسة، وكلّ ذلك كان لأجل القضاء على الفكر المعادي للاستعمار أي إتحاد الإسلام»[1].

3 - **تغريب المسلمين عن الثقافة والحضارة الإسلامية:** من جملة محاولات الاستعمار المشؤومة، تغريب المسلمين عن ثقافتهم وتراثهم القيّم بهدف السيطرة عليهم. لقد عمل المستعمرون بمساعدة المؤرّخين وعلماء الاجتماع والجغرافيا والمستشرقين والفنانين و... على الترويج لبعض الأفكار وإدخالها إلى أذهان المسلمين ومنها أنّ هذا التاريخ والحضارة التي هي من تراث أجدادهم، ليسا شيئاً سوى التوحّش والتخلّف، وأن ليس في أيديهم ما يفتخرون به. وأمّا إذا أرادت الشعوب الوصول إلى المدنية والتقدّم، فما عليها إلّا الحصول على الثقافة الغربية وقبول ثقافة ولغة تلك البلاد. والأكثر تمدّناً وحضارة هو الذي يستعين بمنتوجاتهم المادية والصناعية[2].

(1) ثورات المائة سنة الأخيرة، 31.
(2) مجموعة آثار الدكتور شريعتي، ج4، 16.

وما لم تشعر الأمّة بالغربة من ذاتها، وما لم تُخْدع بثقافة وصناعة الغربيين، وما لم تشعر بالحقارة بالنسبة إلى الدين والمذهب، فلا يمكن للعدوّ أن يطمع بها وأن يهزمها. «... **ممّا لا شكّ فيه أنّ الاستعمار الثقافي هو أخطر أنواع الاستعمار العديدة، فهل يمكن استعمار شعب من الناحية السياسية والاقتصادية قبل استعماره فكريّاً. وإذا كان المطلوب الاستفادة من الشخص يجب بداية سلبه شخصيته. يجب جعله يسيء الظنّ بما يملك، ويجب ترغيبه وتشجيعه على ما يقدّمه الاستعمار...**»[1]. في أيّ مكان حلَّ الاستعمار، راجت العبثية واحتقار ثقافة ذاك الشعب. لقد حَرّف عمال بريطانيا الكتب التاريخية الهندية لتسويغ احتلالهم وتحدّثوا عن حكومات الهند المسلمة بكلّ ما يؤدّي إلى الاحتقار والإهانة[2]. وبما أنّ المسلمين نهضوا قبل غيرهم لمحاربة المستعمرين، لذلك كان هجوم المستعمرين على الثقافة الإسلامية قبل غيرها. يقول أحد نوّاب السلطنة في إحدى حكومات الهند أثناء مرحلة الاستعمار البريطاني، وقبل بداية المسلمين النضال ضدّ الإنكليز:

«**الهدف الأوّل لنا هنا، القضاء على المسلمين؛ لأنّ المسلمين بطبيعة الحال، أعداء لنا؛ والهنود ليسوا كذلك**»[3].

في العقود الأخيرة بدأ عملاء الغرب والمرعوبون منه بإيجاد حالة بين الناس من خلال مقالاتهم وفنونهم، وذلك بهدف دفعهم للالتفات إلى الغرب والاهتمام به، ومن ثَمّ تشجيعهم على التخلي عن آدابهم وعاداتهم وأن يقبلوا ما قبله الغرب ويرفضوا كلّ ما رفضه، وأن يحبوا من يحبه الغرب وأن يقرأوا الآثار التي يرغب الغربيون قراءتها. وكلّ ذلك من علامات الحياة الجديدة والخروج من الرجعية

(1) حول الجمهورية الإسلامية، 160.
(2) إكتشاف الهند، جواهر لعل نهرو، ترجمة جها نگير تفضلي، ج1، 173، أمير كبير.
(3) الثقافة و الغزو الثقافي، مقتبس من كلام... القائد، 41، منظمة وثائق الثورة الإسلامية الثقافية.

والظلام والانطلاق نحو عالم الضياء والعالم الجديد! الأسوأ من ذلك محاولات هؤلاء إفهام الناس أنّ تخلّف المسلمين إنما يعود لالتزامهم الآداب الإسلامية. وأمّا إذا رغب الشخص عدم العودة إلى الوراء فما عليه إلا عدم تحديث نفسه بالبركة والعزّة التي قدمتها الثقافة الإسلامية، وقد كتبوا: «**إنّ الثقافة الإسلامية وكلّ ما يذكّر بالحضارة الإسلامية، لم يحقق للناس سوى الركود وسوء الحظّ**».

وعندما كان المستعمرون يريدون إبعاد الأذهان عن جرائمهم وخبائثهم كانوا يقدّمون أنفسهم على أنهم أصحاب الصلح والسلام والتسامح، كما كانوا يتحدّثون عن الإسلام على أنه دين الخشونة! لذلك كتبوا: لا يوجد في الإسلام مسألة باسم التسامح والمداراة، والمسلمون هم مظهر الخشونة والخراب، والإسلام قد نهض بوساطة السيف والدم، وفي أيّ مكان وجد فيه الإسلام كان يقضي على الآثار الثقافية للشعوب. روّجوا للعديد من الشائعات، من جملتها أنّ الهجوم العربي على إيران ومصر أدى إلى إتلاف مكتبات كبيرة هناك. يعتبر الشهيد مطهري أنّ هذه الأمور هي من أعمال الشيطان المستعمر، ثمّ بيّن بالدليل التاريخي القاطع عدم صحّة هذه الادعاءات. إنّ هذا الغزو الثقافي الغربي هو من جملة برامج الغرب المستعمر بهدف القضاء على الحضارة الإسلامية. وإذا أراد المستعمر النجاح في الأعمال السياسية والاقتصادية، عليه الهجوم على ثقافة الناس وبالتالي جذب الأذهان إليه لتسيء الظنّ بثقافتها ودينها. الحقيقة أنّ الانجليز هم الذين روّجوا لقضية إحراق المكتبات وذلك بهدف أن يسيء الشباب المسلم الظنّ بإسلامهم:

«**لقد حدد الاستعمار واختبر بشكل دقيق أنّ الثقافة التي يعتمد عليها المسلمون والايديولوجية التي يعتقدون بها هي الثقافة والأيديولوجية الإسلامية. لذلك يجب تخلية الناس من ذاك الاعتقاد ليسهل سوقهم نحو النماذج الغربية. وهل هناك وسيلة لذلك أفضل من أن يلقوا إلى الشباب أنّ الرسالة التي تعتبرونها رسالة نجاة وسعادة، يقوم قادتها بالهجوم على الدول**

الأخرى ويقومون بأكثر الأعمال وحشية وهذا هو النموذج»[1].

درس الشهيد مطهّري السابقة النفسية والتاريخية لمحاولات الاستعمار الغربي هذه، فخلص إلى نتيجة مفادها أنّ المسيحيين عارفون بأفضلية وقوّة الحضارة الإسلامية، هذا من جهة ومن جهة أخرى فُهم كانوا يحملون حقداً في قلوبهم على المسلمين نتيجة الحروب الصليبية، ولذا فقد أطلقوا الحرب النفسية على المسلمين والإسلام وبدأوا الترويج للشائعات ضدّهم وقد عَبّر بعض المسيحيين في القرون الأخيرة عن خجلهم من هذه الحركات الخبيثة. ومن جملة الذين أظهروا خجلهم جان ديون بورت الذي ألّف كتاب «**عذر التقصير إلى محمّد والقرآن**».

لقد روّج الاستعمار لمسألة إحراق المكتبات وردّدها بعض عملائهم في إيران أمثال بور داود الذي اعتبرها حادثة تاريخية. وبما أنّ حادثة إحراق المكتبات من صناعة الاستعمار، لذلك كان يرفض نقدها وأن يطّلع الناس على تفاصيلها، لا بل كان يمارس نفوذه في السلطة ليمنع توضيحها. وقد منعت السلطات الأمنية الإيرانية الأستاذ مطهّري من توضيح حقيقة إحراق المكتبات. كتب الأستاذ في هذا الشأن:

«**العناوين التي تطرح عادة في حسينية الإرشاد، تطبع إعلاناتها في الصحف. ومع أنّ الإعلان عن بحث إحراق المكتبات في إيران ومصر أُرسل إلى الصحف، إلا أنها لم تنشره، وبعد السؤال اتضح أنّ رجال الشاه والسافاك منعوا ذلك**»[2].

4 - **مقولة الفصل بين الدين والسياسة**: من جملة الأمور المهمّة التي عمل عليها الاستعمار منذ القديم، إبعاد الدين والتديّن عن ساحة النشاط السياسيّ والاجتماعيّ.

(1) ست مقالات، الشهيد مطهري، 267، صدرا.
(2) حول الثورة الإسلامية، 123.

كتب المنظّرون التابعون للقوى العظمى وقالوا: إذا كان الدين حسناً ويؤدّي إلى الصلاح، فهو يؤسّس للعلاقة الشخصية بين الإنسان والله فقط، ولا يجب أن يكون له دخالة بالعلاقات الاجتماعية. ويجب على الناس اللجوء إلى الخبراء والمتخصّصين لتأمين احتياجاتهم الأساسية ويجب ارشادهم إلى مَنْ يمتلك برامج دقيقة للحياة البشرية المعاصرة وهو الغرب.

يذكّر الأستاذ مطهري بحياة السيّد جمال الدين الاسترآبادي ويقول: إنّ أهمّ الأعمال التي قام بها السيّد في محاربة الاستعمار، التبليغ للاتحاد بين الدين والسياسة؛ لأنه كان يعتقد بأنّ تطبيق الأبعاد السياسية والاجتماعية في الدين هو الذي يؤهّل لمحاربة الاستعمار وإفشال مخطّطاته:

«هو... رجل كان يبلّغ للاتحاد بين الدين والسياسة وقد أَفْهَم المجتمع الإسلامي أنّ الفصل بين الدين والسياسة هو خديعة صنعها السياسيون في العالم. السياسة في الدين بالأخصّ في الدين الإسلاميّ هي من أكثر الأجزاء عزّة. وأمّا فصل السياسة عن الإسلام فيعني فصل أحد أعَزّ الأجزاء عن جسده»[1].

أيّد الأستاذ مطهّري الدقّة التي أظهرها السيّد جمال واعتبر أنّ محاولات الاستعمار للترويج للعلمانية تثبت صحّة أفكاره. عندما قطع الغرب العلاقة بين الدين والمجتمع فقد قضى بذلك على أهم رسالة في الدين، وقد أُجلس على رأس السلطة الواقعة تحت استعماره أشخاص جعلوا من محاربة الدين أوّل اهتماماتهم، وبدل أن يكون أمثال السيّد جمال ومدرس في الصدارة، رفع أمثال آتاتورك ورضا خان إلى السلطة.

(1) حول الجمهورية الإسلامية، الشهيد مطهري، 57،صدرا.

يعتقد الأستاذ مطهّري أنّ العدوّ أخذ يروّج للتجديد الإفراطي بهدف أن يصبح الدين في مقام الإنزواء وبالتالي إبعاده عن السياسة، وإذا كانت المجتمعات البشرية تواجه مشاكل ثابتة وجديدة باستمرار ولكلّ مجموعة من هذه المشاكل حيث يقع على عهدة العارفين بالإسلام والمجتهدين الجامعين للشرائط، دراسة المسائل والأحداث الواقعة وتقديم إجابات لها. إلّا أنّ المسيئين كانوا يحولون دون ذلك ويرفضون إجابات مفسّري الدين؛ لذلك بذلوا جهودهم للحؤول دون انتشار الفكر السليم بين المسلمين، وهذا يعني الإبقاء على حالة التخلّف عند المسلمين؛[1] من جهة أخرى عمل هؤلاء ومن خلال الإعلام، على إظهار أنّ الإسلام عاجز عن تقديم إجابات لاحتياجاتهم الأساسية إلا أن يُعْمل على إعادة النظر فيه، أو القول إنّ أحكام الإسلام نافعة لمرحلة الظهور الماضية، وأمّا تأمين متطلّبات الإنسان المعاصرة فهي بحاجة إلى قوانين أخرى. لذلك نراهم يروّجون للشبهات التي طالت عناوين أمثال الحجاب والمرأة والإرث والقِصاص والربا و...

يعتقد الأستاذ مطهّري أنّ الفقه الشيعيّ، فقه غني وكامل يمتلك إجابات عن كلّ الأسئلة والمجتمع الإسلاميّ ليس بحاجة للحلول التي هي من نوع الحلول التي قدمها المجددون أمثال محمّد عبده في الفقه؛[2] لأنّ تلك الإجابات قد دُوّنت في الغالب من دون الالتفات إلى فقه أهل البيت، وأما الفقه العلوي الذي تركه الإمام الصادق عليه السلام، فلم يتركنا من دون إجابات.

واليوم يروّجون لكلّ مسألة جديدة بهدف مواجهة الإسلام الأصيل تحت عنوان مقتضيات الزمان:

«**مقتضيات الزمان، كالحرية من الكلمات التي كان لها مصير مشؤوم في الشرق، واليوم هي أداة استعمارية كاملة للقضاء على الثقافة الشرقية الأصيلة**

(1) مجموعة آثار الأستاذ الشهيد مطهري، ج3، 199.
(2) الثورات الإسلامية في المائة سنة الأخيرة، 94-95.

والترويج للروح الغربية. فكم هي السفسطات التي حصلت جرّاء ذلك؟ وكم هي المصائب التي حملتها معها هذه الصورة الجميلة؟»[1].

5 - **الترويج للفساد والفحشاء:** إنّ سلامة العائلة وعفّة وعصمة النساء والرجال هي أكبر رأسمال لدى المسلمين وأكبر مانع أمام نفوذ الاستعمار إلى البلاد الإسلامية. لقد مهّد الاستعمار الغربي لدخوله البلاد الإسلامية فروّج للفساد والفحشاء. لم يكن طرح مسألة النزعة الأنثوية وحرية النساء في البلاد الإسلامية لأجل الدفاع عن حقوق النساء، بل لأجل الاستفادة الأداتية من المرأة والترويج لإشباع الميول والأهواء النفسانية عند الشباب؛ لأنّ الجيل الشابّ هو الذي يفكّر بالحرية وبالمسائل الاجتماعية، وهو الذي يشكّل خطراً على الاستعمار. لذلك عمل المستعمر على الترويج للأهواء والعلاقات الجنسية اللامشروعة، وبذلك يتمكّن من سوق الشباب نحو أزمة كبيرة، وهذا يدعو إلى نسيان الاحتياجات الأساسية. من جهة أخرى عمل المستعمر ومن خلال الترويج للاستفادة الأداتية من المرأة على فتح أسواق كبيرة؛ لأنّ المرأة تقوم بدورٍ كبيرٍ على مستوى رواج المصرف والحفاظ على سوق الرساميل وتغيير العلاقات الاجتماعيّة.

يعتقد الشهيد مطهّري أنّ رواج ثقافة الفساد والانحراف من أبرز عوامل سقوط الحضارة الإسلاميّة في الأندلس. لقد عمل الأوروبيون المسيحيّون على الترويج للرذيلة بين المسلمين، فسلبوا منهم الغيرة والمروءة الدينية، ثمّ استغلوا غفلة المسلمين وانشغالهم بأهوائهم لينفّذوا مآربهم ويقضوا عليهم حيث قتلوا من المسلمين أعداداً كبيرة تمكّنوا من خلالها من إنهاء وجود المسلمين في تلك البلاد.

(1) مجموعة آثار الشهيد مطهري، ج3، 187.

«... إنّ الخطّة التي رسمها المسيحيون لاحتلال الأندلس (إسبانيا الحالية) وإخراج المسلمين منها هي: تأمين الأصدقاء والخدم ووسائل الانحراف لهم. لقد وقفوا البساتين لصناعة شراب للمسلمين. وسيروا بناتهم الجميلات والجذّابات في الشوارع ووفّروا كلّ وسائل بروز الشهوات فماتت روح الإيمان والمروءة. وبعد ذلك تمكّنوا من إعمال السيف بين المسلمين. وقد طبّق الاستعمار الغربيّ هذا البرنامج أخيراً في الدول الإسلامية»[1].

أكّد الأستاذ مطهّري بعد إفشائه مخططات الاستعمار في المجتمع الإسلامي وفي إيران قبل الإسلام على أنه: وجدت الأهداف الاستعمارية على أثر انتشار بيوت الفساد، ورواج الأفلام المبتذلة والصور المهيّجة وأبطال السينما والروايات التي تدور حول الأمور العشقية والجنسية. لقد هيّأ جيش الفساد هذه الأرضية لحضور القوى الغربية إلى الدول الإسلامية؛ فلا شيء كالفحشاء يمكنه القضاء على الغيرة الدينية والوطنية وعلى روح الشهامة والمروءة. لقد روّج الغربيون لهذه الأمور لإبعاد أذهان الشباب عن مسألة مصادرة المنابع المادية والإنسانية وإبعادهم عن مفهوم العدالة الاجتماعية، وجعلهم يعيشون حالة اللامبالاة من احتلال إسرائيل للبلاد الإسلامية[2].

«في الغالب فإنّ هذه الأغراض في عصرنا هي أغراض استعمارية. يريدون للفحشاء أن تزداد بين الناس؛ فلا شيء يؤثر كالفحشاء في إضعاف مروءة الناس. إذا أردتم إبعاد أذهان الشباب في بلد عن القضايا الأساسية... القضايا الأساسية التي تهدّد مصالح المستعمر، فالطريق إليه، هو بيع أكبر مقدار من المشروب، وزيادة بيوت الفحشاء وأن تكون المرأة في كلّ مكان...»[3].

(1) الإمدادات الغيبة في حياة البشر، 45.
(2) حول الجمهورية الإسلامية، 55.
(3) التعرف على القرآن، 55.

يعتبر الأستاذ الشهيد أنّ من بين المستعمرين الغربيين، فإن أمريكا هي أمّ الفساد، وهي أخطر من منافسيها الآخرين، وأمّا برامجها الثقافية والاجتماعية فهي من جملة العوامل المؤثّرة في القضاء على كرامة وشرف الشعوب وإذا حاولنا الإطلالة على الممارسات الأمريكية في الدول التي اعتمدت الثقافة الأمريكية، سنصل إلى نتيجة وهي أنهم في كلّ مكان وضعوا أقدامهم فيه، وُجد الفساد والفحشاء، فمارسوا خططهم الاقتصادية والاجتماعية تحت هذا الغطاء:

«**الأمريكيون يمتلكون برنامجاً عامّاً لإفساد الدنيا بأكملها. وأمّا برامجهم فهي التالية: أكثروا من الفحشاء، يَرْتَحْ بالكم من الناس**»[1].

وإذا أردنا إثبات صحّة كلام الأستاذ، فلا يجب أن نذهب بعيداً عن المنطقة. بل إذا لاحظنا أنّ انتشار الفساد والفحشاء والأشرطة الصوتية المبتذلة وانتشار مراكز الرقص والاختلاط بين الشباب والبنات، وكذلك ازدياد مراكز القمار والشراب في إيران قبل الثورة، كلّ ذلك يشير إلى البرامج الأمريكية لإفساد الجيل الشابّ.

(1) م.ن، 50.

مساهمة الحوزات الدينيّة في التمدّن الإسلاميّ

السيد عباس رضوي(*)

إنّ الحديث عن التمدّن الإسلاميّ – بدون البحث عن مساهمة الحوزات الدينيّة فيه – حديث ظالم وغير تامّ، لطالما كانت المراكز العلميّة هي الركائز الأساسيّة لنهضة المجتمعات الإسلامية وحيويَّتها، وكان لها الدور الأوّل والأساس في إرساء المدنيّة ورقيّ الناس ووعيهم.(1)

ومن هنا فإن صعود هذه القوانين وهبوطها هو الذي كان يرسم رقي هذه المجتمعات وانحطاطها.

وعليه فإنّه من الضروريّ أوّلاً أن نعرف ما هو التمدّن؟ وما هي العلامات والمعايير التي وضعها العلماء والخبراء لفهم معنى التمدّن؟.

وفي أيّ برهة من التاريخ الإسلاميّ كان التمدّن فاعلاً وجليّاً؟ وفي أيّ برهة كان التمدّن ضعيفاً ولم يظهر أي أثر له؟

وبالتالي أيٌّ من هذه المسارات والمنعطفات في مسارات هذا التمدّن لائقة بالاتّباع، وأعطت له الاستمرارية وهذا البقاء الواسع والمنير؟

وإضافةً إلى ذلك، ما هي الأدوار التي أوجدتها الحوزات الدينيّة التي لطالما كانت مصباح الأمة وضياءها في حركات بناء هذا التمدّن والتي كانت مورد افتخار كبير على طول التاريخ الإسلامي ؟ وأيٌّ من هذه المراكز العلميّة كان لها الدور الفاعل في إعادة صناعة التمدّن الإسلاميّ؟ وكيف نستطيع أن نواكب مسيرة

(*) كاتب إيراني في مجلة حوزة.

التمدّن التي سبقنا الآخرون إليها وبالتالي يرجع المسلمون ليتبوَّأوا موقعهم العالميّ من جديد؟

اعتبرت قافلة علماء التمدّن البشريّ أنّ التوجّه للعلم والثقافة، القانون، البناء، النظام والدولة، الحرية والرعاية الاجتماعية، اللغة، التنظيم، الإبداع، من الأنماط والمعايير الأساسية للمدنيّة والمجتمع الإنسانيّ والسليم[1].

وعدّ العلماء الباحثون أنّ العصر الذهبيّ للمسلمين كان خلال كلّ المراحل التاريخيّة الطويلة، وخصوصاً من القرن الثاني حتّى الرابع الهجريّ، واعتبر الكثيرون منهم أنّ هذا العصر الذهبيّ للتمدّن الإسلاميّ استمرّ حتّى العهد الصفويّ، وأنّه كان يشكّل علامة كبرى في تشكيل عصب المدنيّة[2].

إنّ القوانين العلميّة كانت من الماضي وحتّى الآن هي رائدة المدنيّة، وبالمقارنة مع النهضات الأخرى والأسباب الاجتماعيّة والجغرافيّة كان لها الدور الأساسيّ في رسم حركة التاريخ والمجتمع، وإنّ العلماء هم الذين كانوا حملة مشاعل التمدّن في إيران واليونان وروما والإسلام والثورة الصناعيّة في أوروبا.

في التمدّن الإسلاميّ كانت الحوزات الدينيّة هي المرجعيّة لكلّ الدراسات والأبحاث العلميّة وكانت تُدرّس مختلف العلوم التي تحاكي حاجة المجتمع، فإلى جانب الفقه والإلهيّات كانت العلوم التطبيقيّة كالطبّ والهندسة والرياضيّات والفلك و..... وتعتبر من الدروس والبرامج الأساسيّة للحوزات، وومنها تخرّج علماؤنا الكبار أمثال الشيخ الطوسيّ وابن سينا والفارابي وابن مسكويه والخواجة نصير والشيخ البهائيّ وملّا صدرا وغيرهم من أصحاب الأيادي البيضاء في

(1) دائرة معارف القرن العشرين، محمّد فريد وجدي، ج8، ص553، دار المعرفة، بيروت.
دائرة المعارف تطبيقي علوم اجتماعي، (دائرة معارف العلوم الاجتماعية المقارنة)، علي رضا شايان مهر، ج1، ص179، انتشارات كيهان.

(2) زندكي شاه عبّاس أوّل، (حياة الملك عبّاس الأوّل)، نصر الله فلسفي، ج240/3، دانشكاه تهران. (مصدر فارسيّ).

الحوزة الدينيّة من الذين قدّموا للمجتمعات أكثر العلوم قيمةً وقدراً.

وممّا لا يرقى إليه الشكّ، فضلاً عن أن يكون مكاناً للنقاش والجدل، أنّ المسلمين كانوا رواد العلم والمعرفة والتعليم والتجربة.

فمن القرون الهجريّة الأولى كانت المدن الإسلاميّة الكبرى أمثال بغداد، نيشابور، بخارى، الريّ، الأندلس في مقدّمة الأماكن السامية التي يقصدها أهل العلم والمعرفة لنيل المعارف والتعرّف على مختلف القوانين العلميّة. وكانت تعجّ بالمكتبات الكبرى المليئة بمختلف أنواع الكتب والدراسات والرسائل العلميّة.

ففي ميدان الكتابة يُعدّ المسلمون من مبتكري وصانعي هذا التمدّن والسبّاقين إليه، فقد كانوا في قمّة هذا الميدان، وكانوا أكثر استخداماً للورق بين الأمم والشعوب، وكانوا ينقلون الورق من الشرق إلى الغرب[1]. وهذه الرحلات العلميّة لكبار العلماء والباحثين جعلت من المجتمعات الإسلامية رائدة الثقافة والعلم.

في عام 200 هجريّ أتى إلى نيشابور أكثر من أربعة وعشرين ألف شخص من أهل العلم وأصحاب الأقلام والعارفين بالحديث والمحدّثين، من أجل سماع وكتابة كلمات الإمام الرضا عليه السلام[2]، وكلّ ذلك يدّلل على توجّه الناس للعلم وارتباطهم بالمعرفة وعلاقتهم الوثيقة به من خلال ضبط وتوثيق الكلام المفيد والنافع.

وإنّ الأهداف والمبادىء الخاصّة والسامية والآفاق الواسعة للتعلّم والتعليم في التمدّن الإسلاميّ تركت آثاراً مضاعفة في بناء المدنية وركائزها في المجتمع.

ومن جملة هذه الأهداف والمبادئ:

1 - **محوريّة الله:** فالتعليم والتعلّم من أجل الله يأتي في طليعة أركان المدنيّة والتمدّن في الحوزات الدينيّة، فلا يتلقّى طلّاب العلوم الدينيّة العلم من أجل المال والشهرة، بل من أجل الاطّلاع والمعرفة؛ لأنهم يعتقدون أنّ العلم

(1) لغت نامة دهخدا، (قاموس دهخدا)، ج18043/12، مؤسّسة لغت نامة دهخدا، دانشكاه تهران.

(2) كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، أبو الحسن الأربليّ، ج98/3، دار الكتاب الإسلامي، بيروت.

الذي يتعلّمه الإنسان من أجل المال والشهرة فإنه يتلقّاه بدون حماس أو همّة، وهذا يسبّب الإهانة والجهل، ومن باب المثال جاء في التاريخ:

عندما وصل نبأ إنشاء المدارس الرسميّة إلى علماء ما وراء النهر وأنّ هذه المدارس تعطي بعض الدعم والمساعدات المقدّمة من الدولة للطلّاب، وأنّ كثيراً من الناس دخلوا هذه المراكز طلباً لليسر والمال فإنّ أهل العلم أقاموا للعلم مأتماً وقالوا: إنّما يعمل في طلب العلم أصحاب الهمم العالية والنفوس الزكيّة من أجل الوصول إلى شرف العمل وكماله، أمّا الآن وقد وضعوا أجرة وبدلاً ماليّاً للتعليم والتربية فإنهم قضوا على هذه الهمّة وضيعوا هذه النعمة، وهذا سيؤدي إلى الإهانة وانسداد باب العلم[1].

وقد كان أهل التقوى والمعرفة من الأساتذة يوصون الطلاب أن يختاروا لسكنهم مدرسة من المدارس الموقوفة للعلم، ويعتبرون أنّ ذلك أقرب للتقوى وأبعد عن البدع، كما أنّهم كانوا يوصونهم باجتناب المدارس التي بناها أهل الظلم واجتناب أموال الشبهة وكثرة الوسائل ومتاع الدنيا[2].

كان هؤلاء الأساتذة يعلّمون الطلّاب الخلوص لله وينقلونهم من وسط الكمّ والكثرة الطالبة للعلم إلى جواهر علميّة يودعونها في كنف التقوى والخوف من الله.

أحد كبار علماء مدينة سمنان واسمه (سهراب) بقي طالباً ملازماً لابن الهيثم عالم الرياضيات المعروف في القرن الرابع الهجريّ مدة ثلاث سنوات، وكان ابن الهيثم يأخذ منه كل شهر مبلغ مئة دينار، وعندما أتمّ الدراسة أعاد ابن الهيثم لسهراب كامل المال الذي كان قد أخذه منه، وقال له: إنّ هدفه من هذا العمل تعليمه الإخلاص في تعليم العلم[3].

---

(1) دومين بيست كفتار، (العشرين مقالة الثانية) مهدي محقق/224، مؤسسة مطالعات اسلامي مك كيل، شعبة تهران. (مصدر فارسيّ).

(2) همان/265.

(3) دائرة المعارف بزرك اسلامي، (دائرة المعارف الإسلامية الكبرى) ج5/128. (المصدر مترجم عن العربية).

2 - **احترام الأساتذة والعلماء الكبار:** وتعتبر العلاقة الوثيقة التي تربط الطالب بالأستاذ من خصائص التمدّن الإسلاميّ والتي تتميّز بها المراكز والمجمعات العلميّة، فالأستاذ قريب دائماً من الطالب وهو يعامله كأحد أبنائه، كما أنّ الطالب ينظر إلى الأستاذ كوالدٍ له، فهو يعترف بحقّه ويقدّم له الاحترام والتقدير الكبيرين، أضف إلى ذلك الشحنة المعنويّة التي يمدّ الأستاذ الطالب بها والتي يحرص الأستاذ أن يرقى بالطالب إلى القمّة في سلّم الكمال الإنسانيّ.

وأمّا سبب انجذاب الناس إلى هذه المراكز فهو كونها مفعمة بالمحبّة والصفاء والصداقة، وإنّ تعلّق الطلّاب بهذه المراكز التربويّة أيضاً واتخاذها أسوة لهم منشؤهما ذلك التعامل الأخويّ والشفّاف والصفاء والمروءة التي تميّز أساتذة هذه المراكز، والتي يفوح أريج عطرها على مساحة المجتمع الإسلاميّ الكبير.

ومن باب المثال كتبوا:

قام البعض بعرض بعض النسخ المكتوبة على الفيلسوف المعروف خسرو شاهي - بعد أن أصبح مشهوراً وأستاذاً في مدرسة دمشق - فأخذ واحدة منها على الفور وقبّلها ووضعها على رأسه، وقال: أثناء مطالعتي هذا الكتاب تبيّن لي أنّ هذه النسخة مكتوبة بخطّ أستاذي ابن الخطيب، وهذا التوقير بسبب ذلك[1].

وفي قصّة أخرى: تلقّى أحد فقهاء بغداد رسالةً فقبّلها وقال: إنها بخط أستاذي الفخر الرازيّ[2].

ففي ميدان التعاليم الدينية يكنّ الطلّاب الاحترام الكبير للأساتذة، ويتأدّب الطالب أمام أستاذه بالآداب السامية، فينظر إليه باحترام، ويركع قربه تواضعاً

(1) تاريخ علوم وأدبيات إيراني، (تاريخ العلوم والأدب الإيراني) ذبيح الله صفا/36، كتابخانة ابن سينا. (مصدر فارسيّ).

(2) أحوال وآثار خواجة نصير الدين طوسي، مدرس رضوي/191. (مصدر فارسيّ).

ولا يشير إليه بيده، ويمتثل كلامه ولا يُحزنُه ولا يغمّه ويراعي حرمته في السرّ والعلن.

وكان الأستاذ بدوره يشجّع الطلاب الذين يعتبرهم كأبنائه على التعلّم والسير والسلوك في خطّ الحقّ والصلاح[1].

3 - **حريّة التعلّم**: في التمدّن الإسلاميّ لكلّ شخص حقّ التعلّم على خلاف طريقة الساسانيّين وغيرهم، حيث كان العلم محصوراً بطبقة الأمراء والدَّهاقين فقط، وباب العلم مفتوح أمامهم بحريّة كاملة، في حين أنّنا نرى في فترات التمدّن الإسلاميّ، كان الكثير من العلماء والقضاة والحكّام وأئمة الجمعة والوزراء... من طبقة المزارعين وأهل القرى وطبقة عامّة الناس من المجتمع.

وللمرأة أيضاً حقّ التعلّم في التمدّن الإسلاميّ، وقد لمعت أسماء الكثير من النساء العالمات في فترات مختلفة من التاريخ الإسلاميّ في ميادين العلم والأدب وغيرها[2].

4 - **العقلانيّة والحكمة**: من جملة النظريات المهمّة التي ساهمت في صناعة ركائز التمدّن الإسلاميّ والتي كان لها دورٌ عالٍ ومتفوّقٌ على غيرها من أنواع التمدّن هو تركيز أنصار الدين وحملة مشاعل التمدّن الإسلاميّ على التفكير والتعقّل والحكمة والوعي، مضافاً إلى الأهمية الكبرى التي أعطاها التمدّن الإسلاميّ لروحيّة الإيمان والأخوّة وكشف الحقائق والسعي للوصول إلى الواقع والحقيقة.

---

(1) تاريخ علوم وأدبيات إيراني/37.

(2) رياحين الشريعة، شيخ ذبيح الله محلاتي، ج1-5، دار الكتب الإسلامية.تاريخ مدينة دمشق.. تراجم النساء، ابن عساكر، دار الفكر. أعلام النساء في عالم العرب والإسلام، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة.

وكان أتباع أهل البيت والمعتزلة من رواد هذه الميزة في العلم، وفي الطرف المقابل وقف الأشاعرة الذين عطّلوا دور العقل وجعلوا حركته في مدار مقفل، واتخذوا من سيرة القدماء والسلف أصلاً لعلومهم، ورفضوا إعطاء حقّ النقد والبحث والتحليل لما ورد عنهم.

أمّا المسلمون العقلاء فقد ساهموا مساهمة بارزة في صناعة الثقافة وتقدّم العلوم في العالم وقدّموا رؤية مهمّة في هذا المضمار، ومن خلال هذا الإيمان رأى هؤلاء أنّ رسائل القرآن والأحاديث يجب أن تتقدّم وتتطوّر من خلال التكامل والإرتكاز على دعائمَ ثلاث هي: العقلانيّة والتقليديّة والفكر الإبداعيّ.

ووفق هذه النظرة تمَّ تشريع الدين على أساس الأهداف والمصالح الإلهيّة، وكانت الحقيقة والسعادة والكمال الإنسانيّ تشعّ من كافّة هذه القوانين والدساتير الإلهية لترسم للإنسان طريق السلامة الذي لا تشوبه شائبة، وعليه فأيّ قانون لا يُراعي هذه المصالح الأساسيّة ولا يوافق عليه العقل فإنه لا يمكن أن يكون جزءاً من الشريعة، ولم يوافق المفكّرون أمثال هشام بن الحكم ويونس بن عبد الرحمن والشيخ المفيد والسيّد المرتضى على تجميد دور العقل وتعطيل عمليّة التفكير، وهؤلاء اشتهروا باسم العدليّة ووضعوا كافّة المقولات من دائرة النقد وغربلوا كافّة الروايات وأخضعوا كافّة الأبحاث التاريخية لميزان العقل والمنطق وفصلوا الجيّد منها عن السيِّئ[1].

ونشر العلماء هذه المبادىء في كافّة الميادين والحقول العلميّة بهدف البحث والتحقيق والوصول إلى الحقيقة، وأخرجوا التعصّب والأمور الخرافيّة وضيق النظر من الميدان العلميّ.

(1) الذخيرة في علم الكلام، السيّد المرتضى/24، مؤسسة نشر إسلامي.

كان الفلاسفة والحكماء من أنصار هذه المجموعة أيضاً، ففي الواقع فإنّ الروح العقلانيّة أحد أهمّ عناصر حماية التمدّن الإسلاميّ والتي أرسى دعائمها كتابات الفلاسفة الكبار أمثال الفارابي وابن سينا وابن مسكويه، واكتمل تحريرها على يدي الخواجة نصير الدين الطوسيّ وملّا صدرا.

إنّ الروح الفلسفيّة والنقديّة وتمييز الصحيح من الخطأ في مختلف العلوم هما اللذان أرسيا بنيان المدنيّة الإسلاميّة وحَمَيا العلوم الدينيّة على طول القرون السابقة في وجه أمواج الغزو العلميّ، وهما اللذان وقفا بثبات في وجه أمواج الأفكار المخالفة، فأخذوا المسائل الجيّدة منه وأبعدوا المسائل غير السليمة من أوساط الحوزة العلميّة.

وكان أبو الحسن العامريّ أستاذ ابن مسكويه من أنصار هذا الفكر القائل بضرورة تلازم الأحكام الدينية مع العقل في التشريع، كما ينبغي أن يكون لهذه النظريّة حضورها الكامل في ميدان الفلسفة والدين، وقد قال البعض: «**إنّ القول إنّ العلوم الدينية ليست سوى بعض المصطلحات المتفق عليها كلامٌ ناقص ولا أساس له**».

ووفقاً لهذه النظريّة فإنّ ماهيّة الأمور الإيمانيّة والعبادات والتجارات ماهيّة عقلانيّة، ومنذ اليوم الذي عَمرت الأرض بالإنسان كان الدين ضروريّاً للإنسان، والعقل السليم لا يرى من الحكمة أن يترك العقلاء العبادة والتعبد، وفي الواقع فإنّ النظرة العقلانية تقضي أن الدين وضع القوانين من أجل حلّ مشكلات الناس.

كان الفيلسوف العامريّ يعتقد أنّ الدين الصحيح والصافي والعقل البعيد عن الأوهام يفتحان الطريق واسعاً لحلّ مشكلات البشر، وانطلاقاً من نظرته فإنّ الحقائق الدينيّة والحديث والتاريخ لا يمكن أن تكون مفيدةً وذات أثر بدون التلازم مع العقل، كما أنّ العقل لن يؤدّي دوره بدون التلازم مع النصّ.

عدّ العامري النتائج التالية من بركات إعمال العقل:

1 ـ الاستئناس بكمال الفضائل الإنسانيّة عند تناول أيّ حقيقة من الحقائق.

2 ـ الإحاطة بالحكمة الإلهيّة مع التفكير بحكمة الله في التدبير.

3 ـ القدرة على تقييم القضايا بمعيارية البراهين والتخلّص من الإتباع التقليدي والاقتداء بالفرق التي لا حدود علمية لها[1].

واقتفى الفلاسفة المسلمون الآخرون أمثال شيخ الإشراق الخواجة نصير وفلاسفة حوزة أصفهان أمثال الميرداماد، فندرسكي، وخاصّة ملّا صدرا آثار من سبقهم في هذا الطريق.

فقد كان ملّا صدرا من أركان المعتقدين بصناعة الثقافة من خلال المزاوجة والتوأميّة بين العقل والنقل[2]، وتصدّى للضربات القاسية التي تعرّض لها العقل على يدي خصوم العقل أمثال أبي الحسن الأشعريّ، وساهم في رقيّ المجتمع الإسلاميّ وسيره المعتدل، وبرهن أنّ العقلانيّة هي محور التمدّن الإسلاميّ في مواجهة شلّ هذا الدين وتدميره، وبقي هذا المشعل المضيء يزهو بآلاف الفقهاء والمتكلّمين والفلاسفة الذين زادوه جمالاً، وما زال نوره مشعّاً حتّى اليوم.

وأعطت هذه الحريّة الفكريّة في المحيط العلمي أن يختار الباحثون والعلماء الأستاذ والكتب الدراسيّة بطريقة غير محدودة ويستطيعون الاستفادة من العلوم المناسبة التي يدرسونها من أيّ شخصٍ كان.

وتطوّر هذا الاتجاه العقلانيّ في التمدّن الإسلاميّ إلى الحدّ الذي أصبح فيه العلماء المسلمون ينشدون العلم والحكمة بكلّ شوق وحماسة في أيّ مكان، ويركعون بتواضعٍ أمام أيّ أستاذ. وفي عهد النهضة الفلسفيّة في القرن الثاني استفاد المسلمون من أجزاء من كتب الحكمة اليونانيّة القديمة وقام علماء من

(1) دائرة المعارف بزرك إسلامى، ج50/350.

(2) تفسير القرآن الكريم، ملّا صدرا، ج2، 70___89، انتشارات بيدار، قم.

المسيحيين واليهود بترجمتها إلى العربيّة.

في القرن الرابع والخامس الهجريّ حيث الحياة الفكريّة في أوجها في مدينة بغداد، استفاد المسلمون من علماء غير مسلمين فدرس الفارابي ويحيى بن عديّ الفلسفة على أيدي الفيلسوف نسطوري، والفيلسوف أبي بشر متى بن يونس. كما درس الفارابيّ المنطق على المسيحيّ يوحنا بن ميلان.

واستنار اليهود والمسيحيّون بعلوم الأساتذة المسلمين، ففي مجلس يحيى بن عديّ في بغداد كان يشارك أتباع مختلف الديانات، فكان وهب بن يعيش والمسيحي أبو الخير داود من أعضاء هذا المجلس المبارك[1].

هذا التبادل العلميّ والفكريّ ساهم في نضج العلوم الإسلامية وخلق علاقة متينة بين الإسلام والأقليّات الدينيّة، ففي عهد آل بويه أعلن أكثر من 24 ألف زرادشتي إسلامهم في مدينة شيراز[2]، وفي مختلف مراحل التمدّن الإسلاميّ استفاد الكثير من علماء الحكمة والرياضيّات من حريّة البحث التي أرسى قواعدها الدين الإسلامي[3].

كذلك كان هناك علاقات وتبادل علميّ بين علماء السنّة والشيعة، فكان هناك الكثير من علماء الشيعة يدرّسون طلاباً من الفرق الأخرى، وبالعكس فقد كان الكثير من الأساتذة السنّة طلابهم من الشيعة، ومن هذه النجوم المضيئة في ميدان العلوم الخواجة نصير الدين الطوسيّ الذي كان الكثير من طلابه من الشافعية والحنبلية والحنفية وطلّاباً من فرق آخرى، وكانوا يلازمونه ويتقرّبون منه للاستفادة من مقامه العلميّ الشامخ.

في أحد أسفار الخواجة إلى مدينة تبريز التقى بالقاضي البيضاويّ مفسّر

(1) احياي فرهنكي درعصر آل بويه، (التطوّر الثقافي في عصر آل بويه) جوئل –ل.مر، ترجمة محمد سعيد جنايى/123-132، مركز نشر دانشكاهى.(مصدر فارسيّ).

(2) دائرة المعارف بزرك اسلامى، ج5/172.

(3) سير أعلام النبلاء، شمس الدين ذهبي، تحقيق محبّ الدين عمروي، ج15، ص169، دار الفكر.

القرآن وأحد كبار مذهب الشافعيّة، وقد كتبوا عن هذا اللقاء أنه وأمام جمع من الناس أخذ الخواجة بركاب القاضي بكلّ تواضع حتى يُركبه مكانه، فسأله الناس عن سبب تواضعه تجاه القاضي فقال: كان يخطر ببالي دائماً أنّ هذا الخُلُق يصدر عني تجاه الكبار، وهنا لاحظت أنه لا يوجد أحد يليق بهذا الخُلُق مني سوى القاضي، ولذلك صدر عني هذا التواضع تجاهه[1].

ودرس عالم التاريخ «**علم الدين حنفي**» على يدي الخواجة نصير الدين[2]، وكان الخواجة ينحاز لعلماء المذاهب والفرق الإسلاميّة وكان يفوّض لهم العمل والتدريس في الحوزة التي يشرف عليها.

في تلك الفترة من التمدّن الإسلاميّ وصلت الحريّة الفكريّة وحقّ البحث إلى حدٍّ أصبح فيه طالب العلم يقرأ صحيح البخاري ويحصل على إجازة في نقل الحديث في الوقت الذي يدرس فيه كتاب نهج البلاغة عند أستاذ آخر[3]، وكان الطلّاب غير المسلمين يتلقّون دروسهم عند الأساتذة المسلمين أمثال كمال الدين موصلي، وهذا التواصل والتبادل العلميّ ساهم في إيجاد أرضية لانتقال هذه العلوم والمعارف إلى العالم الغربيّ[4].

وهذا التواصل والتبادل العلميّ كان موجوداً بين المسلمين والآخرين في عهد الصفويّين والقاجاريّين، ففي زمان فتح علي شاه استعان الملّا أحمد بعلماء اليهود وعلماء المسيحيّين للإجابة عن الشبهات العلميّة لهنري مارتين، واستطاع من خلال جلسات بحث جماعيّة كانت تُقام حول الكتب المقدّسة أن يقدّم إجابات مفيدة لمارتين[5].

(1) أحوال وآثار خواجة نصير الدين طوسي/276.
(2) مجمع الآداب في معجم الألقاب، ابن فوطي، ج1/520، وزارت إرشاد.
(3) همان، (أيضاً)، ج4، 138-440. (مصدر فارسي).
(4) أحوال وآثار خواجة نصير الدين طوسي/178.
(5) سيف الأمّة، ملا أحمد نراقي، جاب سنكي/133.

4 - **المناظرات العلميّة:** تعتبر الحرية الفكريّة في الحوزة من أبرز مظاهر التمدّن الإسلاميّ، لذلك كانت تسعى وتؤكّد دائماً على ضرورة إقامة هذه المباحثات والمناظرات العلميّة بين الفرق الإسلاميّة، وبالخصوص في القرن الثاني الهجري الذي كان سوق الحوارات والمناظرات في المحافل العلميّة والمساجد في أوجها. وكان أصحاب الفكر يشاركون في مناظرات هذه المحافل للدفاع عن آرائهم ووجهات نظرهم. وقد شارك الإمام الصادق عليه السلام وأتباعه في المئات من المناظرات التي أثمرت عن اتباع الكثيرين من المخالفين لفكر الإمام عليه السلام [1].

واستفاد الإمام الرضا عليه السلام من مناخ هذه الجلسات المتنوّعة فناظر أئمّة المذاهب في الحجاز وخراسان، وكانت هذه المناظرات سبباً في التحاق الكثير من أصحاب الفكر بطريق الحقّ وإنارة الطريق أمامهم لتمييز السبيل الصحيح من الخاطىء[2].

وكانت تقام المناظرات الكلامية بين المسلمين والآخرين بحسب القواعد الصحيحة والعقلائية والآداب المتبعة في المجتمع المتمدّن، فقد كانت هذه الحوارات تتميز بالجمال والأدب والفائدة وبعيدة من الحدّة واللجاجة،كما أنها كانت بعيدة عن التفاخر، وكانت تساهم في رفع الغموض والشبهات بشكلٍ مقبول، وفي العهد الفاطمي في مصر كانوا يقومون بإعداد مباحثات علميّة بين المسلمين والمسيحيّين، وهذه الحرية الفكرية على خلاف ما كتبه «**آدام متز**» بأنها مستقاة من المذهب الإسماعيلي[3]، وإنما كانت تنهل من معين الثقافة والتمدّن الإسلاميّ وهي استمرار لسيرة المسلمين الماضين.

---

(1) بحار الأنوار، علامة مجلسي، ج207/10، مؤسّسة الوفاء، بيروت.

(2) عيون أخبار الرضا، شيخ صدوق، ج154/1، طوس، مشهد.

(3) تمدن إسلامى در قرن جهارم هجري، (التمدّن الإسلامي في القرن الرابع الهجري)، آدم متز، ترجمة علي رضا ذكاوتي قراكزلو، ج71/1. (مصدر فارسي).

وكان العالم إسماعيل بن عبّاد وزير فخر الدولة الديلميّ يشارك بشغف في هذه المناظرات وقد ناظر في أحد المجالس رأس الجالوت أحد كبار علماء اليهود حول فرادة القرآن وإعجازه وانتصر عليه[1].

وناظر عيسى بن زرعة أبو الخير أحد كبار علماء اليهود، وناظر أيضاً المسعوديّ المؤرخ المعروف أبا كثير اليهوديّ في الأردنّ وفلسطين في موضوع نسخ الشرائع، وناظر كذلك ابن أبي الثناء في الرقّة عن الخلق والإنسان، وكان للعامريّ في هذا الموضوع حوارات طويلة مع المجوس[2].

وفي بداية القرن الرابع الهجريّ كانت المناظرات كثيرة بين ابن قبّة الرازي وكبار المتكلمين المعاصرين، ومن جملة الأسئلة والأجوبة والأبحاث التي وردت المكاتبات التي تمت بينه وبين أستاذه أبي القاسم البلخي والتي تضمنت الكثير من البحث والنقد وتبادل وجهات النظر، ونتج من ذلك عدّة رسائل لطيفة ولامعة حول موضوع الإمامة[3].

ومن هذا المضمار لا يسعنا إلّا أن نذكر الحوارات العلمية بين أبي العلاء المعري والسيّد المرتضى حول موضوع الخلق والاعتقاد بالدين، والمناظرات المتنوّعة للشيخ المفيد مع أئمة المذاهب، ولا ننسى مناظرات أحمد بن سيار وورثاني حول موضوعات الحرية واختيار الإنسان والإمامة والقيادة[4].

في عهد الحمدانيّين كانت مدينة حلب ساحة من ساحات المنافسة العلمية المعروفة للعلماء والأدباء، وكان العلماء يقيمون المناظرات بحضور سيف الدولة الحمدانيّ، وفي هذا امجلس يُذكر المناظرة المشهورة بين أبي علي الفارسي والمتنبي[5].

(1) احياي فرهنكي درعصر آل بويه/131.
(2) همان.
(3) تاريخ بيهق، (تاريخ البيهقي)، أبو الحسن علي بن أبي القاسم بيهقي/221.
(4) بحار الأنوار، علامة مجلسي، ج10/406-408، مؤسّسة الوفاء، بيروت.
(5) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلّكان، تحقيق إحسان عبّاس، ج2، ص80، دار صادر.

ولمّا كان مبدأ المناظرة من أهمّ عناصر ازدهار الفكر وتقدّم العلوم الفكرية، نرى أنّ علماء الدين خصّصوا محافل خاصّة لتنظيم هذه المناظرات.

فقد خصّص الشيخ المفيد أشهر علماء الشيعة في بغداد مكاناً خاصّاً من منزله في ناحية «**رباح**» في بغداد لإقامة المناظرات العلمية.

وكان يتردّد إلى منزل السيّد المرتضى أصحاب الآراء والعقائد المختلفة ويطرحونها بحرية كاملة في حوارات ومناظرات مفتوحة.

وكذلك كان يتردّد إلى منزل ابن أبي طيّ أهل الرأي والفكر لإقامة الحوارات العلمية[1].

وخصّص عضد الدولة في السرايا مكاناً قريباً منه للفلاسفة والحكماء من أجل إقامة الحوارات العلمية فيه، وكان أبو علي مسكويه من الأعضاء المعروفين لهذه المجموعة، وفي هذا المناخ العلمي الحرّ تمّت كتابة كتاب «**تجارب الأمم**»، باسم عضد الدولة[2].

وفي عهد السامانيين أيضاً كانوا يولون اهتماماً بمسائل البحث والنقد العلمية. فكان الحكام والملوك السامانيون يشاركون في حلقات البحث العلمية التي كانت تقام أيام الجمعة في مدينة بخارى. وقد حضر في إحدى هذه الجلسات أكثر من عشرة أشخاص من الأسماء اللامعة بين الأدباء والفقهاء أمثال أبي الحسن اللحّام، ابن مطران، أبي نصر الهرثمي، أبي القاسم الدنيويّ، أبي علي الخواقي[3].

واستمرّت هذه اللقاءات والمكاتبات على هذا المنوال إلى ما بعد القرن السابع

(1) لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، ج1/334، دار إحياء التراث العربي.

(2) تجارب الأمم، أبو علي مسكويه، تحقيق أبي القاسم إمامي، ج1/3، سروش. دائرة المعارف بزرك إسلامى، ج6/57.

(3) الإعلام بمناقب الإسلام، أبو الحسن عامري، ترجمة أحمد شريعتى، مقدمة/6.

الهجريّ، ومنها مكاتبات شهاب الدين الحكيم والفخر الرازيّ[1]، وكان التبادل العلمي بين ابن ميثم والخواجة نصير الدين جزءًا من هذه اللقاءات والحوارات[2].

6 - **الدراسات الدينية المقارنة:** تعتبر الدراسات الدينية المقارنة من ركائز العقلانية والبحث عن الحقيقة في التمدّن الإسلاميّ.

فقد كان هشام بن الحكم ومؤمن الطاق الذي كان معاصراً له من أوائل الذين قاموا بدراسات مقارنة لآراء المخالفين في أهمّ الحقول الخلافية في ذلك الزمان كالإمامة والإدارة، ثمّ فتحت الآفاق بشكل أوسع بعد ذلك فكان كتاب (الإنصاف) لابن قبّة الرازيّ وكتاب (الاستيفاء) لأبي سهل النوبختيّ و(الآراء والديانات) لأبي محمد النوبختيّ من أهمّ الكتب التي كتبت في مجال مقارنة المذاهب والآراء، ومنها كذلك كتاب (المقالات والفرق) لسعد بن عبد الله الأشعريّ، فضلاً عن العديد من التقارير الطويلة والمسهبة التي عرضت لآراء الفرق ومعتقداتهم في الحوزة الدينية الإسلامية.

وكان المسعوديّ العالم الكبير في ميداني التاريخ والجغرافيا من أهمّ الذين قرأوا الأديان بشكل واسع ومقارن وكتب عن الفرق والمذاهب في العالم الحديث، وكذلك فقد تعرّض لآراء غير المسلمين أيضاً في كتابه التاريخيّ (مروج الذهب)[3].

وكان لأبي ريحان البيرونيّ قدمٌ ثابتة في مجال الأديان المقارنة والذي اعتمد مبدأ المشاهدة والاستقراء في استكشاف أحوال ومعتقدات الملل الأخرى، ففي سفره إلى الهند والذي صحبه فيه محمود الغزنويّ تعلّم البيرونيّ اللغة الهندية أوّلاً وتعرّف على اصطلاحاتهم الثقافية ثمّ قرأ وطالع كتبهم وفكرهم.

(1) مجمع الآداب، ج3/329.
(2) أحوال وآثار خواجة نصير الدين طوسي/5.
(3) فرهنك فرق اسلامى، (ثقافة الفرق الإسلامية)، محمد جواد مشكور، مقدمة جواد شانه جى/16، آستان قدس.

كتب البيرونيّ في مقدمة رسالة (تحقيق ما للهند): لم أكتب هذه الرسالة للجدل وإنما هدفي عرض آراء الآخرين بتجرّد تامّ، وأقول إنّه من وجهة نظري إذا لم يتعرّف المرء على آراء الآخرين ونظرياتهم عن قرب وبشكل مباشر، فإنه لا يستطيع أن يحكم ويميّز بين الصحيح والخاطىء.

وكتب البيرونيّ أنه قال للأستاذ أبي سهل في المجلس الذي كان يعقده لبيان إفلاس أفكار المعتزلة:

إنّ الذين يقيمون حوارات مع الأعداء والمخالفين غالباً ما كانوا يتحلّون بخصوصية القرب والتواصل من الآخر في مجال مناقشة المذاهب التي نلتقي معها في بعض الأصول، أو أيّ فرقة من فرقه وبيان بطلانها والكشف عن أخطائها.

أمّا في مجال مناقشة الأديان الأخرى والتي لا يوجد فيها مساحة مشتركة في الأصول فقال: إنّ اكتشاف هذه الأديان البعيدة أكثر صعوبة، ومعرفتها ستبقى غامضة ومبهمة[1].

وفي نفس المكان يذكر البيرونيّ عن الفيلسوف الإيرانيّ المشهور أبي العبّاس أنه كان يقرّر كلمات أصحاب الآراء المخالفة في كتابه لكيلا يظلمهم ويحكم عليهم مسبّقاً.

ثمّ كتب: إنّ أبا سهل كان يؤيّد هذه النظرية، وإنّ كلّ ما أعرفه عن الديانة الهندية وكتبته في كتابي من أجل أن يستضيء بها كل من يريد إقامة مباحثة معهم أو يريد أن يخالطهم.

وكان لأبي الفتح الشهرستاني الباحث في الأديان والمذاهب في العالم أيضاً عدّة أبحاث في مجال الأديان والمذاهب العالمية، ففي كتابه (الملل والنحل) عرض كافّة المذاهب الفلسفية والمذاهب المرتبطة بالوحي وكافّة فروعها

(1) بررسيهايى در باره ابو ريحان بيروني، (تحقيقات حول أبي ريحان البيروني)، /278، شورای عالي فرهنك هنر. (مصدر فارسي).

وفرقها، وترك التقييم بعد ذلك كلّه على عهدة القارىء، كما أنه اتهم فرق الشيعة في عدّة مقاطع من تقاريره بالوقوع في الخطأ وعدم الرجوع إلى المنابع العلمية الأصيلة، لكن يبقى هذا الكتاب بشكلٍ عامّ من الكتب الفريدة في ذلك العصر والذي لا سابقة له في هذا المضمار[1].

وكتب أبو المعالي العلويّ كتاب (بيان الأديان) الذي شرح فيه الأديان والمذاهب في العصر الجاهليّ والإسلاميّ مستفيداً من المصادر المختلفة التي كُتبت قبله في نفس المضمار[2].

وكتب الحسنيّ الرازيّ - وهو من علماء القرن السادس الهجري - بطريقة نثرية رائعة تقريراً مفصّلاً عن الملل والمعتقدات المعاصرة والماضية في كتابه (تبصرة العوامّ)[3].

وفي القرن العاشر وما بعده، قام بعض الكتّاب الهنود المسلمين أمثال أبي الفضل غلامي ومحمد دارشكوه مع بعض العلماء الهنود بترجمة أجزاء من الكتب الفلسفية الهندية وتعرّف المسلمون على المعتقدات الدينية لجيرانهم[4].

وكذلك فإنّ علماء الجغرافيا المسلمين أمثال اليعقوبيّ، السطخريّ، أبي دلف، ابن حقل، المقدسيّ، ابن خردادبه، ابن البلخيّ، السمعانيّ، كانوا يملكون وعياً كبيراً حول كافّة الأوضاع السياسية والمذهبية لكثيرٍ من البلاد المتنوّعة في العالم.

هؤلاء الرحالة الذين حملوا أمتعتهم على أكتافهم والأقلام بأيديهم وتحمّلوا أعباء ومشقات السفر وجالوا بصعوبة في بلاد الشرق والغرب أناروا بعملهم

(1) الملل والنحل، أبو الفتح أحمد شهرستاني، تحقيق محمد سيّد كيلاني، دار المعرفة.
(2) بيان الأديان، أبو المعالي محمّد الحسيني العلوي، تحقيق عبّاس إقبال، ابن سينا.
(3) تبصرة العوّام في معرفة مقالات الأنام، سيّد مرتضى رازي، تحقيق عبّاس إقبال، أساطير.
(4) بررسيهايى در باره أبو ريحان بيروني/280.

العالم الإسلاميّ[1]، وكتبوا تقارير مفصّلة عن تاريخ وجوانب هذه الملل، وكانوا أعلاماً في الثقافة والتمدّن الإسلاميّ، وساهموا في تغيير الكثير من المعارف والمعتقدات وبثّ النضج والوعي في الأفكار بشكل عامّ، وكتب الكثير من المفسّرين والفقهاء والمتكلّمين مقالات طويلة في آراء الآخرين بدون إخلال أو تعصّب أو أحكام مسبَّقة، ثمّ عرضوا عقائدهم بعد ذلك، وقد جرى على هذا المنوال في الكتابة الشيخ الطوسيّ والشيخ المفيد والسيّد الرضيّ والسيّد المرتضى والشيخ الطبرسيّ ومئات الأشخاص الآخرين من فطاحل العلم والأدب.

كان الشيخ الطوسيّ يعرض ويبيّن آراء المخالفين إلى حدّ أنّ المعتقدين بتلك المذاهب والفرق وأصحاب الرأي فيها إذا أرادوا بيان أمرٍ ما، فإنهم لا يشرحونه بأفضل مما يوضّحه الشيخ الطوسيّ.

يقول الشيخ عبد الحميد سليم الحنفيّ رئيس علماء الأزهر:

«**سواء عندما كنت مفتياً للديار المصرية أو بعد ذلك عندما كنت عضو لجنة إفتاء الأزهر فإني كنت كلّما أردت الذهاب إلى دار الفتوى كنت قبل ذلك أطالع كتاب المبسوط حتماً**»[2].

وسار الفخر الرازيّ على نفس المنوال أيضاً في كتابه (المأخذ) حتى إنّه وُجّهت له بعض الملاحظات على هذا الصعيد.

«**كان يعرض شبهات المخالفين للمذهب بأجمل بيان ثمّ يطرح عقيدة أهل السنّة بشكل ضعيف**»[3].

(1) المسالك والممالك، ابن خردادبه، ترجمة حسين قرهجانلو، كنجينه، سخن، ذبيح الله صفا، ج3/49.
(2) «وحدت مسلمين»، (وحدة المسلمين)، ص610، كنكره ائمة جمعة وجماعت، (مؤتمر أئمة الجمعة والجماعة)، جاب الهادي. (مصدر فارسي).
(3) لسان الميزان، ج1/56.

وهذا الأمر جعل البعض يتّهم الشيخ الرازيّ بالتشيّع، لكنّ الآخرين أجابوهم أنّ هذا الأمر له علاقة بقواعد البحث العلميّ فقط.

7 - **ارتباط النظريّة بالعمل:** يعتبر مبدأ ارتباط النظرية بالعمل من أهمّ خصائص القوانين العلمية في التمدّن الإسلاميّ، فقد أيّد بعض الفلاسفة غير المسلمين نظريّة أنّ الإنسان العاقل لا يتعلّم من أجل إنجاز بعض الأعمال الجميلة وإنما يتعلّم من أجل رفع وحشة الجهل وإشعار نفسه السعادة، وبالتعبير المعاصر نتعلم العلم من أجل العلم.

وأيّد بعض العلماء الآخرين نظرية تجربة العلم، وعدّ هؤلاء العلم الديني وحده من العلوم التي كانوا يوصون الناس بتعلّمها أمثال علم الإلهيات.

وكان لكلّ نظرية من هاتين النظريتين أتباعها من العلماء المسلمين، واستمرّ الجدال بينهما من خلال المقالات العلمية التى جهد البعض لإثبات أنّ العلم ليس فقط من أجل العمل بل إنّ تعلم العلم من أجل استخدامه والاستفادة منه في هداية وتقدّم الحياة، كما اعتبر البعض الآخر أنّ الأعمال المفيدة والنافعة للناس وحدها هي الأعمال التي ترتكز على أبحاث علمية محكمة وثابتة.

وفي مقام الردّ على نظرية العلم لأجل العلم كتب أبو الحسن العامريّ:

«... **في عقيدتنا فإنّ أيّ شخص وأين كانت وجهة نظره عليه أن يجيب عن السؤال الكبير الآتي وهو: لماذا كان العلم منشأ العمل؟ ولماذا العمل هو كمال العلم وتمامه**»؟

في الحوزات القديمة، كانت العلوم كلّها تدرّس ضمن فلكين: **الدين والدنيا**، وكانت هذه العلوم المرتبطة ببعضها تتطوّر وتتقدّم، ففي جانب الإلهيات كانت تدرس الجغرافيا والرياضيّات والجيولوجيا وكيفية إدارة المدن، كما أنّ علماء مسلمين برعوا في علوم الطبّ والزراعة والصناعة، وكانت لهم نظريّات علمية ومتقدّمة، كان العلماء المسلمون رُوّاد الكثير من العلوم المتطوّرة اليوم في عالم

الغرب، وتمّ تسجيل ابتكاراتها الأولى على أيدي المسلمين، ويعترف بذلك كلّ من يروي التاريخ بطريقة منصفة وعادلة[1].

وعندما يتعرّض المجتمع لأيّ مشكلة سواء من الناحية العلمية أو العملية، كانت الحوزات تعقد الجلسات العلمية ومجموعات التحقيق والبحث من أجل تسليط الضوء على هذه المسألة، ويقوم الخبراء والمتخصّصون بتقديم النظريّات التي تساهم في حلّ هذه المشكلة.

ومن باب المثال:

1 ـ **مشكلة توزيع المياه في خراسان:** يتوفّر في خراسان الآلاف من مجاري المياه الباطنية، وفي القرن الثالث حدثت عدّة خلافات بين الناس حول أحكام هذه المجاري ومبادىء تقسيم المياه وحدود القنوات، وقام العلماء بتشكيل جلسات مشاورات علمية أثمرت عن حلّ هذه العقدة. كتب كرديزي في كتاب (زين الأخبار):

«**في أيام عبد الله بن طاهر تنازع الناس حول مسألة مجاري المياه، ولمّا لم يرد شيء في كتب الفقه وأحاديث الرسول حول هذا الأمر، قام عبد الله بجمع كافّة علماء خراسان وبعض علماء العراق ووضعوا كتاباً حول أحكام مجاري المياه**»[2].

2 ـ **مواجهة المواد المخدّرة:** في القرن الثالث انتشر استعمال الموادّ المخدّرة، ولمّا لم يكن هناك أيّ نصّ أو رواية واضحة في هذا الخصوص فإنه وقع اختلاف شديد بين الناس، وما لبث أن انتشر بيع الأفيون في خراسان، فاجتمع علماء وفقهاء ما وراء النهر وبحثوا في حليّة وحرمة هذه الموادّ، وفي النهاية أصدروا حكماً بالإجماع بحرمة هذه الموادّ المخدّرة...

(1) لغت نامة دهخدا، ج6/8922. الميزان في تفسير القرآن، علامة طباطبائي، ج2/151.

(2) مالك وزارع در ايران، (المالك والزارع في إيران)، را.د. لمبتون، ترجمة منوجهر اميري/392، علمي وفرهنكي، تهران. (مصدر فارسي).

وأصدروا فتوى... في أيّ مكان يتمّ العثور على باعة أو مستخدمين لهذه الموادّ المخدّرة، يجب اتخاذ أشدّ العقوبات بحقّهم[1].

وتركت هذه الفتوى تأثيراً مقبولاً، ولم يجرؤ بعد ذلك أحد على الاقتراب من الأفيون والبنج لمدّةٍ طويلة. وفي العهد الصفويّ استخدم الناس التنباك للترفيه ولم تستطع الدولة ضبطهم، فعقد العلماء عدّة جلسات حواريّة حول ضرر التنباك وأصدروا مجتمعين فتوى بضرر استعمال التنباك وحرمته[2].

3 ـ **الدفاع العقلانيّ عن الدين:** في أوائل القرن الثامن الهجريّ وفي أيّام الغزو المغوليّ حدث أنّ بعض أفراد جنود المغول كانوا قد اعتنقوا الإسلام حديثاً، وفي تلك الأثناء كان فريق من الفرق الإسلاميّة التي وقع الخلاف بينهما حول بعض المسائل الفقهية، كان كل منها يذكر الآخر بكلام سيِّئ وبذيء ممّا ترك انعكاساً سيّئاً على نفوس أولئك المغول الحديثي الإسلام، وقاموا بترك الإسلام أمام هذه الفرق.

أحسّ العلّامة الحليّ بالخطر، فطرح هذه المسائل مورد الخلاف في حوارات مفتوحة داخل محفل شارك فيه العديد من علماء الفرق والمذاهب الإسلامية، وفي هذه الجلسة قام العلّامة الحليّ بالاستدلال على رأي أهل البيت من هذه المسائل وأنهى الخلاف الفقهيّ القائم[3].

4 ـ **مجلس بغداد:** في القرن التاسع الهجريّ وفي أيام حكم قره قويونلو، برز استعداد المجتمع لتطبيق الأحكام الإسلامية، وكان من الضروريّ تعيين موقع وحدود الكثير من الأحكام الشرعية والاجتماعية كمبدأ القضاء وإقامة الحدود والحكم وصلاة الجمعة الجماعة وجعلها أكثر شفافية ووضوحاً، وبهذا الخصوص نظم ابن فهد الحليّ مع تلميذه محمّد بن فلاح مباحثة في

(1) «تاريخ وفرهنك» (التاريخ والثقافة)، مجتبى مينوى/214، خوارزمى، تهران. (مصدر فارسي).
(2) زندكي شاه عباس أول، نصر الله فلسفي، ج2/282. الذريعة، آقا بزرك تهراني، ج4/436.
(3) تاريخ حبيب السير، خواند مير، تحقيق دبير سياقي، ج3/197، خيام.

حوزة الحلّة، كما شارك ابن فهد في الجلسات التي دعا إليها الميرزا الموقّر في بغداد وتناول البحث فيها الموضوعات الآنفة الذكر[1].

النشاط العلميّ في العصر الصفويّ

في العهد الصفويّ كان للعلماء مشاركة فاعلة في مختلف الميادين الاجتماعية. فكان كبار علماء الحوزة يتصدّرون لأيّ مشكلة سواء من الناحية النظرية أو العملية وكانوا يباشرون ساحة العمل بأنفسهم.

1 ـ في أيام الملك سليمان الصفويّ أقام الشيخ علي خان زلكنه جلسة لتحقيق صلاة الجمعة شارك فيها الكثير من العلماء وأصدر المجتمعون رسالة تتضمّن آراء الشيخ زلنكه.

2 ـ تحقيق حول الخراج والأحكام الشرعية المرتبطة به والأمور المالية للأراضي المفتوحة عنوة.

3 ـ تحقيق مسألة الاعتكاف وإحياء الليل في ليالي الاعتكاف.

4 ـ تحقيق حول حلّية وحرمة شرب التبغ والتنباك.

5 ـ تحقيق حول مسألة الغناء والموسيقى.

6 ـ جلسة تحقيق لكتاب «**كشف الغمّة**» لمؤلّفه أبي الحسن الإربليّ، وهو من الكتب القيمة في القرن السابع، وتمّ تصحيحه ونشره.

7 ـ أقام العلّامة الكبير محمّد بن علي الأردبيليّ جلسة شارك فيها أكثر من ثلاثين عالماً معروفاً من أجل كتابة الكتاب النفيس (جامع الرواة).

8 ـ مسألة تعيين يوم ولادة أمير المؤمنين عليه السلام.

(1) طبقات أعلام الشيعة، آقا بزرك تهراني، ق12/ 334.

الحوزة ودورها التأسيسيّ للقيم والآداب الإسلاميّة

إنّ التقدّم الثقافيّ وتمدّن أيّ أمّة من الأمم يظهران من خلال وفرة المجموعات العلمية في مجال الروابط الاجتماعية وكيفية التعامل مع الآخر والسعي من أجل عزة وكرامة الأمة والمسؤولية في مواجهة الاعتداءات ومقاومة الجهل و...

تعتبر الصحّة والنظافة والتعامل اللائق مع السجناء ومساعدة الفقراء والمحتاجين ورفع التخلف وعدم التبعية والقيم الأخرى من أهمّ معايير تمدّن الأمم وصلاح الحكومات. ومن أقبح الأفعال التي قام بها الغرب في القرون الأخيرة أنه أساء تقديم ثقافة المسلمين وتمدنهم وسخّر إعلامه لتصوير المسلمين، وخصوصاً الإيرانيين، على أنهم شعوب بلا ماضٍ وأنهم أعداء الآخر وأن عقائدهم مجموعة من الخرافات وقالوا: إنّ هذه العادات السيّئة هي من رواسب ثقافتهم الدينية.

كتب (جيمز موريه) رابط السفارة البريطانية في طهران سنة 1239هـ. ق كتاباً بعنوان (حاجي بابا) تناول فيه الإيرانيين بطريقة غير منصفة ووجّه مجموعة من الإنتقادات اللاذعة والسامّة متعامياً عن الأمور الجميلة والقيم الإنسانية للإيرانيين، فهؤلاء ينظرون بعين ضيّقة بحيث لو أنّ شخصاً بعيداً عن الثقافة الإسلامية قرأ كتاب (حاجي بابا) فإنه يعتبر هؤلاء القوم أغبياء ويعتقدون بالخرافات وبعيدين كل البعد عن القوانين الإنسانية[1].

ومن خلال نظرة إلى الثقافة الإسلامية والإيرانية التي تعتبر اليوم في مقدّمة الثقافات الرائجة في المجتمع نرى بوضوح أنّ الخصال السيّئة أقلّ وجوداً في المجتمعات الإسلامية قياساً إلى الثقافات والمدنيات الأخرى، ولو نظرت إلى شعوب العالم كافّة هل ترى شعباً يرفع راية الإيثار والمحبة والصفاء والأخوّة وإكرام الضيف ومساعدة الفقراء والمعوزين غير الشعوب الإسلامية؟

(1) حاجى بابا أصفهاني، جيمز موريه، ترجمة مهدي افشار، انتشارات علمي، تاريخ وفرهنك/42. (مصدر فارسي).

فعلى طول التاريخ كانت الشعوب غير الإسلامية تتمتّع بحريّة في البلاد الإسلامية أكثر من الحرية التي يدّعونها في أوروبا، فالمسيحيون واليهود عاشوا إلى جانب المسلمين بكلّ سلام وكان لهم حضورهم في مواقع اقتصادية وسياسية عالية[1]، وحتى في عهد الحروب الصليبية فإنّ المسيحيين الذين كانوا يقطنون البلاد والمدن الإسلامية وجوارها وقفوا بملء رغبتهم إلى جانب المسلمين يحملون معهم الآلام والمتاعب أكثر مما كانوا يقفون لإعانة مَن هم من أتباع دينهم[2]، وعلى خلاف المبادئ غير الإنسانية للأوروبيين عندما هاجموا بلادنا واحتلّوا مدينة القدس فإنّ المسلمين وبعد انتصارهم عليهم عاملوهم بكلّ أخوّة ومحبّة.

وفي العهد الصفويّ والقاجاريّ كان يعيش الآلاف من اليهود والمسيحيين إلى جانب الإيرانيين، وإلى ما قبل قيام دولة إسرائيل الغاصبة فإنّ المدن الإيرانية كأصفهان وهمدان ومشهد والريّ كانت تعتبر من أهمّ المدن التي يقطنها اليهود[3]، وعليه فإنه لا مجال للمقارنة بين حريّات الأقليّات الدينية في أوروبا وحريّات غير المسلمين في إيران.

وذكر الرحَّالون من خلال تجوالهم وإقامتهم في البلاد الإسلامية أنّ القيم الإنسانيةكالصدق ومحبة الخير للآخرين من الخصال الحميدة عند المسلمين.

كتب ناصر خسرو وهو رحالة من القرن الرابع عشر في وصف سوق مصر:

«إنّ أهل السوق في مصر صادقون في أقوالهم عند بيعهم لأيّ متاع، وإذا كذب أحد على أحد المشترين فإنه يُشهّر به باعتلائه جملاً ويعلّق له جرس في يده ويُطاف به في المدينة فيقرع الجرس وينادي: أنا قلت الكذب وأنا نادم

(1) احیای فرهنکی/126.

(2) معجم البلدان، ياقوت حموى، تحقيق عبد العزيز الجندي، ج5/199، دار الكتب العلمية.

(3) سفر به دربار سلطان صاحبقران، (السفر إلى بلاط السلطان صاحبقران)، د: هيزيش بروكش، ترجمة مهندس كرديجه/307-379، اطلاعات. (مصدر فارسي).

على ذلك وكل من يقول الكذب فجزاؤه اللوم والتأنيب»[1].

كتب ابن بطّوطه الرحّالة المشهور في القرن الثامن الهجري والذي أمضى ثلاثين سنة في السير والسفر، عن المحبة ومداراة الناس وحسن التعامل معهم، وفي توصيفه لأحد المراكز العلمية في النجف قال:

«دخلت من باب الحضرة إلى إحدى المدارس الكبرى التي كان يسكنها بعض الطلّاب الصوفيين الشيعة، وفي هذه المدرسة إذا قدم أحد المسافرين فإنهم يقومون باستقباله حتى ثلاثة أيام ويقدّمون للضيوف الطعام المؤلّف من الخبز واللحم والتمر مرّتين في اليوم»[2].

وشرح آداب وعادات أهل الشام فتحدّث بتعجّب عن انتشار ظاهرة الوقف ومساعدة العجزة والتي من جملتها وقف لتجهّز المتاع للبنات الفقيرات من أجل الزواج، وقف لتحرير العبيد ومساعدة المتخلّفين، وقف لشق الطرقات، وقف لتحسين ظروف الأطفال والجواري.

وشكّلت إيران حلقات مهمّة من حلقات التمدّن الإسلاميّ نظراً للغنى الثقافي والإنساني والأخلاقي الذي تتمتّع به على مستوى العالم.

الرحّالة الفرنسي (شاردن) أمضى مدّة طويلة في إيران في العهد الصفويّ، ويعدّد في مذكراته بعض الخصائص المشهورة عن الشعب الإيراني فيعدّهم من روّاد علم الفلسفة والأخلاق والحكمة، ومن مؤسّسي كلّ العلوم والقيم، فكتب قائلاً:

«يتقدّم الإيرانيون على بقيّة الأمم والشعوب في أصول الأخلاق، وبما أنهم يعتقدون اعتقاداً راسخاً بقدرة وحكمة الله وقضائه وقدره لذلك تراهم بمنتهى التسليم إزاء كافّة الابتلاءات والمصائب والآلام التي تصيبهم، ويمكن القول

(1) سفرنامه حكيم ناصر خسرو قياداياني، (رحلات الحكيم ناصر خسرو القياداياني)با تحقيق دكتر محمد دبير سياقي/105، زوّار.

(2) سفرنامه ابن بطوطه، (رحلات ابن بطوطة)، ترجمة محمّد علي موحد، ج184/1، علمي وفرهنكي، تهران.

أيضاً: إنّ هذه الفضائل الأخلاقية الإنسانية هي ركيزة الكثير من الصفات السامية كالصبر والقدرة والوسطية وغيرها من أخلاق هذا الشعب، ثمّ إنّ تجلّي هذه الصفات والفضائل السامية ترك أثراً عالياً في ترك الطمع والجشع في نفوسهم، وجعلتهم أكثر رقةً ومحبةً وإحساساً بالآخرين»[1].

والتحقيقات التاريخية للمؤرّخين الحياديين تؤكّد على مسألة مهمّة وهي أنه ينبغي التشكيك بما كتبه المؤرّخون الأرمن عن ثقافة الإيرانيين في العهد الصفوي، والتي نشروها في كلّ العالم[2].

في البلاد الإسلامية تعيش الشعوب إحساساً عالياً بشخصيتها، ولا مكان للذلّ والهوان عندهم، ففي العهد الصفويّ في إيران لم يكن هناك وجود للتسوّل والاستجداء، كما أنّ الناس كانت تنفر من بعض الفقراء الذين يبذلون ماء وجوههم بالتسوّل.

كتب شاردن: «**إنّ شعوب المشرق تختلف عن الشعوب الأوروبية التي لا تحمل ثقافة إعطاء الصدقات، كما أنه لما كانت حياة الناس في المشرق حياةً عادية لا يوجد فيها متطلّبات الحياة الثانوية والكمالية، لذلك ترى أنّ نسبة الفقراء وعددهم قليل جداً في مجتمعاتهم**»[3].

والتقارير التاريخية شاهد على نظافة المدن والناس في عهد التمدّن الإسلاميّ، ففي الوقت الذي كانت فيه الصحّة والنظافة في أوروبا ليست بالمستوى المرضي فإنّ المدن الإسلامية كانت تحوي آلاف الحمّامات العمومية، وكانت الطرقات مفروشة بالحجارة وكانت الناس تعيش في بيئة صحيّة وسليمة[4].

---

(1) سفرنامة شاردن، (رحلات شاردن)، ترجمة اقبال يغمايى، ج 3، 1050، توس، تهران.

(2) يادداشتها وانديشه ها (ذكريات وأفكار)، دكتر عبد الحسين زرين كوب، 194، جاويدان، تهران. (مصدر فارسي).

(3) سفرنامه شاردن ج4/1459.

(4) مجمع الآداب في معجم الألقاب، ابن فوطي، ج5/352. سفرنامه ابن بطوطه، ج1/105.

هذه الثقافة الإسلامية والآداب المدنية إنما كانت ببركة تعاليم الإسلام والأساتذة والمبلّغين الموقّرين والعلماء ذوي الفضل في الحوزات العلمية، وببركة علماء الدين الذين كانوا إلى جنب الناس دائماً ويؤدّبون الناس من خلال القول والعمل، ويبثّون فيهم المحبة والأدب وأخلاق الحياة المدنية.

وكان هؤلاء العلماء يعظون الناس ويقدّمون لهم النصح والحكمة من خلال الكلمة الطيبة والأسلوب الجميل، ويعرفون لهم الأمثال ويأتون بالشواهد التاريخية وسير الماضين، ويبثّون لهم دقائق الأمور الأخلاقية وتفاصيل الحياة الاجتماعية، فكانت هذه المواعظ لها تأثيرها السحريّ بين الناس فتشعل فيهم الأمل ويتحلّون بالصبر والقناعة والتواضع والصفح وعشرات الخصال السامية الأخرى التي شكّلت ركائز المجتمع الإسلامي، وعلى طول التاريخ فإن الذين تربوا في أحضان الحوزات العلمية تركوا آلاف الكتب والرسائل المفيدة والقيّمة والتي كتبت بلغة لطيفة ولها انتشارها الواسع بين الناس.

وتعتبر المواعظ الفلسفية للخواجة الطوسيّ والشيخ مصلح الدين سعدي وأبي سعيد أبي الخير والخواجة عبد الله الأنصاري و... من أجمل الآثار والمؤلّفات التي ساهمت في صناعة الثقافة، وكانت المواعظ المستوحاة من القرآن والسنّة كالماء الزلال الذي يقع على الأرواح العطشى فيرويها ويعطي الأمل والفرح لأصحاب القلوب الحزينة والمتعبة.

وكان العلّامة سعدي يدرّس فضائل الإيثار والشهامة وغيرها من المفاهيم التي كانت غائبة وغريبة عن أذهان الناس، وكان لدرسه صدىً مميّز، فقد كان الناس يعتبرونه أخاً لهم، وكان يحمل آلامهم وكان بينهم مصلحاً يستقبل مشاكلهم ويعمل على حلّها.

وفي العهد الصفويّ تركت جملة من الكتب أثراً بالغاً في نشر القيم والتي أهمّها كتاب (روضة الأنوار) للسبزواري وكتابات الشيخ البهائيّ والعلّامة المجلسيّ وآغا

جمال الخوانساريّ وآخرين.

وكان كتاب (روضة الأنوار) تكملةً لسلسلة الكتب التي صُنفّت في إطار الحكمة العملية من ضمن المجموعات التي دُوّنت في الثقافة والتمدّن الإسلاميّ، وقد تناول السبزواريّ في هذا الكتاب الأهداف السياسية والاجتماعية المرتكزة على الأصول الأخلاقية مستفيداً من هدي القرآن والحديث وتجارب الأمم السابقة، وعرّف الناس والحكّام سبيل الوصول إلى هذه الأهداف ومواجهة كافّة أشكال الذلّ والإنحطاط[1].

وشكّل كتاب (معراج السعادة) للعلّامة النراقي نموذجاً مميّزاً في فضاء صناعة القيم منذ العهد القاجاريّ وإلى أيامنا هذه، والنكتة المهمّة في هذا الكتاب هي أنه تحدّث عن رسالة العلماء في النصيحة، وسلوك الملوك، نصيحة الملوك، تهذيب الأخلاق، القصص التاريخية، بلغة فنية مبيّناً المعاني السامية، ثمّ عقّب بعد ذلك بالحديث عن النهي عن المنكر والطريقة المناسبة لإعطاء هذا الدواء المرّ للحكّام.

ففي بعض المراحل من التاريخ الإسلامي كانت الناس تنظر إلى الحكّام على أنهم مالكو أموال الناس وأرواحهم، ولم يكن أحد يجرؤ على الحديث أمامهم بشكل مباشر ودون حجاب، وكانوا يعاملون الناس بطريقة فظّة وقاسية، وكانوا بعيدين كلّ البعد عن الحقّ وفعل المعروف، وفي هذا السياق كان من الطبيعيّ استخدام وسائل أخرى كالقصّة والشعر والهجاء والتي تعرّفك كيف تميّز بين أصناف الناس فتقرّبك من أهل الخير من الناس وتبعدك عن الناس السيّئين.

«في هذه الظروف والأحوال حيث لا يوجد أيّ مصلحة أو نفع من إثارة غضب الملك والصدر الأعظم وباقي أصحاب السلطة كما لا يجرؤ أحد على

(1) روضة الأنوار عباسي، ملا محمد باقر سبزواري، تحقيق اسماعيل جنكيرى/574، نشر ميراث مكتوب.

إرشاد هؤلاء المغرورين إلى طريق الخير والعدالة، قام أهل المعرفة والنظر بكتابة وقراءة الكثير من القصص المعبّرة لإرشاد العتاة والجبابرة من خلالها إلى ضرورة ترك القتل والظلم والاعتداء على الناس»[1].

ودرّس علماء الدين الكثير من المواعظ والمبادىء الإنسانية كالمحبة والصداقة وذلّلوا المتاعب أمام العجزة والفقراء وكانوا في طليعة من يخدمون الناس ويهتمّون بالفقراء اهتماماً خاصّاً ويهملون أصحاب النفوذ وأهل الحكم.

وكان لزهد الشيخ المفيد وبساطة عيشه أثرٌ طيّبٌ في الناس وفي عضد الدولة الديلميّ في التعامل برحمة مع رعيته[2].

وحثّ أبو ريحان البيروني الأمراء على العلم والفكر من خلال تحلّيه بالعلم والعمل والتضحية والقناعة[3].

وساهم أبو سعيد النيشابوري من خلال كرمه ومروءته واهتمامه بالناس في التأثير في أصحاب القدرة لنصرة الفقراء والاهتمام بشؤونهم:

كان أبو سعيد صاحب كتاب «**شرف المصطفى**» عالماً زاهداً وورعاً جال في العديد من المدن طلباً للعلم، وضحّى بروحه وماله في سبيل الفقراء والغرباء عن وطنهم، وبنى بيتاً للمرضى وأعطى أمراً لأصحابه برعايتهم من الناحية الصحية وتوفير الطعام لهم[4].

ولفتت نظر الدكتور بروكش سفير ألمانيا في المعهد الناصريّ الحياة البسيطة والعفوية للحاجّ السيّد أسد الله المجتهد الأصفهانيّ، وأنه كيف يمكن لهذا العالم الديني الذي يقطن بيتاً حقيراً أن تنجذب إليه قلوب الناس وأن ينشر المحبة واللطف في المجتمع، وكيف يأتي الناس جماعة من كلّ المحافظة إلى داره ويقفون

(1) سفرنامه شاردن، ج3/1051.
(2) سير اعلام النبلاء، ج13/1051.
(3) لغت نامة دهخدا، ج1/6431.
(4) اعلام الورى، طبرسى، /19، بانوشت به نقل از الكنى والألقاب، شيخ عباس قمي.

صفاً ليعرضوا عليه حاجاتهم ويطلبوا منه الدعاء.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره في مقام حديثه عن دور المربّين في الحوزات ودور بساطة العيش والأخلاق الواعية في ثقافة وصلاح عامّة الناس: «**كنت أذهب في عطلة الصيف أحياناً إلى مدينة (محلات)، وكنت أشعر أثناء وجودي هناك أنّ أهل محلات يمتازون كثيراً من سواهم من الناس، وأنهم حريصون على التديّن جدّاً، وبعد التدقيق فهمت أنّ تلك المنطقة كان يرتادها علماء فضلاء، فالعلماء الذين كانوا هناك يتقنون أعمالهم ووظائفهم، وهم من خيرة العلماء تحصيلاً وعملاً، ولذلك فإنّ الناس اهتدوا بهديهم فكانوا أفراداً صالحين**».

تدوين القانون ونظام الحياة الاجتماعية

يعتبر وجود القانون من خصائص قيام المجتمع المتمدّن لا سيّما القوانين المرتبطة بالحياة الاجتماعية، فالجميع يريد الاستفادة من كافّة المواهب والثروات الطبيعية من أجل خدمة الناس ومن أجل الوصول إلى حياة سليمة وآمنة تُحفظ فيها حقوقهم، ويمارسون أعمالهم في جوٍّ من الأمن والأمان وعدم الضغط النفسيّ.

ومن الواضح أنه في أيّ مجتمع إنساني يُفقد فيه الأمن وتنهار مبادىء العيش والوجود أن يتجه هذا المجتمع نحو الطمع وعدم القناعة، وتستعر فيه نار الخوف والفتنة، ومن هنا كان لا بدّ أن تكون حدود القوانين واضحة تماماً ومعلومة ويعلن عنها: إنّ تجاوز هذه الحدود من أيّ شخص كان هو تعدٍّ على حقوق الآخرين.

«**فالقانون مجموعة من القواعد والأنظمة المقرّرة من الجهات التي لها مصداقية وقدرة في العالم، وعلى كافّة الأشخاص الذين يعيشون تحت سيطرة هذه القدرة الالتزام بالتكاليف والحدود والمسؤوليّات المعينة**»[1].

(1) شناخت اسلام، (معرفة الإسلام)، محمد حسيني بهشتي، باهنر وغفوري /344، دفتر نشر فرهنك اسلامي. (مصدر فارسي).

فالجميع يجب أن يعيش تحت ظلّ القانون، ولا ينبغي أن يكون مرور الوقت سبباً لشيخوخة هذا القانون وعدم نفعه، كما أنه ينبغي أن يحافظ على ضمانة تنفيذه وألّا تعميه التحوّلات التي تصيب الإنسان والعالم.

فالإسلام هو مجموعة من القوانين التي وُضعت من أجل إدارة كافّة تفاصيل الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان، والتي إذا طبّقت بطريقة صحيحة فإنّ من شأنها أن توصل الإنسان إلى السعادة.

وأثبتت التجربة أنه بمقدار ما تحافظ المجتمعات الإسلامية على هذه الأنظمة بمقدار ما تكون حياتها سعيدة وسليمة.

فتطبيق القوانين والأنظمة الدينية يساعد على تثبيت ركائز التمدّن الإسلاميّ، وهو أهمّ الأسس في بقاء هذا الدين وخلوده.

ففي الأيام الأولى التي قام فيها رسول الله ﷺ ببناء المجتمع الديني في المدينة عمد إلى تدوين القانون الأساسيّ من أجل تنظيم المجتمع والمنع من أيّ تفكّك اجتماعيّ أو هرج ومرج، وهذا ما عرف فيما بعد باسم وثيقة المدينة.

وقد شرحت هذه الوثيقة وبيّنت بشكل واضح حقوق كافّة المواطنين والسكّان والذين يعيشون في ظلّ قدرة الإسلام فبيّنت قواعد الصداقة والأخوّة والصلح ومساعدة الآخر، المواجهة الجماعيّة، السعي الجماعيّ للقضاء على الحالات الشاذّة، المواجهة مع أركان الفساد، نبذ الخلافات، البناء بإحكام ومعالجة الخلافات القديمة والمستمرّة بين الأوس والخزرج.

وشرحت الوثيقة مبادىء كيفيّة تعامل المسلمين مع المسلمين والمسلمين مع النصارى واليهود وجمعت كافّة القبائل والفرق تحت علم واحد هو الدين، وأن يعمل الجميع لحفظ الأمن والوحدة والسعي لإحلال الصلح والأخوة، وقد عرّفت هذه الوثيقة وظائف المسؤولين وأفراد المجتمع فرداً فرداً، والتي ينبغي على

الجميع احترامها وأن يدافعوا جميعهم عن حقوق المجتمع[1].

ومن خلال تدوين هذه القوانين أرسى الرسول الأكرم بنيان المجتمع المدنيّ بكلّ مهابة وجلال وشيّد نموذج المدنية وأضاء مشعل التمدّن في سماء مدينة النبي ﷺ، وكان لعظمة هذا التمدّن الإسلامي وسلامتة الأثر الكبير في سرعة الفتوحات في العالم.

وبعد النبيّ ﷺ كان الحكّام المسلمون اللائقون بهذا المقام يسنّون القوانين والأنظمة الاجتماعية إقتداءً بسيرة النبي وإلهام هذا الرجل العظيم ويثبتون هذه الركائز شيئاً فشيئاً ويحفظونها من الانهيار.

وعند الشيعة يُعتبر وضع القوانين من أهمّ وأوضح ركائز بناء التمدّن الإسلاميّ في عصر الأئمّة عليهم السلام، وكذلك فإنّ هذه المهمّة تقع على عاتق العلماء والفقهاء الأكفاء، وفي الوسط الشيعيّ والسنّيّ بذل العلماء والفقهاء جهوداً كبيرة خلال مختلف العهود على كتابة المؤلّفات الخاصّة بالأنظمة والقوانين ووضعوها في تصرّف أهل الحكم والسلطة، وسعى هؤلاء العلماء في مؤلّفاتهم لاعتماد المعايير الشرعية والدينية في سنّ قوانين المجتمع[2].

وبقي العمل على هذا المنوال خلال عهود متنوّعة من التمدّن الإسلاميّ بحيث لو اعترض أحدهم أيّ مشكلة نظرية أو إبهام في قانون ما، فإنّ علماء الدين كانوا يتصدّون لذلك ويكتبون رسالة خاصّة بهذا الخصوص، أو تُعقد الجلسات والمشاورات العلمية لذلك وتقوم برفع الإبهام وفتح الطريق لخدمة الناس.

يذكر كاتب «**تاريخ قم**» مجموعة من النماذج المختلفة عن مشاورات العلماء والخبراء حول مسألة تقسيم الأراضي وأخذ الأموال والضرائب من الناس، ومن جملة ما كتب: أنه في زمان حكومة علي بن عيسى وعلى أثر توزيع الأراضي

(1) السيرة النبوية، ابن هشام، ج2/150-147، دار احياء التراث العربي (دورة 4 جلدي).
(2) كتاب الخراج، أبو يوسف قاضي، كتاب الخراج، ابن آدم قرشي، دار المعرفة، بيروت.

الزراعية في منطقة الجبل أكّد على الأمر التالي: تمّ تغيير القانون المتعلّق بسنن الخراج وبالتالي فإنه من الضروريّ أن تؤخذ الضرائب من الناس وفق مقتضيات العصر وبحسب الزمان والمكان وتناسب مساحة الأراضي.

ثمّ تمَّ إطلاع كافّة العاملين ومأموري جباية الخراج على الموعظة الحسنة والكلمة الطيبة التي يجب أن يعاملوا الناس بها، ومن ذلك ما نقله أبو بكر الصولي:

«إنّ التكليف عند أخذ الخراج ألّا يتمّ التعامل مع أحد بقسوة أو عنف أو ضرب، بل يؤخذ منه الأقمشة والمتاع والوسائل والآلات والملابس عوضاً عن الدرهم والدينار، وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يتقاضى الخراج من أهل الصناعات مما يصنعون فالأبر من صانعي الأبر والأقمشة من صانعي الأقمشة والحبال والخيطان من صانعيها، أو أي شيءٍ مما يملكون، وكان لا يأخذ الأمور المحرمة كالخمر والخنزير، بل يتقاضى الخراج من البقر والغنم»[1].

كتب القاضي نعمان العالم المحبوب والملمّ بسياسة الدولة الفاطميّة كتاباً باسم (دعائم الإسلام)، ويحتوي هذا الكتاب على الأنظمة والقوانين الدينية وخصوصاً سيرة الإمام عليّ عليه السلام.

وفي عهد آل بويه بذلت جهود ومساعٍ لافتة للنظر من أجل كتابة القوانين وبناء المجتمع بشكل عادل، ودُوّنت أكثر الأبحاث والرسائل في هذا العهد في أبواب الحكومة وسبل وقواعد إدارة الناس وكيفية التعامل والتبادل مع الآخر[2].

وفي بداية عهد المغول، كانت القوانين والأنظمة المرعية الإجراء صعبة وقاسية. ولكن تمّ إعادة النظر بهذه القوانين واستبدالها بالقوانين والأنظمة الإسلامية وخصوصاً في عهد الغزو المغولي، فقد وصل المجتمع إلى حدّ العدالة

(1) همان/188.

(2) الأحكام السلطانية، قاضي أبو يعلى ؛ الأحكام السلطانية، ماوردي، ج1و2، دفتر تبليغات اسلامي حوزة علمية قم.

وتمّت الموافقة على قانون يقضي بمواجهة الفسق والفجور والهرج والمرج بشدّة، ووضُعت القوانين لإدارة الأمور المالية وأخذ الضرائب والمنع من مقاطعة دفع هذه الرسوم، كما وُضعت القوانين للأحوال الشخصية والزواج والطلاق. والأهمّ من ذلك كلّه وُضعت قوانين متنوّعة تتعلّق بالوحدة وتمت الموافقة عليها من أفراد الناس. إضافةً إلى ذلك فقد وُضعت قوانين ترتبط بأعمال الناس سواء في المناطق المسكونة أو الصناعية[1].

وكان القادة العسكريون يأتون من شرق البلاد الإسلامية إلى أعمالهم ليقرّروا القوانين العسكرية، وعانى هؤلاء في البداية من بعض المواجهات مع الناس للحدّ من الهرج والمرج وعدم وجود قوانين، إلّا أنه وبعد فرض بعض الضرائب المالية شعر الناس بأهمية القوانين وأصبحوا يرغبون بتنفيذ الأنظمة والقوانين القرآنية لتمهيد الأرض لحكومة الإمام المهديّ عجل الله فرجه[2].

وبدأ هؤلاء القادة العسكريون فور انتصارهم بالقيام بسلسلة من الأعمال المتناسبة مع الشعارات التي رفعوها وفق المعايير الإجتماعية التي تضمن قوّة وسلامة هذه الحكومة، ومن جملة هذه الأعمال: وضع ضوابط النظام الماليّ، إبطال نظام الحوالات، القضاء على حالات استغلال المواقع والاستفادات غير المشروعة، إصلاح الفساد والحدّ من الخلل والإضطراب الاجتماعي، وضع نظام لتسهيل الوصول إلى ديوان الأشراف لمتابعة الأعمال، و.....

وكانت الزعامة المعنوية والمرجعية الفكرية لهذه المجموعة من علماء الشيعة بعهدة الشيخ حسن الجوري والشهيد الأوّل.

(1) تاريخ حبيب السير، ج 3/167.

(2) اسلام در ايران، بطروشفسكي، ترجمة كريم كشاوز/284، بيام.

كتب إبن بطوطة حول خطّة الشيخ حسن الجوري المرتبطة بحركة القيادات العسكرية:

«**كان في مدينة مشهد طوس شيخٌ رافضيٌّ من فضلاء علماء الشيعة، وكان يُسمّى الشيخ حسن، وكانت أعماله مورد تأييد الناس وقبولهم مما جعلهم ينتخبونه لخلافتهم، وكان يوصي القادة العسكريين بالعدل والكرم، وقد استتبت قوانين العدالة واتخذت رونقها في تلك الناحية إلى الحدّ الذي كان الشيخ حسن يرمي بالقطع الذهبية والفضية المفقودة على الأرض فلا يمسّها أحد ما لم يظهر صاحبها**»[1].

وكان من زعماء قادة الجيوش الخواجة علي المؤيّد الذي اشتهر بالعدل والإنصاف وأراد تطبيق فقه الإسلام وإدارة المجتمع الإسلاميّ وفق مباني القوانين والأنظمة الدينية.

وسعى الخواجة علي المؤيّد لاستقطاب علماء وفقهاء الشيعة للدراسة في خراسان، وذلك لإضفاء بعدٍ فقهيٍّ تحت مظلّة مبادئ هؤلاء العلماء وأخلاقهم.

وفي هذا الاتجاه دعا الشهيد الأوّل وهو من علماء وجبل عامل ليناصره في هذا العمل، وليسافر إلى خراسان إذا كان بإمكانه ذلك.

وأجابه الشهيد الأوّل بكتابة كتاب اللمعة الذي يحتوي على 52 باباً في البرامج الفردية والاجتماعية والمسائل السياسية والاجتماعية وأرسله له إلى خراسان[2].

وفي عهد الصفويين الذين حكموا قسماً كبيراً من بلاد المسلمين، كانت تُطبّق أحكام الإسلام، وساهم علماء الدين في تقوية أركان الملوك وبذلوا جهوداً في إرساء القوانين ومواجهة أعداء الدولة.

(1) سفرنامه ابن بطوطة، ج 1/434.

(2) اللمعة الدمشقية، شمس الدين مكّي، با تعليقات سيد محمد كلانتر مقدمة /133، دار العلم الاسلامي، بيروت.

وفي بداية عهد الملك إسماعيل كان هناك حاجة لنظام جامع وشامل يشتمل على كافّة العلاقات السياسية والاجتماعية ويعتمد دستوراً لكلّ العاملين.

ولبى العلماء هذا الأمر بحماسة، وفي النهاية اقترح القاضي نصر الله زيتوني كتابة كتاب «**قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام**» الذي كتبه العلّامة الحلّي وضمنه التعاليم والقوانين والأنظمة وفق مدرسة أهل البيت عليهم السلام، واتخذ الملك قراراً باعتباره جزءاً من الدستور. هذا الكتاب يعتبر سلسلة كاملة في الآداب والأنظمة الإسلامية والتي من ضمنها آداب الحكم والحكومة.

ومضافاً إلى كونه كتاباً جامعاً فقد بيّن الفتاوى والقوانين بعبارات قصيرة وواضحة، وبشكل عامّ فقد لبّى الحاجة الماسّة لوضع قانون يمكن الرجوع إليه في ذلك الزمان[1].

ومضافاً إلى ما ذُكر أورد العلّامة الحلّي في نهاية الكتاب وصية لابنه كانت قانوناً ودستوراً عملياً للجميع وشكّلت رسالة قيّمة لكلّ العاملين الجدد في النظام.

وفي هذه الوصيّة وبالإضافة إلى ما أوصى به ابنه من العبادة والدعاء لله، فإنه أفرد باباً خاصّاً للنظر في حياته، ومما ورد في هذا الكتاب نذكر هنا بعض الوظائف المرتبطة بالحكّام: التصدي للبدع وإبطالها، التعامل مع الناس برحمة، أن يحاسب الحاكم نفسه دائماً وفي كلّ مكان، الدفاع عن المظلوم لا سيّما الأيتام والأيامى ومعاملتهم وفق المبادئ الإنسانية وأخلاقيات العطف والرحمة[2].

وفي عهد الملك طهماسب دخلت إيران في مرحلة الدولة ذات القانون، فطلب الملك من العلماء تبيين هذا القانون بشكل أوسع ومناصرة وتأييد القوانين والأنظمة الدينية.

---

(1) تاريخ ادبيات ايران، از صفوية تا عصر حاضر، براون ترجمة بهران مقدادي، تعليق نوائي /56، مروارید، تهران.

(2) قواعد الأحكام، علامة حلي، ج2 /376، جاب سنكي، رضى، قم.

وبالإضافة إلى علماء إيران ساهمت مجموعة كبيرة من علماء جبل عامل المشهورين فتمّ إيضاح وتبليغ هذه القوانين والدساتير، كما تمّ وضعها وتنظيمها في كافّة أرجاء إيران، وأصبح واضحاً عند الجميع أنّ مرتبة القانون تأتي في رأس الهرم وأنّ الجميع تحت سقف القانون. وكتب المحقّق الكركي الذي كان من روّاد هذه الحركة دستوراً للعاملين في الدولة يضمن به سلامة ووحدة تنفيذهم لأنظمة الشريعة، وسلّمه إلى القوّة القضائية[1].

وفي عهد ناصر الدين شاه حدثت مواجهة بين علماء الدين وأزلام النظام القاجاريّ أدّت إلى التخاصم بسبب عدم وجود القوانين وتفشّي الهرج والمرج في الحكومة القائمة، ولم يكن علماء الدين ليسمحوا لهم بالتمادي والتطاول في أعمالهم، وطالبوا بتطبيق وتسييل وإجراء البرامج الدينية، وساعد بعض العلماء في تدوين القوانين الاجتماعية الإسلامية بالإضافة إلى بعض الكتابات مثل (جواهر الكلام) و(عوائد الأيام) الذي سلّط الضوء على أبواب خاصّة في الحاكم ووظائفه ودوره وغير ذلك...

وكتب الشيخ الأنصاري كتاب (المكاسب) لإيضاح بعض المباني الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام وتربية طلّاب من أهل المعرفة والتدبير.

وكتب كاشف الغطاء كتابه النفيس (تحرير المجلّة) الذي تمّ نشره، وشرح فيه بعض القوانين والأنظمة التي أوردها بعض علماء العهد العثماني ضمن كتاب (المجلّة)، وأوضح مبدأ أهل البيت في النقاط المشتركة والخلافية[2].

أمّا الشيخ علي الأسترآباديّ وهو من طلّاب صاحب الجواهر، فقد تناول موضوع القوانين والأنظمة الإسلامية بطريقة جديدة لاقت اتفاق الجميع وقدّمها إلى البلاط من أجل تحقيقها والعمل بها، لكنّ عاملي البلاط الذين يميلون إلى

(1) روضات الجنات، ميرزا محمد باقر خوانساري، ج 4/ 361،اسماعيليان، قم.
(2) تحرير المجلّة، محمّد حسين كاشف الغطاء مكتبة النجاح، تهران.

التقليل من الأمور التي تفرض عليها القيود والحدود لم يتجاوبوا معه وامتنعوا عن استقبالها.

وكتب المدرّس التبريزيّ في تقريراته عن أعمال الشيخ علي شريعتمدار في البحث والتحقيق:

كان الجامع الناصري يشتمل على الفقه العمليّ الذي ينضوي تحته كافّة الأبواب الفقهية بالإضافة إلى الأحكام الشرعية السياسية، التي تتعلّق بسياسة المدن ووظائف الحاكم والرعية تجاه بعضهما البعض، ووظائف كلّ صنف نسبة إلى الصنف الآخر، وكان مراده أن يعتمد قانوناً رسميّاً للبلاد يُعمل به في كافّة الأرجاء، لكن لما لم يتوافق مراده المقدّس مع مراد البعض من أصحاب الآراء الفاسدة والأهداف اللادينية فعارضوه ومنعوا من تنفيذه[1].

واختارت الحوزة العلمية طريق التصدّي والمواجهة، فقام علماء الدين ينشدون الإصلاح وتنظيم القوانين الاجتماعية بوضع القوانين وبثّها للذين لا يريدون إجراء القوانين، وتطوّر هذا التصدّي إلى المواجهة فسقط للحوزات الدينية الشهداء الأوائل على طريق الإصلاح حتّى تمّ في النهاية تدوين قانون المشروطة المعروف.

القضاء أساس حماية القانون

يُعتبر القضاء من الركائز المهمّة في حماية القانون ومنع الناس من التطاول على حقوق الآخرين، فوظيفة القوة القضائية في المجتمع الإسلامي هي مراقبة تنفيذ القوانين بشكلٍ صحيح في المجتمع وإقفال الطريق أمام الانحراف والتمرد، وبالإضافة إلى قبول المحاكم الإسلامية لبعض قوانين الأمم المتقدّمة التي وصلت عبر الأديان السماوية وبذل العقلاء جهوداً في هذا المضمار، فإنها سنّت بعض الأنظمة والدساتير التي تحافظ على حقوق السكّان، فعلى سبيل المثال فإن

(1) ريحانة الأدب، مدرس تبريزي، ج3/217.

يكن هناك وجود لأصل اسمه المسؤولية المدنية للجرم في أصول المحاكمات عند المخاصمة في العالم:

«**يعتبر الإسلام أول من بنى هذا المفهوم الحقوقيّ، وإذا اقترف شخص أيّ جرم فإنّ ذلك يستلزم جزراً مالياً على الآخرين، فالمسؤولية المدنية توضح وتشخّص هذا الضرر الماليّ، ويُعتبر هذا التفكير الحقوقي الخاصّ من المبادئ التي وضعها وسنّها القضاء الإسلاميّ**»[1].

ويُنتخب القضاة من وسط العلماء الذين وصلوا إلى حدّ الكمال في العلم وفهم القوانين الإسلامية واستفادوا من التجربة والخبرة والشجاعة والمزايا الأخرى لحلّ التخاصم.

في التمدّن الإسلاميّ كانت فئة القضاة من الذين يتمتعون بمرتبة عالية في العلم والقدرة بغضّ النظر عن بعض القضاة الذين لم يكونوا منصفين، إلّا أنّ القضاة بشكل عامّ كانوا من أصحاب القدرة والشجاعة والإنصاف ولا يميّزون بين الأغنياء والفقراء في أحكامهم، وفي التمدّن الإسلاميّ نرى الكثير من القضاة يسوقون بعض الحكّام إلى قاعة المحاكمة كغيرهم من السكّان العاديين.

في التمدّن الإسلاميّ هناك الكثير من القضاة أمثال القاضي حفص بن غياث الذي وقف بكلّ شجاعة وصلابة في وجه رغبات حاشية المنصور الدوانيقي في بغداد، ولم يستطع أحد أن يمنعه من النطق بالحقيقة، هذا القاضي عاش في هذه الدنيا فقيراً ورحل عن هذا العالم عزيزاً[2].

في العهد الإسلامي شهدت الأندلس أيضاً نظاماً قضائياً مستقلاً وقوياً، فكان القضاة أمثال القاضي سليماني الغافقي هم الذين يراقبون ويدققون في مجريات

(1) نهاد دادرسي در اسلام، (تأسيس المحاكم في الإسلام)، محمّد حسين ساكت /55، آستان قدس رضوي. (مصدر فارسي).

(2) قاموس الرجال، علّامة محمّد تقي تستري، ج3/591، مؤسسة نشر اسلامي، وابستة به جامعة مدرسين.

كافة الأحداث وكانوا يقولون للحكام بكل وضوح: نحن لا نقبل أي تدخل أو توصية من أحد وليس لأحدٍ حق النفوذ علينا سوى قاضي القضاة[1].

وفي عهد الدولة الفاطمية في مصر كانت الأمور كلّها تحت نظر القاضي، وكان كافّة العاملين في الأمور السياسية والمالية وأصحاب المقامات التنفيذية يرفعون إليه تقاريرهم العملية ويجيبون عن كافّة الأسئلة الموجّهة إليهم من القوّة القضائية.

كان علي بن النعمان أوّل من لُقّب في مصر بـ(قاضي القضاة)، وكان قد كتب في نظامه القضائيّ: كلّ الأمور خاضعة لمراقبته في النظام القضائيّ في مصر، كانت كافّة الآراء والدساتير تُدوّن وتُسجّل وتودع في مكاتب خاصّة[2].

وفي عهد حكومة السامانيين، نظّم السامانيون في مختلف أرجاء البلاد ديواناً خاصّاً لإدارة المنطقة، ويشتمل هذا الديوان على مكاتب عديدة لمختلف الوظائف والمراجعات، وفي هذا المكان يوجد مكانٌ خاصٌّ للقضاء، وكان الأمراء السامانيون يختارون أفراداً من بين الفقهاء المعروفين بالعلم والتقوى لمراقبة وتدقيق الدواوين والمكاتب الأخرى.

ومن القضاة المشهورين والمعروفين بالعدل والإنصاف ووضع القوانين في مدينة بخارى، القاضي سعيد بن خلف البلخي، وهو الذي نظّم تقسيم المياه المبعثرة في مدينة بخارى ومنع اعتداء أصحاب النفوذ والقدرة من التعدّي على حقوق الفقراء والمزارعين وغيرهم.

يقول أبو ذرّ البخاريّ وهو من أعرف العلماء: كثيرون الذين كانوا يحاولون أن يقدموا له رشوة بطريقة مخفية أو ما شابه، لكنّ هذه الشخصية لم تتلوّث بأيّ شيء، بل كان عدله وإنصافه يظهر أكثر فأكثر يوماً بعد يوم.

وكذلك القاضي أبو الفضل المرزوي أيضاً الذي لم يتناول أيّ ذرة حرام من

(1) نظام الدولة والقضاء والعرف في الاسلام، د.سمير عالية /298، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت.
(2) نهاد دادرسي در اسلام /91.

أحد، وفي عهده عمّ العدل والإنصاف على يديه[1].

وفي عهد آل بويه كان القضاة يملكون سلطة مستقلّة في ميدان عملهم في مراقبة أمور البلاد والحدّ من الفساد والتمرّد ولم يعطوا لمسؤولي القوى التنفيذية حقّ التدخّل في أعمال المحاكمات ووضع القوانين: طلب القائد العسكري أسفار بن كردويه من عضد الدولة أن يقول للقاضي: إذا استشهد أحد ان يزكّيه ويقرّ له بالعدالة ويتقبل شهادته. أجابه عضد الدولة: هذا الأمر ليس من شأنك، عملك أنت أن تتحدّث في الأمور العسكرية أمّا اعتباره عادلاً وشهادته مقبولة فهذا أمر مرتبط بالقاضي، ولا يحق لي ولا لك التحدث بهذه الأمور[2].

وكذلك كان هناك تفتيش خاصّ وواضح في حال عصيان أحد القضاة، ويُعاقب المنحرف منهم عقاباً شديداً ويطرد من عمله. ففي عهد قضاء الصاحب بن عباد كتب رسالة قضائية للقاضي عبد الجبّار مؤلّفة من 700 سطر شرح فيها قوانين العمل ومبادئ المحاكمات وشرح بعض الموارد الغامضة في القانون، وكان لهذه الرسالة المحكمة من الأهمية ما جعلها دستوراً استفاد منها كافّة العاملين والقضاة في الدولة الإسلامية[3].

وفي عهد السلاجقة كانت دائرة عمل القضاة واسعة، فعُهد إلى إدارة الأمور القضائية الأوقاف والأموال المجهولة المالك وإدارة المدارس وإدارة الأمور الحسبية، وفي ذلك العهد بذل القضاة المقتدرون جهوداً لمنع وصول الفقراء إلى التسوّل والخيانة، وقاموا بمواجهة الظلم والتزييف بكلّ قوّة واقتدار.

جاء في رسالة السياسة للخواجة نظام الملك: وكانت سلطة القضاة تفوق سلطة الملك، ومقامهم ومنزلتهم ينبغي أن ترقى إلى حدّ الكمال، ولهم حقّ الأمر

(1) تاريخ بخارا، (تاريخ بخارى)، أبو بكر محمّد بن جعفر نرشخى، ترجمة أبي نصر قبادي، تلخيص محمّد بن زفر /6،7. (مصدر فارسي).
(2) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج9/21، دار صادر بيروت.
(3) لسان الميزان، ج4/349.

بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن قوانين المملكة أنه يجب على الملك وأعوانه تقوية القاضي، ونتيجة لذلك يسود العدل ويندر وجود الفقراء والمحتاجين[1].

وكان العلماء الشجعان حماة القانون في أيام المغول وتيمورلنك وما بعد ذلك، وكانوا يقفون بقوّة في وجه من يريد كسر القانون، وعلى سبيل المثال نذكر العالم أبا بكر التاييدي والعالم مسيح الدين ساوه من العلماء الأتقياء ومحبي أهل البيت ومن أهل الشجاعة والعزم، وكانا يناشدان الحكام لمنع أي ظلم أو اعتداء[2].

وفيما يرتبط بالمؤسّسات القضائية، ففي عصر التمدّن الإسلاميّ تمَّ إنشاء عشرات المؤسّسات كديوان المظالم، وديوان الأمور الحسبية والقاضي العسكريّ، وديوان النقابة، وكان لكلّ واحدة من هذه المؤسّسات حقّ المراقبة في الأمور القضائية الخاصّة بها.

علماء الحوزات في خدمة الرعاية الاجتماعيّة والأمن العامّ

تعتبر الرعاية الاجتماعية والعدالة والأمن من المعايير الأساسية للمدنية، فالمجتمع الذي لا يعيش الأمن يسوق الناس إلى الجلّاد أو إلى البيئة الفاسدة وآثارها من الفقر والتعب ومشقّة الإبتعاد عن الله، فالإسلام والقادة المسلمون وفّروا الأمن والرعاية الاجتماعية والعدالة للناس وساروا بهم تحت مظلّة عدالة الله، فكان ذلك سبباً في رغبة الإيرانيين والروم والهنود في اعتناق الإسلام.

كتب دينويا وهو أحد كبار المفكّرين والمؤرّخين في الهند:

«كان للإسلام دورٌ بارزٌ في صناعة التمدّن في الهند، من خلال إعلانه المساواة بين البشر، فالتمدّن الهنديّ كان يقسّم الناس إلى عدّة طبقات لكلّ واحدةٍ منها امتيازاتها الخاصّة، وبعض الطبقات محرومة من الحقوق أساساً،

(1) ديدار با اهل قلم، (لقاء مع أصحاب الأقلام)، غلا محسين يوسفي، ج1 /129، دانشكاه فردوسى مشهد، به نقل از سياست نامه. (مصدر فارسي).

(2) لغت نامه دهخدا، ج17369/11.

ودخل الإسلام من خلال مقولته بإلغاء الطبقية في مواجهة مع النظام الطبقيّ، ويمكن قراءة نتائج هذه المواجهة في كتب التاريخ، ولا يمكن لأحد أن يدّعي أنّ الإسلام خرج مهزوماً من هذه المعركة، وفضلاً عن أنّ عمل المجاهدين المسلمين الذين كانوا يمتشقون سيوفهم فإنهم وَطِئوا بأقدامهم أرضنا وجالوا في البلاد قريةً قرية يشرحون للناس ويبيّنون لهم التعاليم والأصول الفطرية للدين الإسلاميّ[1].

وتذوّق الناس نعمة هذه المدنية في الإسلام حيث كانت أمواج الرعاية الاجتماعية والأمن تتلاطم خلال فترات طويلة من تاريخ المسلمين. وفي عهد حاكمية الدين نسبيّاً في الماضي وصلت حالة الأمن في الطرقات والمدن إلى الحد الذي تجوب فيه القوافل التجارية والعلمية العالم الإسلامي من الشرق إلى الغرب بحريّة كاملة، وكانت تتّصل البلاد ببعضها البعض من قرطبة إلى مصر وما وراء النهر وبغداد على خطّ واحد[2].

وكانت الرعاية الاجتماعية النسبيّة ورخص أسعار السلع من نتائج إدارة سلطة المسلمين والتطبيق الصحيح للقوانين والمراقبة القوية للقضاء.

ورد في تقرير من مصر قي القرن الرابع:

«**كانت دكاكين باعة الأقمشة والصيرفة وغيرهم حتّى الذهب والجواهر والنقد والقماش المزركش والمقصّب لا يجلس فيها أحد، ولم يكن أحد يخشى السلطان أو أعوانه وجواسيسه، بل كان رهانهم على عدل السلطان وأنه لا يُظلم أحد عنده وعلى عدم طمع الناس بمال الآخر**»[3].

في عهد آل بويه حيث كانت العلاقة قويّة بين الدين والحوزة وصل الأمن

(1) خاك وآدم، (آدم والتراب)، محمد علي جمالزادة، شركت سهامي افست. (مصدر فارسي).
(2) بازيكران كاخ سبز، (لاعبي القصر الأخضر)، باستاني باريزي /245،خرم. (مصدر فارسي).
(3) سفرنامة ناصر خسرو /96.

والسلام إلى أوجه وازدهرت الزراعة، وببركة وجود العلماء شُيّدت المستشفيات وكان الأطبّاء يعالجون الناس من الأمراض البدنية والنفسيّة بكلّ راحةٍ وطمأنينة.

«**في عهد عضد الدولة كانت بغداد آمنة وكانت الدولة تمهل الناس في دفع الضرائب، وألغت الضرائب عن قوافل الحجّاج، وعاش الناس في بحبوحة، ودعمت الدولة الفقراء والفقهاء والأدباء، وفي هذا المجال نذكر أنّ العلماء لم ينعموا يوماً كما شهدوا ذلك في عهد آل بويه**[1]، **وحفر الصاحب بن عبّاد الوزير العالم لآل بويه الأنفاق واستخرج المعادن واستخدمها في أعمال جميلة ومفيدة**»[2].

وسنّ الصاحب بن عبّاد قانوناً من أجل تهيئة فرص العمل للناس ومنعاً للبطالة وهجرة الأدمغة يقضي أنه في حال وجود أفراد من أهل الخبرة والكفاءة فإنه يتمّ توزيعهم على المواقع والمناصب المناسبة واللائقة بهم، ويمنع على أيّ عامل أن يمارس أكثر من عملٍ واحد ـ وبهذا قضى على إشكاليّة البطالة عند الفئة المتعلّمة[3]، وهذا القانون الإيجابي والمناسب كان مورد إعجاب مدراء وقادة كبار في الدول الأخرى، ومنهم الخواجة نظام الملك[4]، والذين كتبوا التاريخ قالوا إنه في عهد السلطان سنجر عاش الناس في ظلّ دولته 60 عاماً من الرعاية الاجتماعية، وفي ظلّ إعانة ونصرة العلماء أمثال أبي الحسن مديني[5] ووزارة أبي طاهر القميّ، ونال العلماء والناس ومحبّو أهل البيت ما يتمنّون من الدعم والمؤازرة[6].

(1) مجمع الآداب، ج1/414.
(2) تاريخ قم /47.
(3) روضة الأنوار عباسي /576.
(4) ديدار با أهل قلم، ج1/131.
(5) مجمع الآداب، ج5/340.
(6) كتاب النقض، عبد الجليل رازي، با تعليقات سيد جلال الدين ارموى /221 (يك جلدي)؛ الكامل في التاريخ، ج 10/464.

ورفع أبو جعفر باني عهد الصفاريين لواء العدالة، ومرّ الرحّالة العالم أبو دلف أثناء تجواله على بلاد سيستان وألقى دروساً في تلك الديار في شرائط الإقتصاد الناجح وجالس هناك العلماء أمثال أبي سليمان السجستاني وأبي تمام النيشابوري[1].

وكان ذكر العالم فخر الدين موصلي على كلّ لسان ببركة الجلسات المهمّة التي كان يقيمها مع العلماء أمثال ابن طقطقة الذي كان عالماً شيعيّاً وسياسيّاً لامعاً، وألّف كتاباً في التخطيط وإدارة الحكم للحكّام المسلمين.

خطة أساتذة الحوزات في أمن ورفاهية الناس في عهد المغول

أحدث غزو المغول للبلاد الإسلامية دماراً كبيراً تاركاً الكثير من القتلى والمشرّدين، وحوّل القرى والبلدات والمدن الإسلامية إلى خراب وأطلال، وسُفكت دماء الملايين من الناس بدون ذنبٍ أو جريرة، وشُرّد الناس وفقدت عائلات بأكملها تحت وطأة سيوف أولئك الوحوش مصّاصي دماء الشعوب والفاقدين للحدّ الأدنى من الأخلاق والإنسانية، وأضحت البلاد صحراء قاحلة.

كثيرون هم الذين تحدّثوا عن الأسباب والدوافع التي دفعت هؤلاء القوم للقيام بهذه الغارات الوحشيّة وسفكهم للدماء، هل أحضرهم أحد من بلاط العباسيين للقضاء على الإسماعيليين؟ أو أنّ السبب هو الهرج والمرج والانقسامات الداخلية وعدم وجود القوّة المركزيّة للدولة، بالإضافة إلى جور وظلم الحكّام وتحولهم إلى ملوك طوائف؟ أو أنّ هناك أسباباً عديدة ومتنوّعة تراكمت شيئاً فشيئاً حتّى أوصلت البلاد إلى هذه الفاجعة الإنسانية الكبرى؟

لكنّ المهمّ في الأمر أنّ كبار علماء الشيعة المعروفين بالعلم والكياسة والتدبير والعارفين بدورهم شقّوا طريق التغيير في صفوف هؤلاء المجرمين الذين كان

(1) دائرة المعارف بزرك اسلامي، ج5/269.

يمسك بزمامهم مجموعة من القتلة الفاقدين للإنسانية.

الخواجة نصير الدين الطوسيّ ومن خلال علمه وبصيرته واتكاله على الحقّ استطاع أن يبعث الحياة والأمل في هذه القلوب الصمّاء القاسية مما أثار تعجّب العقلاء آنذاك.

فبعد أن كان المغول كالسيل الهادر لا يأتون على شيءٍ إلا ويدمرونه ويكملون طريقهم أصبحت هذه الأمواج الهادرة بفضل الحكمة والوعي والتدبير والسير معهم خطوة بخطوة تهدأ شيئاً فشيئاً، ثمّ بدأوا بفرض بعض القيود والشرائط عليهم مما قّلل من تخريبهم البلاد وإرعابهم للناس، وظهر التشيع في وسط هذه الصحراء الواسعة يبني ويغير بصعوبة إلى أن ظهر عهدٌ جديد من التمدّن وتطهّرت الساحة من كلّ الفساد الذي أصابها.

وهذا الإنجاز الكبير لا يمكن قياسه وفهمه وإدراك أهميته وعلّوه إلى الحدّ الذي يمكن معه القول: لو أنّ الله لم ينعم على الإسلام والعالم الإسلامي وإيران بالخواجة نصير الدين الطوسيّ فإنه ليس واضحاً أيّ مصير سينتظر الإسلام وأيّ بلاءٍ سيحلّ به.

فعندما وصل المغول إلى مشارف أبواب مدينة بغداد نشروا الرعب في كلّ مكان، وراح الناس يركضون من جانبٍ إلى آخر بقلوبٍ يائسة وخائفة ومرتعبة يطلبون الأمن من أسياف هؤلاء القتلة وخناجرهم الفتّاكة.

وآلت المدينة إلى السقوط، وأثار بعض المقرّبين من الخليفة الشغب والضوضاء كالكاتب وأمثاله مما سرّع سقوط حكم عدّة قرون لبني العباس، ولم يقدّم أحد يد المساعدة للخليفة عن رغبةٍ أو حماسة حتّى أولئك المتضرّرين منهم، لاسيّما أنصار أهل بيت العصمة عليهم السلام، ولم يقم أولئك الغيارى بأيّ حركة مواجهة ضدّ المغول.

وبدأ الهجوم، وبدأ الخواجة نصير الدين عمله وتوعيته الناس، واستطاع في المواقع التي كان كلامه نافذاً ومسموعاً فيها أن يمنع الكثير من الدمار وقتل

الناس وسلبهم أموالهم كما منع نهب ثروة ثقافية كبيرة وساهم في تحرير الكثير من الأسرى الذين وقعوا بأيديهم.

نقلوا: أنه وقع في الأسر في أيدي المغول عزّ الدين عبد الحميد المعروف بابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة وأخوه موفّق الدين، وهما من كبار علماء أهل السّنة وتمّ نقلهما خارج بغداد ليتمّ تسليمهما إلى الجلاّد.

أصابت الوزير ابن العلقميّ الحيرة والاضطراب فذهب إلى الخواجة نصير الدين الطوسيّ وأوصل له الخبر، فذهب الخواجة إلى هولاكو وركع أمامه على ركبته على طريقة المغول وقال له: أقتلني أنا بدلاً من هذين الأسيرين، فما كان من هولاكو إلا أن احترم إرادة الخواجة وأطلق سراح الأسيرين[1].

ونُقل: أنه كان من عداد الأسرى السيّد محيي الدين البغدادي وهو أستاذ في المدرسة المستنصرية في بغداد، هذا السيّد كتب وحرّر ما فعله المغول، وبعدها جاء إلى مدرسة الخواجة في مدينة «**مراغة**» وتتلمذ على يديه، ثم عمل قاضياً بعد رجوعه إلى بغداد[2].

وكذلك نجت المدن العراقية الأخرى كالحلّة والكوفة وكربلاء والنجف بفضل معرفة العلماء ودرايتهم وذكائهم، فقد قام علماء الحلة، وحقناً لدماء الناس، بتقديم مجموعة من الاقتراحات أفضت إلى توقيع وثيقة مع المغول وقّعها السيّد مجد الدين داوودي والشيخ حسن المطهر الحلّي والد العلاّمة الحلّي قضت بإرسال اثنين من العلماء لإقامة المباحثات العلمية إلى بلاط المغول، وهذه المباحثات أبقت مدينة الحلّة بأمان[3].

وكذلك فإنّ مدينة كاشان ومحيطها بقيا بأمان من بطش المغول وغزواتهم

(1) همان/273.
(2) مجمع الآداب، ج5/108.
(3) نهج الحقّ وكشف الصدق، علامة حلي، مقدمة /32، مؤسّسة دار الهجرة، قم.

بفضل رعاية «**بابا أفضل كاشاني**» وهو صهر الخواجة نصير الدين[1].

وفي هذا الوسط كانت تُحكى وتُسمع الحكايات الكثيرة عن المغول وعن تدبير الخواجة وخدمته للناس.

«كانت قوّات المغول عندما تحتلّ أيّ منطقة فإنها تنتقل منها ولا تقيم فيها كسباً لاطمئنان الناس بكافّة طبقاتهم، وذات مرّة كانت مجموعة من المغول برئاسة أحد قادة المغول، وفي رواية أنه كان ابن هولاكو في طريقها من خطّ زوارة – أردستان متجهةً إلى مدينة يزد، أو أنها كانت عائدة من ذلك الطريق، وعندما وصلوا إلى «زوارة» وقفوا في محطّة استراحة داخل غابةٍ يقصدها الناس من الرجال والنساء للعمل والتنزّه، فوقعت عين القائد المغولي على امرأةٍ فوقع في حبّها على الفور وأراد أن يأخذها معه، لكن المرأة امتنعت منه فأراد أخذها بالقوّة، فما كان من أهالي زوارة –وكما يروي القصة سادات الطباطبائي– إلّا أن هبّوا للدفاع عن شرفهم وتعاركوا معه مما أدّى إلى نجاة المرأة وقُتل المغولي عن طريق الخطأ.

أُصيب أهالي «زوارة» بالخوف والاضطراب، وقاموا على الفور بتهيئة ما يحتاجونه من طعام ووسائل استعداداً لمحاصرة «زوارة»، وعندما وصلت قوّات المغول إلى قريتهم قادمةً من أصفهان أو من قريةٍ قريبة من زوارة طلباً للإقتصاص وللثأر لدماء القائد المقتول، طلب سادات الطباطبائي إحكام القبضة على أسوار المدينة حمايةً للناس، واستمرّت محاصرة القرية والمواجهة مع المغول مدةً طويلة إلى أن نفد الطعام وتهدّمت أسوار المدينة وبرجها وجدرانها وآلت المدينة إلى السقوط بيد المغول، فقام الأهالي قاصدين الخواجة نصير الدين طلباً للمساعدة والنجاة بأرواحهم من القتل الجماعيّ الحتميّ.

(1) طبقات أعلام الشيعة، ج3ق/20.

وكان الخواجة في ذلك الوقت يشغل منصب وزير أو متولّي كافّة أوقاف إيران، وكان أحمد بن رستم الأصفهاني وكيلاً عنه في مدينة «زوارة» في ذلك الحين، فأرسل إليه رسالةً للأهالي المحاصرين جاء فيها:

«في الأماكن التي لم يُقتل فيها أحد من المغول كان المغول يقتلون كلّ الناس، أمّا في مدينة زوارة فقد اجتمعت ثلاث جرائم: الثأر للشرف والتمرّد وقتل ابن الملك، وعليه فإنّ الحصار سيبقى قائماً وليس هناك أيّ أمل بالنجاة، وإنّ الجميع عرضة للذبح بشفرات سيوفهم بلا رحمة ليكونوا عبرةً للآخرين، وعليه فلا أمل بالنجاة من خلال المقاومة واستمرار التحصن كما لا أمل بتسليم أنفسهم وأبنائهم. وفي هذه الحالة ومن أجل الخروج من هذا الحصار فمن الأفضل حفر أنفاق طويلة باتجاه الصحراء، وأثناء الإنشغال بالقتال ليخرج الجميع على شكل مجموعات من الأنفاق ويفرّوا باتجاه الصحراء ويتفرقوا في أطراف العالم.

«وطبقاً لرأي الخواجة قام الناس بحفر نفق طويل من الجهة الشمالية لزوارة والتي لا تبعد كثيراً عن تلال ريكستان الحصباء المجاورة لهم، وقاموا أوّلاً بإرسال النساء ثمّ الأطفال ثمّ الشباب إلى الخارج ثم تفرّقوا في الصحراء كما أشار عليهم الخواجة نصير الدين»[1].

ثمّ إنّ علماء الدين الربّانيين لم يجلسوا على الأطلال المهدّمة للقرى والبلدات التي دمّرها المغول، ولم يتحوّلوا الى مشرّدين، بل كانوا يهبّون وبكلّ بطولة لإعادة البناء والإعمار مستفيدين حتى من قدرات مؤسّسات المغول.

ومن جانب آخر فإنهم بدأوا ببذل جهود واسعة في تعليم هؤلاء الوحشيين الذين لا علاقة لهم بالتمدّن والآداب والثقافة والسنن، ثقافة وآداب سكّان المدن

(1) مجلّة يغما، سال 9، شمارة 114/3.

وإرشادهم إلى تعاليم الشريعة الإسلامية السمحاء حتّى يشربوا جرعةً من معينها الصافي فيخرجون من طبيعتهم الدموية الى عالم الإنسانية.

ولا شكّ أنّ جهوداً جبّارة بُذلت في هذا المضمار حتى أينعت الثمار وقُطع لجام الوحشية منهم وتروّضوا واكتسبوا الثقافة والتمدّن الإسلاميّ من إيران.

وإنّ هذا التغيير الجذري والمعجزة الكبيرة إنما كانا بفضل الأيادي البيضاء والتدبير السليم للخواجة نصير الدين، ثم إنّ الخواجة نصير الدين الذي كان يتمتع باحترام رفيع لدى المغول بذل جهوداً كبيرة في الليل والنهار ضمن بعدين أساسيين:

1 - **الهداية المعنوية**

2 - **ترميم الدمار**

وعلى صعيد بُعد الهداية المعنوية ذكرنا نكات كثيرة أن الخواجة نصير الدين بفضل معرفته العميقة بكافة جوانب الإسلام وعلمه الواسع إضافةً الى ذكائه وحسن تدبيره ونظره الحادّ استطاع أن يتقدّم خطوةً خطوةً ليفتح فجوات من النور في تلك القلوب القاسية لهؤلاء القوم التعساء.

أمّا على صعيد النهضة العمرانية وترميم الدمار فإنه ومع مضي الوقت تحوّل هؤلاء القوم إلى أنصار الشعب الإيراني وأضحوا جزءاً من عائلاتهم وركعوا أمام نوافذ النور المشع وراحوا يتفرجون على دنيا الإسلام الجميلة والعالية.

وتغلّبت إيران على تلك الصدمة النفسية التي أصابتها واتجهت نحو ترميم الدمار وإصلاح قنوات الريّ وتحسين الزراعة والصناعات اليدوية وإدخالها مجال العمل من جديد.

وكان علماء الدين هم روّاد هذه النهضة وبالخصوص الخواجة نصير الدين الطوسيّ، وكانت الخطوة الأولى التي قام الخواجة بها هي إرجاع المهجّرين والمشرّدين إلى مدنهم وديارهم، واستفاد الخواجة من الخبراء والعقلاء في عملية إرجاع المشرّدين إلى قراهم وديارهم ومن جملتهم العالم الحكيم فخر

الدين لقمان الذي أوكل الخواجة إليه مهمّة إرجاع الناس من الصحراء إلى أرض الآباء والأجداد[1].

وكان سادة مدينة «زوارة» من جملة الذين عادوا من التشرّد، سواء من مناطق قريبة أو بعيدة، إلى أرض الآباء والأجداد، وهؤلاء أصبحوا بعد رجوعهم وجهاً لوجه في مقابل أولئك الذين استولوا على منازلهم وتصرّفوا بأملاكهم أثناء غيابهم، وبالتالي فقد وقعت بعض النزاعات بين سادة «زوارة» الذين هم أصحاب الأرض وبين بعض المهاجرين إليها حول المياه والأراضي. وقد ورد في تقرير أُرسل للخواجة بناءً على رواية محلية:

أثناء سفر الخواجة من «**مراغة**» إلى «**زوارة**» لتنظيم عملية تقسيم المياه والأملاك وصل إلى قصبة اردستان من أجل تقسيم مياه قنوات «**أرونه**» وهي مقسم المياه لبعض القرى القريبة والبعيدة التي تستفيد من مائها، فقام بهندسة وتنظيم ما بقي من نصيب «**أرونه**» من المياه ثم أتمّ عمل كافّة التفاصيل الصغيرة والتي هي في غاية الدقّة والحساسية، ومن هناك رجع الى آذربايجان[2].

وفي عهد حكومة (غازان) والتي كان يسيطر عليها العلماء تمَّ الكثير من الإصلاحات المهمّة في البلاد، لا سيّما على صعيد انتشار الأمن السياسي الاقتصادي كأمن الطرقات ومواجهة الفساد الإداري والفسق والحفاظ على ثقة السوق بين المسؤولين الحكوميين والناس.

وفي هذا العهد شجّعت الدولة الناس على استصلاح الأراضي البور وغير المستصلحة لإحيائها، وقدّمت لهم تسهيلات بهذا الخصوص: أخذ قروض، حرية بيع الإنتاج، و.... وكان لهذه الخطوة أثرٌ كبيرٌ في تحسين الزراعة، وكتبوا عن هذا الأمر:

(1) مجمع الآداب، ج3/111.
(2) مجلة يغما، سال 9، شمارة 3/114.

«بعد صدور هذا الحكم قام الجميع من العوامّ والخواصّ بزراعة الأراضي البور، وبعد فترة قصيرة أصبحت الكثير من هذه الأراضي مستصلحة ومأهولة ونَعِم الناس بالرعاية الاجتماعية واليسر وأصبحت النعم أكثر من أن تُحصى»[1].

وفي عهد السلطان «**محمّد خدا بنده**» أصبحت الشرائط أكثر سهولة، والذي كان محبّاً للعلم وكان يجالس العلماء وكانوا بدورهم يدعونه إلى الإسلام وتطبيق أحكامه، تمّ إصلاح الكثير من الدمار من خلال دعم علماء الدين للحكومة وتولّيهم لبعض المناصب كالوزارة وإمامة الجمعة ورئاسة الأوقاف و....تمّ في هذا العهد إنشاء مدارس مهمّة وعمّت الزراعة كافّة المدن، وأنشأ الأنهار وأجرى المياه فيها وازدهرت بغداد بالتمور والخضار وأصبحت واحة غنّاء، وعاش الناس في هدوء ورفاهية وكانوا يرغبون ببقاء دولته[2].

وفي عهد وزارة «**رشيد الدين فضل الله**» الذي كان عالماً ومحبّاً للعلم إزدهرت تبريز وأضحت جنة غنّاء وسوقاً للاقتصاد والثقافة، وأوكل إعمار منطقة زنجان إلى «**كمال الدين قوساني**» الذي كان عاشقاً للعلم ومفكّراً فذّاً وخبيراً في الأمور الزراعية وإدارة الشؤون الإجتماعية[3].

وكذلك كان الناس ينعمون بالراحة والرعاية الاجتماعية في المناطق الأخرى التي كانت تحت رقابة وإدارة العلماء الأقوياء.

وممّا كتبوا عن طريقة وأسلوب ابن القوام أحد علماء الشام الأتقياء (توفي: 658):

«كان أبو بكر رجلاً زاهداً وكان مهتمّاً بموضوع المصالحة العامّة بين

(1) تاريخ حبيب السير، ج 3/177.
(2) مجمع الآداب، ج 2/432.
(3) همان، ج 4 /249.

الناس، وعمل بيديه من أجل إنشاء نهر جديد في (بالس)، فقام مع جمعٍ من أتباعه بحفر القناة والقيام بكافّة الأعمال اللازمة لذلك، وكان يعتبر أنّ العمل وتحصيل المال واجبٌ على كلّ المؤمنين والسالكين طريق الله، كما أنه كان يعتبر أنّ البطالة أمرٌ قبيح وغير مقبول[1]».

وبعد استقرار عهد حكومة «**سربداران**» (وهم مجموعة من الفدائيين الذين قاموا بحركة ثورية ضد النظام وحكموا فترة ثمّ تمّ سجنهم وإعدامهم بعد ذلك) في خراسان التي كانت تزاوج بين الدين والدولة سعت الدولة للقيام بإصلاحات اجتماعية وتحسين الزراعة والعمران، وأنشأ الخواجة «**علي جشمي**» (توفي: 749) مؤسّسة عسكرية للحفاظ على أمن المجتمع، وكانت الضرائب تجبى بطريقة منظّمة بعيداً عن الهرج والمرج، وأقفل طرق الإستفادة غير المشروعة وموارد الفساد والسرقة، وأوجد نوعاً من الثقة والإطمئنان بين المسؤولين والناس، وتطورت صناعات البضائع المحلية وتمّ دعم ترويجها. وفي هذا الخصوص كتب المؤرخون:

«وكانت الرعية تعيش بحال من الرعاية الاجتماعية والإكتفاء الذاتي لمتطلّبات الحياة وكانت الخزائن عامرة بالأموال...[2]».

وفي عهد حكومة «**علي المؤيد**» أولى الرعاية الاجتماعية قيمةً خاصة، وكان يستنير بآراء العلماء وأثمرت سياساته الاقتصادية والاجتماعية أمناً ورفاهية للعموم.

وفي عهد السلطان «**حسين بايقراء**» وضع العلماء المؤثّرون والعاملون بفعالية تصميماً لإعمار خراسان.

ومن عرفاء القرن التاسع كان الخواجة «**أحرار**»، الذي كان يعيش حياةً بسيطة

(1) دائرة المعارف بزرك اسلامي، ج242/5، با تلخيص.

(2) قيام شيعي سربداران، (ثورة الفدائيين الشيعة)، يعقوب آزند/167، نشر كستره. (مصدر فارسي).

وعادية وكان لا يحبّ الإسراف والتكلّف في التجمل، وكان لا يجيز لنفسه أن يغدق العطاء على أقربائه والمقرّبين منه، وكان من أهل الشجاعة والإقدام، عمل مع محبيه في ميدان الزراعة لكسب معاشه وبذل جهوداً في استصلاح الأراضي وزراعتها إلى أن استصلح ما يقارب ألف وثلاثمائة مزرعة ووفّر فرص عمل لآلاف الأشخاص.

وكان «**أبو سعيد كوركان**» يقوم بجباية الضرائب من سمرقند وبخارى بطلبٍ من الخواجة، وفيما بعد من كافّة بلاد ما وراء النهر[1]، وفي عهد الصفويّين كان الرفاه والأمن والهدوء في إيران تفوق كافّة الأطراف الأخرى، مع أنّ بعض أعمال الملوك لم تكن تحظى بتأييد وموافقة علماء الدين، إلّا أنّ ضرورة المحافظة على كيانية الدين والتشيّع ونشر العدالة الاجتماعية جعلا الحوزات تساهم بمساعدة الحكّام ومنع الظلم والتعدّي قدر استطاعتها، وساهمت في توعية رجال السلطة وإيصالهم إلى ربوع الإيمان والتديّن، وفي عهد الصفويّيين كان الحكّام أقرب من الدين والعلماء، وكانوا أكثر محبةً لخدمة الناس وأكثر نجاحاً في توفير الرعاية الاجتماعية لهم.

وكان الشيخ «**عبّاس الصفويّ**» الذي تربطه محبة وأنس خاص بالشيخ بهاء الدين العامليّ مثالاً في مساعدة المحتاجين، فكان يتنكّر ويدخل وسط الناس ويستمع إلى مشاكلهم وأوجاعهم، وكان يُشجّع أصحاب الثروات أن يساعدوا الفقراء لتحسين أحوالهم الماليّة، ومن خلال تخطيطه وتدبيره أحيا إيران وصنع التمدّن في كافّة أرجائها.

وعن سيرته كتب شاردن:

«**في آخر أيّام حياته كانت إيران تنعم بالثروة والعمران والأمن، وكانت**

(1) دائرة المعارف بزرك اسلامي، ج 656/6.

التجارة ناشطة على كافّة الحدود مع الممالك الأخرى. وكان الناس ينعمون بأفضل العيش من طعامٍ وشراب ولباس ووسائل الحياة المختلفة في كافّة أرجاء إيران. ففي الوقت الذي كان أكثر من نصف سكّان بلدنا (فرنسا) يعانون من البطالة كانت أفقر نساء إيران تضع الزينة والحليّ في أيديهنّ وأرجلهنّ، وتُشاهد القطع الذهبية الكبيرة حول أعناقهنّ. وباعتقادي أننا نجافي الحقيقة والإنصاف إذا قلنا إنّ حكومة إيران كانت حكومة استبدادية وبعيدة عن التمدّن[1].

وبشهادة السوّاح والمتجوّلين فإنّ الأمن والاستقرار في ذلك العهد كان لا نظير لهما، وكانت مسؤوليّة الحفاظ على الأمن والمنع من قطع الطرقات في المدن والبلدات على عهدة العمّال، ولهم الحقّ في توقيف الناس واستنطاقهم والتحقيق معهم، وكان العسكر يقومون بحماية أموال الناس في معسكرات خاصّة وفق التدريب العسكريّ والتربية الروحيّة لعلماء الدين، وتحت إشراف القضاء والمحاكم العسكريّة.

جاء في تقرير كتبه أحد الرحّالة في معرض المقارنة بين الجنود الإيرانيّين والأوروبيّين في المعسكرات:

«**على خلاف الشعوب الأوروبيّة كان جنود الملك يتمتّعون بالمبادئ النبيلة والأخلاق الرفيعة بحيث إذا مرّت فرقة من الجيش من أمام الناس فإنهم لا يفرّون منها بل يقبلون بكل بشاشة ويجلبون لهم الطعام والهدايا المختلفة، ويسألون الله النصر لهم بكلّ رضىً وسرور، وما ذلك إلّا لأنهم كانوا يعلمون أنّ جنود الملك لا يعتدون ولا يظلمون أحداً**[2].

(1) زندكى شاه عباس اول، نصر الله فلسفى، ج3 /260.
(2) همان /242.

وإضافةً إلى الأمن الإجتماعي الذي كان ركناً من أركان تقوية التجارة والسياحة فقد كانت الزراعة في صدارة الاهتمامات، فأُقيمت السدود الكبيرة والغابات الواسعة بفضل جهود العلماء أمثال الشيخ البهائيّ، ونقرأ على صعيد إعادة إحياء منابع الأنهار من أجل إعمار وتأهيل مدينة أصفهان:

«كان تقسيم المياه والإستفادة منها من أهمّ الأعمال التي تمّت وفق الأصول العلمية والقواعد الطبيعية لحركة المياه، وكان تقسيم مياه الأنهار المستحدثة عملاً نموذجيّاً وراقياً والذي ابتدأ من أيام الملك «طهماسب» واستُكمل في أيام الملك عبّاس الصفويّ وفق النظريات العلمية للشيخ البهائيّ»[1].

وكان العلماء يشرفون مباشرةً على نظام المحاكم وتنفيذ قوانين العدالة الاجتماعية وتطبيق أحكام الإسلام بقوّة، ويعاقبون العاملين الذين يتجاوزون القوانين والقضاة المرتشين بقسوة.

سفراء الفكر وفكر السفراء

كانت الدول الإسلامية تنتخب سفراءها والمتحدّثين الرسميين باسمها من العلماء أهل العلم والفضل والحكمة وذلك للحفاظ على أمنها وقدراتها في مواجهة الأجانب، وكان هؤلاء العلماء يحظون بمقامات عالية بحيث يقومون بحلّ الخلافات الواقعة بين الحكّام المسلمين ويشدّون أواصر اللحمة بينهم ويقفون موقف الثابت المقتدر في مقابل الأجانب. وكانت العلاقة قويّة ومتينة مع الحكّام المسلمين بفضل بركة وجود العلماء الأذكياء والمعروفين وخصوصاً بين دولة آل بويه الشيعية ودولة السامانيين السنيّة الحنفية[2]. وكذلك فإنّ العلاقة بالروم قامت على مبدأ الإحترام وعدم التعرّض لكرامات الآخر.

(1) سياست و اقتصاد عصر صفوي، (السياسة والاقتصاد في العصر الصفوي)، باستاني باريزي / 63، صفي علي شاه. (مصدر فارسي).

(2) آل بويه، (البويهيّون)، على اصغر فقيهى /202، صبا، به نقل از تجارب الامم، ابن مسكويه، ج 6 /312.

وكان «**أبو أحمد الموسويّ**» (400 هـ) نائباً عن السادات في زمن آل بويه، وكان من أرفع قيادات الشيعة على المستوى الدينيّ والسياسيّ، وكان معتمداً لتنظيم العلاقة والتواصل بين آل بويه والحمدانيين، وأنجز مهمّات جليلة على هذا الصعيد.

وكان «**أبو أحمد**» يملك نفوذاً وتأثيراً قويّاً أيام قوّة الخلافة في بغداد، وكان الخلفاء يستفيدون منه لإطفاء سعير الفتنة بين الشيعة والسنّة[1].

واستفاد عضد الدولة من مكانة القاضي «**أبو بكر الباقلاني**» في السفارات الخارجية فقد كان عالماً وأديباً ومتحدّثاً وذكيّاً، واستطاع حماية مصالح الدولة الإسلامية في مقابل الأجانب.

كتب ابن عبري عن أحداث سنة 371 هـ:

«**في هذه السنة أرسل عضد الدولة القاضي أبا بكر الباقلّاني سفيراً إلى بلاد الروم، وهناك أشاروا على القاضي أنه يجب أن تنحني وتُقبّل الأرض بحضور القيصر، لكنّ القاضي رفض ذلك، فأمر القيصر بتقصير باب الدخول حتى ينحني القاضي اضطراراً عند دخوله وبالتالي فإنه يُعظّم القيصر قهراً، لكنّ القاضي فهم الأمر فأدار ظهره للباب وانحنى بعكس باب الدخول ودخل الى القاعة متراجعاً، ولما أصبح داخل القاعة أدار وجهه للقيصر ومشى إليه مباشرةً**»[2].

وأجرى «**عز الدين الحسيني**» لقاءات مع أمراء المسلمين ممثلاً السلطان «**سنجر**» السلجوقيّ الذي كان يجلّ أهل العلم من السفراء ويحترمهم، والذين أقاموا له علاقات جيدة وحميمة مع الجيران. وفي عهد المغول استفادت الدولة من العلماء الواعين وأهل النظر السديد للحدّ من سفك الدماء وكانت تعتمد

(1) الدرجات الرفيعة، سيد علي خان شيرازي /458؛ دائرة المعارف بزرك اسلامي، ج/1537.
(2) تاريخ مختصر الدول، ابن عبرى، ترجمة دكتر تاج بور و دكتر رياضى /64، مؤسسة اطلاعات.

عليهم في إقامة الوساطات وإيصال الرسائل في القضايا السياسيّة والأمور المتعلّقة بالحرب.

ومن باب المثال جاء في أحد التقارير عن جهود السيّد «**تاج الدين جعفر**» (700) وهو من العلماء الأتقياء والمحبوبين في شيراز:

«إن الله تعالى دفع بلاء الأعداء عن هذه المدينة بفضل يمن وبركة ودعاء هذا السيّد الجليل، وإنّ بقاء رؤوس الحكّام مرفوعة إنما كان بفضل تميّزه وحسن معاملته، فقد كان من عادته وخصاله أنه إذا رأى قتالاً في أيّ مكان أن يبادر إلى الإصلاح بين الطرفين وكان يُقابل الإساءة والإهانة بالرأفة والحِلم»[1].

وفي القرن التاسع كان الخواجة «**أحرار**» يملك نفوذاً اجتماعيّاً وعرفانيّاً في بلاد ما وراء النهر، وامتلك مكانة خاصّة عند رجال السلطة الذين كانوا لا يرون مناصاً من الامتثال لقراراته وأوامره، وأعطته هذه المكانة الدينية فرصة القيام بدور الوسيط للحدّ من الخلافات بين الطوائف والدول.

وفي سنة 890 وفي أيام حكومة «**أبو سعيد كوركان**» وعندما أراد جيش المغول دخول سمرقند قام الخواجة ووقف في الميدان وأجرى معهم حوارات طويلة ساهمت في نجاة المدينة من القتل والدمار، وأفضت وساطته إلى منع الجيش المغوليّ من دخول المدينة[2].

وفي العهد الصفوي كان العلماء الحكماء الممثّلون الرسميّون للدول الاسلاميّة سبباً في شموخ هذه الدول وعزّتها، ووضعوا حدّاً ونهاية موفّقة للكثير من النزاعات القائمة.

---

(1) تذكرة هزار مزار، (ذكريات ألف مزار)، ترجمة شدالازار، عيسى بن جنيد شيرازي، تصحيح دكتر نوراني وصال/230، كتابخانه احمدي.

(2) دائرة المعارف بزرك اسلامي، ج6/656.

وقام أبو سعيد الأصفهانيّ والشيخ محبّ الدين، وهما من العلماء الأتقياء، بتمثيل الملك إسماعيل في البلاد الأخرى، وأجروا محادثات وحوارات مع قادة هذه الحكومات[1]. وفي هذا السياق وفي سنة 1020 في عهد الملك عبّاس، قام القاضي السيفي بزيارة اسطنبول لوضع حدّ لبعض الخلافات القائمة بين إيران والعثمانيين، وفي هذا السفر كان بصحبة القاضي السيفي القاضي معزّ الأصفهانيّ ومولانا السلطان حسين والقاضي المؤمن والحكيم عبدي من العلماء المرموقين، بالإضافة لأكثر من مئة شخص من أهل الخبرة والمعرفة، وكان الهدف:

إنّ زعماء الحوزات الدينية يؤكّدون أننا مأمورون بحفظ الثغور وصيانة أوضاع المسلمين استناداً إلى هدي الشريعة الغرّاء ومنهج الأمّة الوسط الذي هدانا الله إليه، ولذلك ورد في إحدى الموادّ التي اتفق عليها الطرفان على ضرورة العمل لإنهاء التخاصم والتنازع وإصلاح ذات البين، وتقوية الإسلام وكسر لواء الكفر والظلام ورفاهيّة أوضاع المسلمين وفق مقتضيات الشرع[2].

وهذه الهيئة حملت للخليفة العثمانيّ الهدايا النفيسة والتقت به، وقامت بجولات طويلة من المباحثات والحوارات تناول فيها الطرفان شتّى المسائل الخلافية بين الشيعة والسنّة وتبديد سوء التفاهم القائم بينهما،كما دارت حوارات حول المسائل السياسيّة والجغرافية بين البلدين اتفق الطرفان على قرار المصالحة التامّة ووضع هذا القرار موضع التنفيذ، وعاد الوفد إلى دياره مكلّلاً بالنجاح.

وقام العلماء بدور الوسطاء بين سلاطين الدولة العثمانية وبينهم وبين القاجاريّين من خلال اللياقات السياسية والعسكريّة التي يتمتّعون بها، واستطاعت عائلة كاشف الغِطاء من خلال المكانة المرموقة التي تتمتّع بها عند السلاطين

(1) لغت نامه دهخدا، ج1/689؛ج10/15200.

(2) تاريخ عالم آراى عباسى، اسكندر بيك منشى، تصحيح دكتر محمد اسماعيل رضواني، ج2/1403، دنياي كتاب. (مصدر فارسي).

العثمانيين والإيرانيين من حقن دماء المسلمين، وإنهاء الحصار عن بعض المدن، وإقرار الصلح والسلم والأخوة بين المسلمين[1].

الحوزة والتمدّن الحديث

قيل: إنّ التاريخ بيّن الدور الفاعل للحوزات وعلماء الدين في صناعة التمدّن في ميادين مختلفة من العلم والثقافة والاقتصاد، وفي ساحات صراع متنوّعة قدّموا فيها للمجتمع أفضل الخطط وأرقاها وأكثر بيانات العمل قوّةً وإحكاماً.

ويمكن القول إنّ قافلة المدنية المفعمة بالسلام والمحبة والأخوّة والمعنويّات العالية لم تكن لتشهد النور لولا جهود علماء الدين والحوزات وقيادتهم لهذه المسيرة، وقدرتهم على مواصلة تحرّكهم في وجه الحركات والتيّارات المناهضة للمدنية بدون عوائق مهمّة تُذكر.

في العقدين الأخيرين كان بعض أتباع البلاط القاجاريّ وبعض أتباع البلاط البهلويّ يعزفون على هذه النغمة: إنّ الأنظمة والقوانين الدينية وتدخّل المتحدثين باسم المذهب في الشؤون الاجتماعية هي التي منعت شيئاً فشيئاً من حركة التمدّن الصناعيّ إلى بلادنا، وبالتالي فإنّ علماء الدين هم الذين منعونا من الاستفادة من تجارب الغرب من خلال فتاوى تحريم الاستفادة من إنجازات الغرب واختراعاته.

وبكلمةٍ أخرى فإنّ إعراض الناس عن ثقافة الأجنبيّ كان سبباً في حرمان هذه الشعوب من الالتحاق بركب العلم والمعرفة[2].

وفي الإجابة نقول: أين خالف علماء الدين أيّ إنجاز صناعيّ أو بشريّ مفيد للآخرين؟ وتحت أيّ أصل من أصول الدين تندرج تحريمات علماء الدين وفضلاء الحوزات الدينية؟ وكيف كانت الحوزة على مستوى العلوم والمعارف الصناعية الحديثة؟

(1) معارف الرجال، محمد حرز الدين، ج1/151، انتشارات كتابخانه آيت الله مرعشي.

(2) دورة مختصر تاريخ فرهنك ايران، (مختصر تاريخ الثقافة في إيران)، عيسى صديق /137، آثين نكارش، سال سوم دبيرستان، 103، سال 1354. (مصدر فارسي).

في الماضي وحتّى أوائل العهد القاجاريّ كانت العلوم التي هي مورد حاجة الناس تدرّس في الحوزة على أنها واجب كفائيّ، وتخرّج من الحوزات أهمّ علماء الرياضيّات والفقهاء والحكماء، وكان العلماء يؤكّدون في كتبهم وفي أحاديثهم مع الناس على ضرورة العمل وبذل الجهود من أجل الوصول إلى الإكتفاء الذاتيّ على المستوى السياسيّ والاقتصاديّ، وكانوا يلقون اللوم على أهل البطالة وأهل الجمود الفكريّ.

ومن باب المثال فإنّ الملا أحمد النراقي، وهو من حكماء وعرفاء العهد القاجاريّ، لم يكن الوحيد الذي كان يعمل بكلّ وعي وعقلانية في سبيل الله وتكامل الإنسان، ولم يكن ليمنع أحداً من الاستفادة الصحيحة من إنجازات الآخرين، بل قام بحركةٍ وبذل جهوداً كبيرة كانت محلّ تقدير وثناء من أجل استقلال البلاد والاستغناء عن الآخرين. وكان له مواجهات رائعة مع الأعداء في ميادين العمل الجماعيّ والحياة الجماعيّة وتذليل الصعاب وحلّ المشاكل الاجتماعيّة.

«الإنسان وبحسب تكوينه مدنيّ بطبعه، وعليه أن يعمل ويسعى لتحصيل قوت يومه ووسائل حياته، كما أنه عليه أن يعيش في مجتمع ليتمكّن من مواجهة الأعداء ويوفّر لنفسه الغذاء والدواء والمسكن، ومن الطبيعيّ أن يتعرّض أيّ إنسان، خلال عمله، لمشاكل اجتماعية، وأن يتّكل على الآخرين لحلّها، وهذا ما يدفع المجتمع نحو التقدّم والرقيّ[1].

ومثل هذا الشخص لا يمكن أن نعتبره معارضاً لرقيّ المجتمع وتكامله، فإنّ أمثال الملّا أحمد النراقي لم يقبلوا أن تكون الحضارة هي تعطيل القدرات المحلّية والاهتمام بالقدرات الأجنبيّة، ولا يقدّم أيّ إمكانات لدفع العمل الفرديّ والجماعيّ داخل البلاد، ويصرف نظره عن الابتكارات والاختراعات المحلّية، بل ويطلب من

(1) سيف الامة، ملا احمد نراقي /42، جاب سنكي 1330.

الآخرين أن يسبّبوا لهم المشاكل والتعقيدات.

ومثال آخر: السيّد محمّد الطباطبائيّ، وهو من تلامذة الميرزا الشيرازيّ كان يُحفّز الناس ويدفعهم لمواكبة العصر والاستفادة من الابتكارات البشرية والاكتشافات الحديثة التي دخلت دنيا الوجود، وكان يُشجّع الطلاب على تعلّم اللغات الأجنبيّة والاطّلاع على الحقوق الدوليّة، وقد أسّس مدرسةً لتدريس أساليب التعليم الحديثة عام 1317 هـ.ق[1].

وفي الفترة التي سبقت وعاصرت زمان المشروطة فإنّ هناك المئات من الرسائل العلمية التي كتبها أهل الحوزات حول ضرورة الرجوع إلى التمدّن الإسلاميّ، وبقيت حوزتا إيران والنجف متمسّكتين بمواكبة العلوم الدينية لاحتياجات الإنسان الحديثة[2] ودراسة العلل والأسباب التي أدّت إلى التخلّف السياسيّ والاقتصاديّ عن العالم الغربيّ، وكان أعلام الحوزة من خلال توجيهاتهم وإشاراتهم يدفعون المجتمع للحاق بركب التقدّم الصناعيّ للبشريّة.

وقبل ذلك كلّه كان مشروع دار الفنون الذي طرحته الحوزة العلمية والذي قدّمه العالم بالفنون وتلميذ صاحب الجواهر الشيخ علي الاسترآبادي إلى الدولة لكي تتبنّى هذا المشروع وتقوم بإنشائه، لكنّ الدولة رفضت المشروع[3]، وقلّصت التجاوب مع هذا النوع من المشاريع الواردة من الحوزة، وكان لذلك التأثير بل السبب المباشر لفصل العلوم الشرعيّة عن العلوم التطبيقيّة، والذي أوصل الأمور في النهاية إلى أنه بدل أن يكون هذان العلمان سبباً لنهضة المجتمع وقوّته فإنّ إنفصالهما كان سبباً لركود المجتمع وتراجعه وعدم توفر الأمور اللازمة والضروريّة فيه.

(1) تاريخ بيداري ايرانيان، ج1/448.
(2) الذريعة، آقا بزرك تهراني، ج4/433؛ج8/292.
(3) تاريخ بيداري ايرانيان، ج1/148.

وأقبل العلماء شيئاً فشيئاً ليكونوا طلائع الصناعات الحديثة، وفي هذا السياق نذكر مشاريع الحاجّ «**ملّا صادق**» أحد مجتهدي قمّ المقدّسة لتوسيع شبكة سكة الحديد بين طهران وقمّ وإحياء الأراضي الميتة وتشجير الصحارى وترخيص أسعار البضائع وإيجاد فرص عمل للعاطلين عن العمل والذي يُعدّ ذلك كلّه من أعماله وآثاره.

وأعلن علماء تبريز ومشهد عن استعدادهم للمساعدة في توسعة شبكة سكك الحديد[1]، وتمّ إنشاء أوّل مصنع على يد شخصٍ من أهل الدين والإلتزام، صديق العلماء وأنيسهم وصاحب الهمّة العالية المدعو الحاجّ «**محمّد حسين الأصفهاني**»، ومما يجدر ذكره أنّ السيّد «**جمال الدين**» كان نزيلاً في ضيافته في تلك الأثناء.

وكان له الفضل بطباعة الطبعة الأولى من كتاب بحار الأنوار للعلّامة المجلسيّ، وكان من أوائل الذين عملوا بجدّ لإنشاء أوّل مصنع في طهران، وتمّ على يديه إنجاز صناعة الزجاج والحرير والصناعات الصينية وتأمين الكهرباء لمدينة طهران[2].

أمّا سرّ التحريم

أمّا أسباب تحريم بعض البضائع الأوروبية التي أطلقها علماء وفضلاء الحوزة في العهد القاجاريّ فإنه لا يرجع إلى الرفض الأعمى أو التعلّق بالأمور القديمة والمواجهة العلنية مع الأشياء الجديدة، وإنما له بعده وأفقه الأعلى ويكمن في النظرة السوداء وسوء الظنّ تجاه التمدّن الغربي، ففي الواقع إنّ الإنتشار الواسع لبيع وشراء هذه البضائع الأجنبية يمثّل مواجهة لهذا الإستعمار وآثاره المدمّرة، ومواجهة ثقافة هذا الاستعمار من خلال دخول هذه البضائع إلى مجتمعاتنا.

(1) انديشه ترقي و حكومت قانون، (الترقي الفكري وحكومة القانون)، فريدون آدميت /159، خوارزمي، تهران. (مصدر فارسي).
(2) لغت نامه دهخدا، ج3/3412.

ثمّ إنّ علاقة الغرب بالإسلام وإيران كانت دائماً من خلال سعي هذه الدول لتحصيل امتيازات خاصّة لهم، واللهث خلف استغلال الشعوب والسيطرة الاقتصادية وتدمير القيم وإجراء عقود الكسب والترويج غير المشروط.

ورغم الزيارات المتكرّرة للعلماء الإيرانيين إلى أوروبا فإنّ الاستفادة من ميدان الصناعة كانت قليلة ولم تحقق أيّ إنجاز يُذكر، وما ذلك إلّا للوصول في النهاية إلى الإنجذاب إلى الفكر الغربيّ الساطع، وليصبح الغرب مركز الاطّلاع والمعرفة وحامل لوائها في المجتمع، وبالتالي فيكون أقوى على نقل أفكاره العلمانية والثقافات المبتذلة والإلحادية إلى إيران[1].

وكان العالم الجليل والواسع الاطّلاع السيّد «**جمال الدين**» من الذين رأوا الغرب وتعرّفوا على أعماله عن قرب والذي يعتبر – مع الاحترام الشديد لبعض الابتكارات – أنّ ثقافة الغربيين هي التوحّش، وأنّ الإنسان الغربي إنسان لا يعرف القيود ولا يحمل أيّ ثقافة، وأنّ قدرته ونفوذه في القضاء على الشعوب الأخرى واتساع رقعة الفقر والبؤس عند الآخرين ونهب ثرواتهم وذلك لبناء المدن الكبرى والبنايات العالية والقصور المزخرفة التي لا نظير لها وتوفير رفاهية عالية لشعوبهم.

إنّ الإنسان الغربيّ جلب الويلات الكبرى وارتكب جنايات مفجعة بحقّ الآخرين تحت لواء الحريّة والحضارة والصداقة:

«إذا أخذنا كافّة إبتكارات البشرية العلمية وكافّة محاسن التمدّن الموجودة اليوم عند أهل التمدّن وضاعفناها أضعافاً ووضعناها في كفّة ميزان ووضعنا في الكفة الأخرى كلّ الخراب والدمار والحروب التي سبَّبها التمدّن سنرى أنّ الكفّة الثانية ترجح على كفّة التمدّن، وفي هذه الحالة فإنّ التمدّن لم يجلب إلّا الجهل والفقر والتخلّف والنهاية المتوحّشة للإنسان، وعليه فإنّ هذا التمدّن

(1) دين ودولة در ايران، حامد الكار، ترجمة أبي القاسم سرى/263، توس.

جعل الإنسان أسوأ حالاً من الحيوان»[1].

وإضافةً إلى أخطار وآفات ثقافة الحضارة الغربية يأتي دخول البضائع الأجنبيّة من طرفٍ واحد إلى بلادنا بدون تصدير البضائع الإيرانية، ممّا سبّب ركوداً في سوق الصناعات الداخلية، ثمّ إنّ امتلاء الأسواق بالبضائع الأوروبية ساهم في إفلاس مصانع الأقمشة والنسيج وبالتالي ذهاب الشباب غير العاملين للعمل في الشركات الأجنبية وانتقال العملة الإيرانية إلى جيوب أصحابها، وعندما رأى العلماء نافذو البصر هذه الآثار الاقتصادية السيّئة عقدوا جلسةً للتباحث في الأمر، ولمّا لم تفضِ الوسائل الإيجابية إلى نتيجة عمد هؤلاء العلماء إلى الإستفادة من سلاح الوسائل السلبية.

كتب الميرزا الشيرازيّ في جواب استفتاء الشيخ فضل الله النوريّ حول البضائع المستوردة وذلك قبل ثلاث سنوات من قضيّة التنباك:

هذا المورد المذكور هو من باب السياسات والمصالح العامّة، والتكليف في هذا الباب بعهدة أهل النفوذ والقدرة من المسلمين الذين ينبغي عليهم سدّ احتياجات الناس بكلّ عزمٍ وقوّة وتهيئة كلّ ما يحتاجونه، لكنّ ما نرجوه اليوم هو ترك هذه الأمور التي لا تناسب أهل هذا الزمان والتي أصبحت عادةً عبر الأزمنة المتعاقبة، وأن يمنع الحاكم نفسه ورعيته من تملك مادّة السكّر وغيرها من الموادّ. (كانت مادّة السكّر تُستورد من الخارج)

وكان تحريم التنباك أهمّ فتاوى التحريم، ومنشأ الفتوى أنّ شركة أجنبية حصرت بيع وشراء التنباك في إيران بها، ثمّ اتسع هذا الحصر ليشمل سوق الهند الشرقيّة بهذه الشركة الأجنبية، والتي كانت تعمل على تحقيق مجموعة من الأهداف الثقافيّة والسياسيّة تحت لواء التجارة، فالتفت الميرزا الشيرازيّ

(1) بيشكامان مسلمان تجدد كرائي در عصر جديد، (طلائع المجددين المسلمين في العصر الجديد)، اشكورى /102، علمي وفرهنكي. (مصدر فارسي).

إلى خطورة سيطرة هذه الشركة الأجنبيّة على الاقتصاد الإيرانيّ وأصدر فتواه بتحريم بيع وشراء واستعمال التنباك.

أثارت هذه الفتوى الناس ثم قام العلماء بتبيين الأبعاد السياسيّة لهذه الفتوى واستنهاض روحيّة الناس للوقوف في وجه الظلم واعتراضهم على الحضور الأوروبيّ وتدخّلهم في شؤون المسلمين، وهذا الأمر كان دليلاً واضحاً على قدرة المرجعيّة على حماية المصالح الوطنية والدينية.

ونقرأ عواقب هذه الفتوى من عيون الأجانب البعيدين، فقد كتب سفير روسيّا:

«**إذا كتب هذا الرجل المُطاع أي الميرزا الشيرازيّ بياناً يُحرّم فيه نقل الأمتعة والعتاد من أوروبا إلى إيران ويؤكّد أن استعمالها خطأ فادح، وأنّ ما يحتاجه المسلمون هو توفير هذه البضائع من داخل البلاد، فإنه يسدّ أبواب التجارة الكبرى من كافّة الدول الأوروبية إلى بلاد المسلمين**»[1].

ثمّ إنّ نهضة الناس وتحرّكهم ضدّ المعاهدة التي أُبرمت مع شركة الريجي أكَّد على خطورة التخاصم بين علماء الدين والخارج.

إنّ حكم الميرزا الشيرازيّ ضدّ شركة الريجي أسّس للوصول إلى الاستقلال الاقتصاديّ ونفي سلطة الأجانب، وقطع العلاقات المرتبطة بالمصالح الطبقية أو الفئوية، وكتبوا في ذلك: «**وأدّت فتوى الميرزا إلى تهييج التجّار، فقام بعضهم من أجل تطبيق الفتوى بحرق بضائعهم الكاسدة ووقفوا جميعاً موقفاً موحّداً حفاظاً على مصالحهم، فكتب الميرزا الى الشاه رسالةً يبين فيها مجريات الأمور ويحذّره من العواقب السيّئة لقراره**[2]».»

وفي السنوات التي تلت الحادثة دخل الروس والإنكليز إلى البلاد من باب التجارة وأحدثوا ممرّاً لهم إلى الأسواق فأطلق زعماء الطائفة أمثال الأخوند الخراسانيّ

(1) مباني انديشه تحريم در تاريخ سياسي ايران، (المباني الفكرية للتحريم في تاريخ إيران السياسي)، موسى نجفي /27، آستان قدس. (مصدر فارسي).

(2) تحريم تنباكو، (تحريم التنباك)، ابراهيم تيموري/79-97، شركت سهامي كتابهاي جيبي. (مصدر فارسي).

وعبدالله المازندرانيّ تنبيهاً إلى الناس وإعلان الجهاد الاقتصاديّ ومضاعفة السعي على خطّ الإنتاج وتخفيض العمل بالبضائع الأجنبية، للقضاء على نفوذهم وضرب سيطرتهم التي لا تستهدف إلا صناعة الفقر والبؤس لعامّة الناس:

«إلى الآن لم يتمّ الحكم بتحريم استعمال البضائع الروسيّة على عامّة المسلمين ريثما يتمّ استكمال بعض الملاحظات وكافّة مقدّمات هذا الحكم، وإلى ذلك الحين نحن صامدون في موقعنا إلى أن يتّضح لعامّة الشعب الاسلاميّ الغيور وأتباع خاتم الأنبياء ﷺ ويعلمون يقيناً كرأي العين أنّ استخدام البضائع الأجنبيّة في البلاد الاسلاميّة يعني - في كلّ الأحوال - ضياع ثروة الأمّة وتدمير الثروات الطبيعيّة الداخليّة، وشيوع الفقر والبؤس بين الناس وتسلّط الكفّار على المسلمين، وبالتالي ضياع الكيان الإسلاميّ وسقوط استقلاله، وعند ذلك سيصل الدور إلينا.

ونسأل الله أن يجعل الجميع من زعماء وعلماء وأمراء وتجار ذلك نصب أعينهم وينطلق الجميع بكلّ عزمٍ وإرادة للمسارعة إلى العمل والتسابق مع الآخرين لنيل الفوز بلطائف ساحة الجهاد الاقتصاديّ الذي له درجة الجهاد ومنزلة الشهادة مع صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف[1].

وفور ظهور الضرر والخسارة على بعض التجار من هذا الباب قام العلماء وطلبوا من بقيّة التجار وأهل السوق تقديم المساعدة لإخوانهم المتضرّرين.

وجاء برواية أخرى:

وأفتى علماء شيراز لأهل القوافل التجاريّة بعدم إدخال البضائع الروسيّة والإنكليزيّة من ناحية الجنوب إلى إيران، وعدم التعامل مع الجنود الإنكليز المستقرّين في جنوب البلاد حفظاً لمصالح بلادهم وعدم مساعدتهم وإعلام الدولة بفصل مصالحها عن مصالح الأجانب، وعدم التراجع قيد أنملة عن

(1) انديشه تحريم /59.

الاستقلال الداخليّ والخارجيّ لإيران.

... حتّى لا تكون أعراض المسلمين وكرامتهم مرهونة بيد الكفّار، وأن يضحّوا بأرواحهم الغالية في سبيل الدين المقدّس، وأن يرفعوا أصواتهم بالنداء ليملأ الآفاق: إمّا الموت وإمّا الاستقلال[1].

وهدّد ثقة الإسلام المحلّاتي، وهو من علماء محافظة فارس، بإقامة حدّ التعزير الشرعيّ على كلّ من يخالف هذه الفتوى.

وأجاز الشيخ المحلّاتي استقدام البضائع التي هي مورد حاجة ماسّة في الداخل من الدول المحايدة، وذلك منعاً لحدوث أيّ اضطراب داخل السوق الإيرانيّة[2].

فمثلاً، بعد اتفاقيّة استقدام الشاي من تركمنستان، وصل النفوذ الروسيّ الذي كان يسير سيراً صعوديّاً الى حدٍّ بات يتعرّض لضغوطات اقتصادية قويّة ممّا، استدعى تدخل الحكّام المحلّيين لنجدته، وفي هذا السياق كانت فكرة البنك الروسيّ للقروض الذي سعى الى تحقيق نفس الأهداف التي تتبنّاها شركة الهند الشرقية.

وكان علماء أصفهان في طليعة هؤلاء، فأفتى آقا نجفي أصفهاني في أوج التهديد الروسيّ لإيران بالاجتياح العسكريّ بحرمة التعامل مع البنك الروسيّ، وحرمة بيع وشراء البضائع الروسيّة، موجّهاً بذلك ضربةً قاسية للحيثية السياسيّة والاقتصاديّة لروسيّا.

(1) همان /66.
(2) همان /72.

وفي إعلانٍ آخر وقّعه ثلاثة عشر عالماً من كبار العلماء لفت نظر الناس إلى ضرورة التوجّه والالتزام بالنقاط الآتية:

1 - **ضرورة كتابة الوظائف والأحكام الشرعيّة على الأوراق الإيرانيّة، وعدم إمضاء الوظائف المكتوبة على أوراق غير إيرانيّة.**

2 - **عدم إقامة الصلاة على الأموات الذين تمّ تكفينهم بقماش غير إيرانيّ.**

3 - **لُبس الألبسة الإيرانية.**

4 - **عدم المشاركة في الدعوات التي لها طابع التشريفات والبذخ.**

5 - **عدم احترام مدخّني التنباك والنظر اليهم بخفّة واستحقار**[1].

ثمّ إنّ التفكير بالاكتفاء الذاتيّ وضع الميرزا الشيرازيّ مؤشراته وعلاماته العريضة قبل ثلاث سنوات من قضيّة تحريم التنباك، وبعد سبع سنوات على تحريم التنباك كان لذلك آثار موضوعيّة في المجتمع، وبرز ذلك من خلال تشكيل شركة أصفهان الإسلاميّة والتي تأسّست بجهود آقا نجفي أصفهاني وآقا نور الله أصفهاني ثمّ انتشرت فروعها في داخل البلاد وخارجها، وجاء في أسس تشكيل هذه الشركة ضرورة الاستقبال الواسع للعلماء والاستفادة منهم، وتوسيع إنتاج البضائع الداخلية وخاصّةً إنتاج الأقمشة والاستفادة القوية من الوسائل والموادّ الخام الإيرانية، واستطاعوا، على طول السنين بعد ذلك، بناء مصانع متنوّعة وتوفير فرص العمل لآلاف العمّال، وفي تلك الأيام استغنى الشعب الإيرانيّ والشعوب الإسلامية عن الإستفادة من البضائع الأجنبيّة.

(1) همان /87.

الباب الثاني

سيرة تبليغية

- إنجازات الإمام الحسن المجتبى عليه السلام خلال عشر سنوات في المدينة المنوّرة
- أساليب السيدة زينب عليها السلام التبليغيّة
- إرهاصات أرضيّة إحياء العلوم الإسلاميّة في زمان الإمام الباقر عليه السلام

إنجازات الإمام الحسن المجتبى عليه السلام خلال عشر سنوات في المدينة المنوّرة

أحمد زماني(*)

مقدّمة

يعتبر كتاب «**الحقائق الخفية**» لمؤلّفه أحمد زماني واحداً من الكتب التي تناولت الحياة السياسيّة للإمام الحسن المجتبى عليه السلام بالبحث والتحقيق. يتألّف الكتاب من مقدّمة بقلم آية الله السبحاني ومجموعة أخرى من المطالب المتنوّعة. من أبرزها: القيادة في الإسلام، إطلالة على مرحلة طفولة الإمام عليه السلام ومرحلة ما بعد وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، مسؤوليّات الإمام الحسن عليه السلام في مرحلة حكومة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، الإمامة والقيادة، أسباب الصلح، العودة إلى المدينة، مسموميّة الإمام عليه السلام وعناوين أخرى...

المقالة التي بين أيدينا عبارة عن خلاصة بحث إنجازات الإمام الحسن عليه السلام خلال عشر سنوات في المدينة المنوّرة.

العودة إلى المدينة المنوّرة

بعد أيام قليلة على توقيع معاهدة الصلح مع معاوية وجد الإمام الحسن عليه السلام أنّ المصلحة هي في الانتقال من الكوفة إلى مدينة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

تحرك الإمام الحسن عليه السلام برفقة الإمام الحسين عليه السلام وعائلتيهما

(*) كاتب إيراني في مجلة مبلغان.

وأصحابهما نحو المدينة. أسرع أهل الكوفة لتوديع الإمام الحسن عليه السلام وفي قلوبهم غصّة الفراق[1].

لقد قرّر سبط رسول الله صلى الله عليه وآله الأكبر السير بسفينة الإسلام نحو النجاة رغم الأمواج العاتية التي أوجدها معاوية، وكلّ ذلك بما كان يحمله من صبر وتحمّل وتواضع، وبهذا الشأن أراد الإمام عليه السلام أن يمنع بني أميّة من جَعْل أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وأحاديث أمير المؤمنين عليه السلام والصحابة الصالحين، على أساس أنّ الجاعلين أرادوا من خلال عملهم القضاء على الصورة الحقيقيّة للإسلام، ساعين بذلك وراء أهدافهم الشيطانيّة.

أقام الإمام الحسن عليه السلام عشر سنوات في المدينة فكان كأبيه وجده طبيباً ومعلّماً وملجأً لأهل المدينة والمظلومين فيها، وقد جمع في سلوكه فضائل أسلافه المعصومين الأطهار، فقاد مسلمي العالم لمواجهة جبهة الكفر.

فيما يلي نقدّم شرحاً مختصراً لأعمال الإمام عليه السلام خلال السنوات العشر التي أقامها في المدينة مع العلم أنّ مؤامرات معاوية لم تنقطع على الإطلاق.

إنجازات الإمام الحسن عليه السلام في المدينة المنوّرة

1 ـ تربية وتعليم أصحاب الاستعدادات

أسرع المحدّثون والراوون والعلماء إلى المدينة بعد انتقال الإمام الحسن عليه السلام إليها بهدف النهل من علمه والحصول على فيضه. وقد ساهم الإمام عليه السلام في هداية الكثير من الذين ضلّوا الطريق، حيث تعلّموا أصول الإسلام من سبط الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. وقد ذكر ابن عساكر والمرحوم العلّامة المجلسي[2] والميرزا محمّد تقي سبهر، وابن شهر آشوب... أخبار الرواة والمحدّثين بالتفصيل.

(1) الكامل في التاريخ، ج3، ص407.

(2) بحار الأنوار، ج42، ص110 ـ 112؛ حياة الإمام الحسن بن علي، ج2، ص288؛ تاريخ ابن عساكر، ج12، ص2 وناسخ التواريخ، ج5، ص245 ـ 247.

ويمكن تصنيف الرواة والمحدّثين الذين نهلوا من علم الإمام عليه السلام ضمن مجموعتين:

1 ـ بعض صحابة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام.

2 ـ التابعين والأشخاص الآخرين الذين تتلمذوا على الإمام عليه السلام، وفيما يلي نشير إلى أبرز تلك الشخصيّات:

المجموعة الأولى:

1 ـ **الأحنف بن قيس:** يعتبره الشيخ الطوسيّ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والحسن بن عليّ عليه السلام.

2 ـ **الأصبغ بن نباته:** من الرواة وخواصّ أصحاب الإمام عليّ عليه السلام والإمام الحسن وقد نقل حوالي 56 رواية.

3 ـ **جابر بن عبد الله الأنصاري:** من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله والإمام عليّ عليه السلام وكذلك الإمامان الحسنان عليهما السلام والإمام علي بن الحسين عليه السلام والإمام الباقر عليه السلام. شارك في بدر وثماني عشرة غزوة أخرى ونقل 17 رواية. توفي عام 78 للهجرة.

4 ـ **جعيد الهمدانيّ:** من أهل الكوفة وهو من صحابة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والإمام الحسن عليه السلام والحسين وزين العابدين.

5 ـ **حبّة بن جوين العرفي:** من اليمن ومن أصحاب الإمام علي عليه السلام والإمام الحسن عليه السلام.

6 ـ **حبيب بن مظاهر:** من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام والإمام الحسن عليه السلام وهو واحدٌ من «**شرطة الخميس**»[1] وقد استشهد في كربلاء.

7 ـ **حجر بن عديّ بن حاتم الكنديّ الكوفيّ.**

(1) هم مجموعة خاصة عقدت العهد مع الإمام علي عليه السلام حتى آخر لحظة من حياتها.

8 ـ **رشيد الهجريّ:** من خواصّ أصحاب الإمام عليّ عليه السلام والإمام الحسن عليه السلام. استشهد في مسيرة وفائه للإمام عليّ عليه السلام. نُقل عنه العديد من الروايات.

9 ـ **رفاعة بن شدّاد:** من أصحاب الإمامين الأوّل والثاني.

10 ـ **زيد بن أرقم:** كان فاقداً للبصر أدرك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والإمام الأوّل والثاني والثالث ونقل عنهم العديد من الروايات.

11 ـ **سليمان بن صرد الخزاعي:** كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأدرك الإمام الأوّل والثاني.

12 ـ **سليم بن قيس الهلاليّ:** من أصحاب الإمام عليّ عليه السلام وقد نهل العلم من الإمام المجتبى عليه السلام. لاحقه الحجاج ليقتله فالتجأ إلى «**إبان بن أبي عياش**». وعند دنوّ أجله أعطاه كتاباً ليحفظه عنده على سبيل الأمانة فيه الكثير من الروايات[1].

13 ـ **عامر بن واثلة بن أسقع:** كان يكنى بـ «**أبي الطفيل**». نقل العديد من الروايات عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والإمام الأوّل والثاني.

14 ـ **عباية بن عمرو بن ربعيّ:** من أصحاب الإمام الأوّل والثاني.

15 ـ **عمرو بن حَمِقْ الخزاعيّ:** هو من جملة أفراد شرطة الخميس وحارب إلى جانب الإمام عليّ عليه السلام في حربي الجمل وصفّين. كان إلى جانب الإمام الحسن عليه السلام حتى استشهد على يدي معاوية.

16 ـ **قيس بن عبّاد:** من أصحاب الإمام عليّ عليه السلام.

17 ـ **كميل بن زياد النخعي:** من أهل اليمن وكان من جملة الأشخاص الموثوقين عند الإمام علي عليه السلام والإمام الحسن عليه السلام.

(1) رجال العلامة الحلي، ص83.

18. **الحارث بن الأعور بن بنان المنقري** من الموثوقين عند الإمام الأوّل والثاني.

19 ـ **المسيّب بن نجبه الفزاريّ**: من جملة الزهّاد في ذاك الزمان ومن أصحاب الإمام الأوّل والثاني. اشتغل بالكتابة عند الإمام الحسين عليه السلام.

20 ـ **ميثم بن يحيى التمار المعروف بـ «ميثم التمّار»**[1]. هو من كبار صحابة الإمام عليّ عليه السلام ومن جملة أفراد شرطة الخميس.

المجموعة الثانية:

تتلمذ بعض هؤلاء الرواة على يدي الإمام عليه السلام ونقلوا عنه العديد من الروايات. ومن جملة هؤلاء الأشخاص: أبو الأسود الدؤليّ، أبو إسحاق بن كليب السبيعي، ابن الجوزي، أبو صادق «**كسان بن كليب**»، أبو المخنف (لوط بن يحيى الأزديّ)، أبو يحيى (عمير بن سعد النخعيّ)، إسحاق بن يسار، الأشعث بن سوار، جابر بن خلد، جارود بن منذر، حبَّابَة بنت جعفر الوالبية، حذيفة بن أسيد الغفاريّ، سفيان بن أبي ليلى الهمداني، سفين بن ليل، سويد بن غفله، الشعبيّ، طحرب العجليّ، عبد الله بن جعفر الطيّار، عبد الله بن عبّاس، عبد الرحمان بن عوف، عمر بن قيس المشرفيّ، عيسى بن مأمون زرارة، فاطمة بنت حبابة الوالبية، محمّد بن إسحاق، مسلم بن عقيل، مسلم البطين مولى أبي وائل (أبو رزين بن مسعود)، نفاله بن مأمون، هبيرة ابن مريم، هلال بن نساف.

الأسماء المتقدّمة مجموعة من تلامذة وأصحاب الإمام الحسن عليه السلام الذين اجتمعوا من أماكن متفرّقة. وقد عمل هؤلاء على نشر الثقافة الإسلامية الصحيحة ومواجهة البدع وبعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام تعرّض العديد من الصحابة هؤلاء للتعذيب فاستشهد البعض منهم على يدي معاوية، والتحق البعض منهم بركاب أبي عبد الله الحسين عليه السلام لمواجهة الطاغية يزيد بن معاوية[2]. وقد قام

(1) جنات الخلود، ص20.

(2) بحار الأنوار، ج44، ص111؛ مناقب ابن شهرآشوب، ج4، ص40؛ ترجمة الإمام الحسن من تاريخ مدينة دمشق، ص6.

أولاد الإمام الحسن عليه السلام بدَوْرٍ مهمّ في نقل الأحاديث عن الإمام وبالتالي العمل على نشر المعارف الإسلامية ومن جملة أولاد الإمام:

الحسن بن الحسن المعروف بالحسن المثنّى رحمه الله، زيد بن الحسن، عمرو بن الحسن، عبد الله بن الحسن، القاسم بن الحسن.

2ـ ترويج الثقافة الإسلامية الأصيلة

اهتمّ الإمام المجتبى عليه السلام بنشر الثقافة الإسلامية فكان يؤدّيها على أحسن وجه، وذلك لمواجهة التحريفات الثقافية التي كان يبثها الأمويّون وبالأخصّ معاوية بن أبي سفيان على أساس أنّ هذه العائلة كانت تقف وبكل قوّتها في مواجهة الإسلام ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد عمل أبو سفيان ومن خلال تحريك قريش على إيجاد حروب بدر وأُحد والأحزاب و... لمواجهة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين. وهكذا فعل ابنه معاوية الذي قاد حرب صفين لمواجهة أهل البيت عليهم السلام ولم يتوانَ عن التدخّل في حربي النهروان والجمل.

لقد بدأ معاوية حربه ضدّ أهل البيت عليهم السلام فعمل وبشكل جادٍّ على إزالة ثقافة الرسالة والإمامة. ومن جملة مصاديق الحرب التي قادها معاوية:

ألف ـ البدعة في الدين

1 ـ ترك أيّام خلافته الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمدّة أربعين يوماً في صلاة الجمعة. وعندما سُئل عن السبب اعتبر أنه لن يصلّي على النبيّ كي لا يَعْظم أهل البيت عليهم السلام في أعين الناس[1].

2ـ أجاز المعاملات الربوية وقد عارضه في ذلك أبو الدرداء وقال له:

«**سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينهى عن مثل هذا إلا مثلاً بمثل**» لم يهتم معاوية

(1) محمد بن عقيل، النصائح الكافية، ص97.

بحديث أبي الدرداء واستمرّ بعمله ممّا دفع أبا الدرداء وكان قاضياً في دمشق، إلى التوجّـه نحو المدينــة معتبراً أنه لم يبقَ أيّ مجال للتعاون مـع معاوية لأنه قد عمل برأيه في مقابل نصّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[1].

3. عطّل الحدود الإلهية حيث كان يمنع الحدّ عن السارق من خلال الوساطة[2].

واعتبر صاحب البداية والنهاية أنّ هذا الحدّ هو أوّل الحدود التي عُطِّلت في الإسلام[3].

4. غَيّر بعض أحكام الحجّ عندما استعمل العطر عند الطواف[4].

5. لم يكن يهتمّ بالأحكام الإلهية الأخرى. وقد أضاف الآذان والإقامة في صلاتي الفطر والأضحى، مع أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**ليس في العيدين آذان ولا إقامة**»[5].

6. قرأ خطبتي صلاة عيد الفطر قبل الصلاة وقد استمرّ بنو أميّة بهذا العمل خلافاً لسنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[6].

7. كان يشرب الماء بوساطة وعاء مصنوع من الذهب والفضّة وكان يتناول الطعام فيه أيضاً، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا العمل[7].

8. كان يلبس الحرير (وهو حرام على الرجال) وكان لا ينتهي عن المحرّمات الإلهية[8].

(1) النصائح الكافية، ص94.
(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج1، ص464.
(3) أبو الفداء بن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص136.
(4) النصائح الكافية، ص100.
(5) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج3، ص470؛ كشف الغمة، الشعراني، ج1، ص123؛ سنن أبي داود، ج1، ص79.
(6) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج3، ص470.
(7) المصدر نفسه.
(8) المصدر نفسه.

9 ـ كان بنو أميّة يتبعون حكامهم أمثال معاوية في الجلوس للاصغاء لخطبة صلاة العيد وصلاة الجمعة الأولى ويقفون للاصغاء للخطبة الثانية[1].

ب ـ تشجيع جاعلي الأحاديث

عمـل معاويـة بشكل جادٍّ علـى التقليل مـن عظمة أهل البيـت عليهم السلام وإخراج محبتهـم من قلوب النـاس وطلب من جاعلي الأحاديث وضع مـا يشير إلى مناقبه ومناقـب عثمان... وقد أراد بهذا التقليل مـن الأحاديث التي تؤكّد على عظمة أهل البيـت عليهم السلام وبالأخصّ الإمـام أمير المؤمنيـن عليه السلام. كتب معاويـة إلى عمّاله بعض الأحكام التي كانت على مراحل:

ـ المرحلة الأولى

كتب معاوية: «**انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته الذين يـروون فضائله ومناقبـه فادنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم واكتبوا لي بكلّ ما يروي كلّ رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته**»[2].

ـ المرحلة الثانية:

كتب معاوية: «**إنّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كلّ مصر وفي كلّ وجه وناحيـة فـإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلـى الرواية في فضائل الصحابة والخلفـاء الأوّليـن، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد مـن المسلمين في أبي تراب إلا أتوني بمناقض له في الصحابة مفتعلة، فإنّ هذا أحبّ إليّ وأقرّ لعيني وأدحض لحجّة أبي تراب وشيعته**»[3].

على هذا الأساس بدأ عمّال معاوية جَعْل الأحاديث. وقد برز أشخاص عملوا في هـذا الشأن من جملتهم أبو هريرة وعمرو بن العاص وكعب الأحبار. وامتلأت كتب

(1) المصدر نفسه، ج3، ص470.
(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج3، ص15 ـ 16.
(3) المصدر نفسه، ص16.

السنّة بالإسرائيليّات ولم تستثنِ الصحاح من ذلك.

لعل الإمام الباقر عليه السلام من جملة الذين تصدّوا لهذه العمليّة، وقد حذّر الناس من هذه الأحاديث وقال: «**هي والله كلّها كذب وزور**»[1] ويقول الإمام عليه السلام في مكان آخر:

«**ويروون عن عليّ عليه السلام أشياء قبيحة، وعن الحسن والحسين عليهما السلام ما يعلم الله أنهم قد رووا في ذلك الباطل والكذب والزور**»[2].

ج ـ علنيّة المنكرات

مثال ذلك نسب معاوية زياد بن عبيد (أبيه) إلى والده أبي سفيان وكان يناديه بعبارة أخي. وكتب في إحدى رسائله: «**من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد ابن أبي سفيان...**».

وكانت والدة زياد معروفة في مكّة بفسادها حيث كان يتردّد إلى منزلها المفسدون. وقد اعترض الصحابة على عمل معاوية هذا. ومن جملة الذين اعترضوا على هذا الأمر الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام ويونس بن عبيد وعبد الرحمان بن الحكم وأبو العريان وأبو بكره والحسن البصريّ... وقد ذكروا عبارة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يقول فيها: «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**»[3].

وعلى هذا الأساس يجب أن نطلق على زياد، زياد بن سميّة وليس زياد بن أبي سفيان وقد شهد أبو مريم السلوليّ بوجود علاقة غير شرعية بين أبي سفيان وسميّة.

(1) سليم بن قيس، ص68 ـ 96.
يقول إبان بن تغلب: قلت للإمام الباقر عليه السلام: «أصلحك الله سمّ لي من ذلك شيئاً؟ قال: رووا أن سيّدَيْ كهول أهل الجنة أبو بكر وعمر، وأن عمر محدث وأن الملك يلقنه وأن السكينة تنطق على لسانه وأن عثمان الملائكة تستحي منه حتى عدَّد أبو جعفر عليه السلام أكثر من مئة رواية يحسبون أنها حق... (راجع: أسد الغابة، ج3، ص215).
(2) المصدر نفسه.
(3) بحار الأنوار، ج73، ص350، الحديث 13.

صحيـح أنّ معاويـة بذل جهوداً كبيرة في الإساءة إلـى الرسول ﷺ وأئمّة أهل البيـت عليهم السلام إلّا أنـه لـم يوفق في ذلـك؛ لأنّ العمل الذي قام بـه الإمام المجتبى عليه السلام والذي يتمحور حول تربية طلّاب يدركون الإسلام الصحيح قد قطع الطريق على تلك المحاولات، لا بل ترك طلّاب الإمام آثاراً كبيرة في قلوب الناس.

وكتب الإمام الحسن عليه السلام إلى بعض الأشخاص النافذين غير المطّلعين على مـا كان يقوم به معاوية مبيّناً لهـم الانحرافات التي يمارسهـا، وأرسل طلّابه إلى القرى والمدن لتوضيح دين الله للناس.

في أحد الأيّام سأل معاوية رجلاً من أهل المدينة: أخبرني عن الحسن بن عليّ، قـال: يا أميـر المؤمنين إذا صلّى الغداة جلس في مصـلّاه حتّى تطلع الشمس، ثمّ يساند ظهره فلا يبقى في مسجد رسول الله ﷺ رجل له شرف إلا أتاه فيتحدثون حتّى إذا ارتفع النهار صلّى ركعتين ثمّ نهض فيأتي أمّهات المؤمنين فيسلم عليهنّ فربّما أتحفنه ثمّ ينصرف إلى منزله، ثمّ يروح فيصنع مثل ذلك[1].

ويقـول ابن صبّاغ المالكيّ (المتوفى عام 855هـ.ق) حول النشاطات الثقافية للإمام الحسـن عليه السلام: «**وكان إذا صلّى الغداة في مسجد رسول الله ﷺ جلس في مجلسه، يذكر الله حتّى ترتفع الشمس، ويجلس إليه من يجلس من سادات الناس يحدّثهم.**

قـال ابـن صبّـاغ: ويجتمـع الناس حولـه، فيتكلّم بمـا يشفي غليـل السائلين ويقطع حجج المجادلين»[2].

وقـد ساهم نشاط الإمام الحسن عليه السلام خلال عشر سنوات في إحياء الإسلام مـن جديد، ولولا نشـاط الإمام عليه السلام لم يكن ليتوانى معاوية عـن القضاء نهائياً على الإسلام وأهل البيت عليهم السلام.

(1) ابن عساكر، الإمام الحسن، ص139، الحديث 231.

(2) صلح الحسن عليه السلام، ص31؛ نور الدين علي بن محمد بن صباغ، الفصول المهمة، ص159.

3ـ الاهتمام بالمحتاجين

كان الإمـام الحسن عليه السلام كأبيه الإمـام أمير المؤمنين عليه السلام لجهة الاهتمام بالمحتاجين والفقراء... كان شديد الاهتمام بهم وكان يقوم بعمله بدون علم أحد من الناس، وكان بذلك مصداقاً للآيـة الشريفة: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

قيل للإمام الحسن المجتبى عليه السلام: لأيّ شيء لا نراك تردّ سائلاً وإن كنت على فاقـة؟ فقال: «**إني لله سائل، وفيه راغب، وأنا أستحي أن أكون سائلاً وأردَّ سائلاً، وإنّ الله تعالى عوّدني عادة أن يفيض نِعَمه عليّ، دعوته أن أفيض نِعَمه على الناس، فأخشى إن قطعت العادة، أن يمنعني العادة، ثمّ أنشد يقول:**

إذا ما أتاني سائلٌ قلت: مرحباً

بمن فضلُه فرضٌ عَلَيَّ معجَّلُ

ومَنْ فضلُه فضلٌ على كلِّ فاضلٍ

وأفضلُ أيّامِ الفتى حين يُسألُ[2]

ونُسبت الأبيات الشعريّة الآتية إلى الإمام عليه السلام:

إنّ السخاء على العبادِ فريضةٌ

للهِ يُقْرَأ في كتابٍ مُحْكَمِ

وَعَدَ العبادَ الأسخياءَ جِنانَه

وأَعَدَّ للبخلاءِ نارَ جهنَّمِ[3]

(1) سورة البقرة، الآية: 274.
(2) الشبلنجي الشافعي، نور الأبصار، ص111.
(3) مناقب ابن شهرآشوب، ج2، ص156؛ ناسخ التواريخ، ص253.

أمّا الموارد التي تشير إلى اهتمام الإمام الحسن عليه السلام بالفقراء والمحتاجين فكثيرة، نشير هنا إلى ثلاثة منها:

ألـف ـ جاءت إحدى الإمـاء تحمل باقة ورد للإمـام عليه السلام . قَبل الإمام عليه السلام الهدية وقال: «**أنت حرّة لوجه الله**» وقد ردّ الإمام عليه السلام الذين اعترضوا على عمله هـذا وقال: «**أدبنا الله فقال تعالى:** ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا ﴾[1]، **وكان أحسن منها إعتاقها**»[2].

ب ـ فـي أحد الأيام كان الإمام عليه السلام يسيـر في بعض أزقّة المدينة فسمع أحد الأشخاص يطلب من الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم لرفع مشكلاته، التفت الإمام عليه السلام إليه وأرسل له المبلغ على الفور[3].

ج ـ كان الإمـام عليه السلام بعض الأحيان يحقّـق حاجات الأشخاص ويعلّمهم في الوقـت عينه بعض المسائل. قيـل إنّ محتاجاً طلب المساعـدة من الإمام عليه السلام أجابـه الإمـام عليه السلام قائلاً: «**إنّ المسألة لا تصلح إلّا في عزم فادح أو فقر مدقع أو حمالة مقطعة**».

فقـال له السائـل إنّ حاجته هي لواحد من هذه الأمور الثلاثـة. فأعطاه الإمام مائـة دينار. ثمّ إنّ السائل عرض حاجته على الإمـام الحسين عليه السلام فأعطاه 99 ديناراً (احتراماً للإمام الحسن عليه السلام) ثم ذهب وسأل عبد الله بن عمر فأعطاه سبعة دنانير. وعندما استوضح السائل من عبد الله بن عمر عن سبب الفارق بين ما أعطاه الإمامان الحسنان وما أعطاه هو، فكان جوابه بأنه لا يمكن المقارنة بينه وبين الأئمة المعصومين عليهم السلام الذين هم أهل البذل والعطاء[4].

(1) سورة النساء، الآية: 86.
(2) بحار الأنوار، ج43، ص343، الحديث 15.
(3) المصدر نفسه، ص347، الحديث 20.
(4) عيون الأخبار، ج3، ص140.

4ـ الدفاع السياسيّ والاقتصاديّ عن الموالين

ازداد ظلم معاوية لأتباع أهل البيت عليهم السلام عندما استولى على العراق، وكان يزداد عدد الفارّين يوماً بعد آخر بسبب الظلم الكبير الذي مارسته حكومة الشام، والنماذج كثيرة ولعلّ من أبرزها ما حصل مع أبي الدرداء (عويمر بن مالك ابن قيس بن أميّة الخزرجيّ) وهو صاحبيّ وقاضي دمشق المعروف.

لم يتوانَ الإمام عليه السلام في تقديم الدعم السياسيّ لأتباعه. ويعتبر سعيد بن أبي سرح الكوفي واحداً من الأشخاص الذين شملهم غضب واليها زياد ابن أبيه. أحضره زياد، ولكنه فَرّ من الكوفة متوجّهاً إلى المدينة حيث التجأ إلى الإمام الحسن عليه السلام. أمّا زياد فعمد إلى عائلة سعيد وقام بسجنهم ومصادرة أموالهم وهدم منزلهم... وطلب استرجاع سعيد.

وصل خبر ما يقوم به زياد إلى الإمام الحسن عليه السلام، فكتب إليه وقال: «**أمّا بعد فإنك عمدت إلى رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم فهدمت داره وأخذت ماله وحبست أهله وعياله فإن أتاك كتابي هذا فابن له داره، واردد عليه ماله، وشفّعني فيه فقد أجرته والسلام**»[1].

تتضمّن رسالة الإمام عليه السلام أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ودفاعاً صريحاً عن سعيد بن أبي سراح، وقد طلب فيها الإمام إعادة الأمور إلى ما كانت عليه وإرجاع الحقّ إلى سعيد.

وصلت رسالة الإمام عليه السلام إلى زياد فغضب وأظهر كلّ ما يحمله من كراهية على أهل البيت عليهم السلام وكتب إلى الإمام عليه السلام رسالة جوابيّة، قال فيها:

«**من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن بن فاطمة، أما بعد: فقد أتاني كتابك تبدأ فيه بنفسك قبلي وأنت طالب حاجة، وأنا سلطان وأنت سوقة، وتأمرني فيه**

(1) نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج4، ص72.

بأمر المطاع المسلّط على رعيته كتبت إليّ في فاسق آويته إقامة منك على سوء الرأي ورضا منك بذلك، وأيم الله لا تسبقني به ولو كان بين جلدك ولحمك، وإن نلت بعضك ففيه رفيق بك ولا مدع عليك، فإنّ أحبّ لحم عليَّ أن آكله اللحم الذي أنت منه، فسلّمه بجريرته إلى من هو أولى به منك، فإن عفوت عنه لم أكن شفّعتك فيه، وإن قتلته لم أقتله إلّا لحبّه أباك الفاسق، والسلام».

استمرّ الإمام عليه السلام في دفاعه عن سعيد بن أبي سرح وكتب رسالة إلى معاوية ارفقها برسالة زياد، فكتب معاوية إلى زياد قائلاً:

«أمّا بعد فإنّ الحسن بن عليّ بعث إليَّ كتابك إليه جواب كتابه كان إليك في ابن سرح فأكثرت التعجّب منه وقد علمت أنّ لك رأيين، رأي من أبي سفيان، ورأي من سميّة فأمّا رأيك من أبي سفيان فحلم وحزم، وأمّا رأيك من سميّة فكما يكون رأي مثلها ومن ذلك كتابك إلى الحسن تسمّيه وتعرض له بالفسق ولعمري لأنت أولى بذلك منه، فإن كان الحسن بدأ بنفسه ارتفاعاً عنك فإنّ ذلك لن يضعك وأمّا تركك تشفيعه فيما شفع فيه إليك فخط دفعته عن نفسك إلى من هو أولى به منك فإذا أتاك كتابي فخلّ ما بيدك لابن سرح ولا تعرض له فيه فقد كتبت إلى الحسن يخيره إن شاء أقام عنده وإن شاء رجع إلى بلده وأنه ليس لك عليه سبيل بيد ولا لسان».

وأمّا كتابك إلى الحسن باسمه ولا تنسبه إلى أبيه فإنّ الحسن ويحك ممّن لا يرمى به الرجوان أفاستصغرت أباه وهو علي بن أبي طالب أم إلى أمه وكلته وهي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذلك أفخر له إن كنت عقلت والسلام. ثم كتب الأبيات التالية في مناقب الحسن بن علي عليه السلام:

أمّا حسن فابنُ الذي كان قبلَه

إذا سارَ سارَ الموتُ حيث يسيرُ

وهـــل يـلـــدُ الـرئـبـــالُ إلّا نـظـيـرَه

وذا حـســـنٌ شِـبـــه لـــه ونـظـيـرُ

ولـكـنّـه لـو يـــوزنُ الـحِـلـم والـحِـجـا

بـــأمـــر لـقـــالـــوا يـــذبـــل وثـــبـــيـــر[1]

5ـ إظهار الانزعاج من معاوية

من جملة الأمور التي عمل بها الإمام عليه السلام في المدينة إظهار التنفّر والانزعاج من حكومة بني أميّة. فكان لا يترك فرصة إلّا وبَيّن فيها فساد هذه الحكومة، ولم يسمح لإعلام بني أميّة أن يصوّر العلاقة بالإمام عليه السلام على أنّها علاقة حسنة.

في أحد الأيّام وبينما كان الإمام يطوف في البيت الحرام، وقعت عيناه على حبيب ابن مسلمة الفهريّ. التفت الإمام عليه السلام إليه وقال: «**يا حبيب! رُبّ مسير لك في غير طاعة الله**». فقال حبيب: أمّا مسيري إلى أبيك فليس من ذلك.

فقال له الإمام: «**بلى والله لكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة، فلئن قام بك في دنياك لقد قعد بك في آخرتك ولو كنت إذ فعلت قلت خيراً كان ذلك كما قال الله تعالى:** ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[2] **ولكنك كما قال الله سبحانه:** ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾»[3] **ثم تركه الإمام** عليه السلام **وتابع مسيره**[4].

(1) المصدر نفسه، ج4، ص73.
(2) سورة التوبة، الآية: 102.
(3) سورة المطففين، الآية: 14.
(4) أحمد بن علي الرازي، أحكام القرآن، ج4، ص355.

6ـ الاعتراض على زواج شيطانيّ

عمل معاوية بن أبي سفيان وبشكل حثيث ليظهر أنّ علاقة حسنة تربطه بالإمام عليه السلام، وذلك بهدف جذب تأييد أتباع أهل البيت عليهم السلام. وفي هذا الإطار عمل على إقامة علاقة قرابة مع بني هاشم، لذلك أرسل مروان بن الحكم والي المدينة ليخطب زينب ابنة عبد الله بن جعفر لابنه يزيد على حكم أبيها في الصداق وقضاء دينه بالغاً ما بلغ... فبعث مروان إلى عبد الله بن جعفر يخطب إليه فقال له عبد الله: إنّ أمر نسائنا إلى الحسن بن عليّ عليه السلام فاخطب إليه. فأتى مروان الحسن عليه السلام خاطباً فقال الحسن عليه السلام: اجمع من أردت، فأرسل مروان فجمع الحيين من بني هاشم وبني أميّة فتكلّم مروان وقال: أمّا بعد فإنّ أمير المؤمنين معاوية أمرني أن أخطب زينب بنت عبد الله بن جعفر على يزيد بن معاوية على حكم أبيها في الصداق وقضاء دينه بالغاً ما بلغ وعلى صلح الحيين: بني هاشم وأمية، ويزيد بن معاوية كفو من لا كفو له، ولعمري لمن يغبطكم بيزيد أكثر ممّن يغبط يزيد بكم، ويزيد من يُستسقى الغمام بوجهه ثم سكت.

فتكلّم الحسن عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «**أمّا ما ذكرت من حكم أبيها في الصداق، فإنا لم نكن لنرغب عن سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أهله وبناته، وأمّا قضاء دين أبيها فمتى قضت نساؤنا ديون آبائهنّ؟ وأمّا صلح الحيين فإنا عاديناكم لله وفي الله فلا نصالحكم للدنيا.**

وأمّا قولك من يغبطنا بيزيد أكثر ممّن يغبطه بنا، فإن كانت الخلافة فاقت النبوّة فنحن المغبوطون، وإن كانت النبوّة فاقت الخلافة، فهو المغبوط بنا. وأمّا قولك إنّ الغمام يُستسقى بوجه يزيد، فإن ذلك لم يكن إلا لآل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد رأينا أن نزوّجها من ابن عمها القاسم بن محمد بن جعفر وقد

زوجتـه منهـا، وجعلت مهرها ضيعتـي التي لي بالمدينـة، وكان معاوية أعطاني بها عشرة آلاف دينار، ولها فيها غنى وكفاية[1].

وعـن معاوية بن حذيج قال: أرسلنـي معاوية بن أبي سفيان إلى الحسن بن علـيّ أخطـب على يزيـد بنتاً له أو أختاً له فأتيته فذكرت لـه يزيد فقال: إنا قوم لا نـزوّج نساءنـا حتى نستأمرهنّ، فأتيتهـا فذكرت لها يزيد فقالت والله لا يكون ذلـك حتـى يسير فينا صاحبك كمـا سار فرعون في بني إسرائيـل يذبح أبناءهم ويستحيـي نساءهـم فرجعـت إلى الحسـن عليه السلام فقلت: أرسلتنـي إلى فلقة من الفلـق تسمّي أميـر المؤمنين فرعون. قال: يا معاوية إيّـاك وبغضنا فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قـال: لا يبغضنـا ولا يحسدنـا أحـد إلّا زيـد يـوم القيامة عـن الحوض بسياط من نار»[2].

(1) بحار الأنوار، ج44، ص120، الحديث 13.
(2) مقتل الخوارزمي، ج1، ص124؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج4، ص278.

أساليب السيدة زينب عليها السلام التبليغيّة

عناية الله شريفي(*)

حياتها

وُلدت السيّدة زينب عليها السلام في الخامس من جمادى الأولى في العام الخامس أو السادس الهجري[1]، أي بعد عامين أو ثلاثة من ولادة أخيها الإمام الحسين عليه السلام في المدينة المنوّرة، وهي ثالثة أبناء علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام ، وتكنى بأمّ كلثوم وأم الحسن[2].

ألقاب السيدة زينب عليها السلام

1. العقيلة: عقيلة بني هاشم، عقيلة الطالبيّين، عقيلة النساء، عقيلة قريش.
2. زينب الكبرى.
3. الصدّيقة الصغرى.
4. العالِمة غير المعلّمة.
5. العارفة.
6. العاملة.
7. شريكة الحسين عليه السلام.

(*) كاتب إيراني في مجلة مبلغان.

(1) أخبار الزينبيات، أبو الحسن يحيى بن حسن العلوي، ص23.

(2) زينب الكبرى عليها السلام عقيلة بني هاشم، حسن إلهي، ص62.

8 ـ **الشجاعة.**

9 ـ **محبوبة المصطفى.**

10 ـ **الزاهدة.**

11 ـ **الباكية.**

تزوّجت زينب الكبرى ابن عمّها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب في العام السابع عشر الهجريّ بناءً على إشارة من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**بناتنا لبنينا وبنونا لبناتنا**»[1].

أمّا نتيجة هذا الزواج فخمسة أبناء: محمّد، جعفر، عون، عليّ وأم كلثوم وقد استشهد عون ومحمد مع الإمام الحسين عليه السلام.

واجهت السيّدة زينب عليها السلام في حياتها حوادث ومشكلات ومصائب جمّة حتى أُطلق عليها عنوان «**أمّ المصائب**».

وأمّا أهمّ الحوادث التي تعرّضت لها فهي:

1 ـ وفاة جدّها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في العام العاشر الهجريّ، وكان لها من العمر خمس سنوات.

2 ـ ظهور الخلاف حول خلافة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في العام العاشر الهجريّ، حيث كان هذا الأمر من أعظم المصائب التي شهدها العالم الإسلاميّ.

3 ـ شهادة والدتها السيّدة الزهراء، في العام العاشر الهجريّ.

4 ـ المشكلات التي ظهرت في فترة خلافة والدها الإمام عليّ عليه السلام (حرب الجمل، صفين والنهروان).

5 ـ شهادة أبيها الإمام عليّ عليه السلام في العام أربعين الهجريّ.

6 ـ شهادة أخيها الإمام الحسن عليه السلام ومسألة دفنه في البقيع في العام خمسين الهجريّ.

(1) من لا يحضره الفقيه، ج3، ص293.

7. قضية عاشوراء عام 61هـ وشهادة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه وشهادة أبنائها.

8. الأسر.

فضائل السيّدة زينب عليها السلام

للسيّدة زينب عليها السلام فضائل ومناقب كثيرة وقد قيل حول ذلك: «**فإنّ فضائلها وفواضلها وخصالها وجلالها وعلمها وعملها وعصمتها وعفتها ونورها وضياءَها وشرفها وبهاءَها تالية أمّها صلوات الله عليها**»[1].

مقامها العلميّ

لعلّ مقامها العلميّ من أبرز فضائلها وخصائصها، فهي عالمة، متحدّثة فصيحة وبليغة وكانت تقوم مقام نيابة الإمام الحسين عليه السلام في توضيح الحلال والحرام الإلهيّين، ويُروى أنّ الناس كانوا يرجعون إليها حول الحلال والحرام في فترة أسرها حيث كان الإمام السجّاد عليه السلام مريضاً[2].

يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «**يا عمّه أنت بحمد الله عالمة غير معلّمة وفهمة غير مفهّمة**»[3] ومن هنا ندرك أنّ علمها لم يأتِ عن طريق الأستاذ بل من قبل الله تعالى.

هناك اختلاف حول نهاية حياتها ومن غير الواضح أين توفّيت، فهل توفّيت في الشام، أم المدينة، أم القاهرة؟ من المؤكّد أنها لم تعش مدّة طويلة بعد عودتها من الشام، وتوفّيت غروب اليوم الخامس عشر من رجب عام 62هـ[4].

(1) الطراز المذهب، ص6، نقلاً عن كتاب زينب الكبرى عليها السلام عقيلة بني هاشم، حسن إلهي، ص83 ـ 84.
(2) زينب الكبرى، نقدي، جعفر، ص35.
(3) بحار الأنوار، المجلسي، ج45، ص64.
(4) حياة فاطمة الزهراء، شهيدي، جعفر، ص261 ـ 262.

الأساليب التبليغيّة للسيّدة زينب عليها السلام

إذا اعتبرنـا أنّ حادثـة كربلاء قد وجدت من خلال الإمام الحسين عليه السلام فإنّ الذي أحيى هذه الظاهرة وأوضحها وبيّنها هو السيّدة زينب عليها السلام .

تولّـت السيّـدة زينـب عليها السلام بعد عصر اليـوم العاشر مـن المحـرّم مسؤولية الحفاظ على ثورة الإمـام الحسين عليه السلام وإرسال خطابها وأهدافها وشعارها أي «**هيهات منّا الذلّة**» إلى أنحاء العالم.

واجهت السيّدة زينب عليها السلام طريقاً مليئاً بالصعاب في هذه المهمّة، حيث كان عليهـا أن تتحـدّث بين جماعة كأنّهم صُمٌّ لا يسمعون، وعميٌ لا يبصرون، لا بل بين جماعة غارقة في الجهل والحماقة.

وعلـى هذا الأساس كان عليها في هذه المرحلـة التفكير ملياً واتخاذ القرارات والاستفـادة مـن الفرص لتوقـظ الناس من غفلتهـم وتقدّم لهـم المعرفة والوعي ليشعروا بالمسؤوليّة وهذا يعني إعدادهم للثورة لاحقاً.

لقد أدّت خطابات وكلمات السيّدة زينب عليها السلام إلى إفشال المؤامرات المشؤومة التـي كان يخطّـط لها اليزيديـون، أمّا أهـمّ السياسات والأساليـب التبليغية التي اتبعتها السيّدة زينب عليها السلام فهي:

1 ـ البكاء وإقامة مجالس العزاء

بعـد شهـادة الإمـام الحسيـن عليه السلام وأصحابه، بـدأت السيّـدة زينب عليها السلام تتحرّك حول الأجساد الطاهرة، وتقول: «**وا أخاه وا سيّداه وا أهل بيتاه. ثم قالت: ليت السماء أطبقت على الأرض وليت الجبال تدكدكت على السهل**»[1].

(1) بحار الأنوار، ج6، ص54.

وعندما اقتادوها أسيرة وعبروا بها من أمام الأجساد الطاهرة باقتراح من الشمر اللعين، انحنت السيّدة زينب عليها السلام أمام جسد أبي عبد الله عليه السلام وقالت: «**يا أخي لو خُيِّرت بين الرحيل والمقام عندك لاخترت المُقام عندك ولو أنّ السباع تأكل من لحمي**»[1].

وروى البعض أنها توجّهت في هذه الأثناء نحو المدينة، ثم قالت: «**وا محمداه صلّى عليك ملائكة السماء، هذا حسين مرمّل بالدماء مقطّع الأعضاء وبناتك سبايا**»[2]، يقول الراوي إنها كانت تبكي بأسلوب جعلها كما يقول البعض: «**فأبكت والله كلّ عدو وصديق**»[3].

يتّضح لنا من خلال هذه الأعمال التي قامت بها السيّدة زينب عليها السلام أنها تريد تقديم دروس وعبر إلى جنود جيش العدوّ، كانت تريد منهم أن يدركوا الجريمة والجناية التي ارتكبوها، وأرادت منهم أن يدركوا بأنّ هذه المعركة كانت معركة مع القرآن والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وأرادت السيّدة زينب عليها السلام من خلال البكاء والعبارات التي كانت تتلفّظ بها أن توقظ عواطف وأحاسيس الناس وتشجّعهم على القيام والثورة ضدّ الظالمين اليزيديين.

عندما كانت السيّدة زينب عليها السلام في الشام أقامت في منطقة يُطلق عليها «**دار الحجارة**» مراسم عزاء على شهداء كربلاء، وكان لهذا المجلس من الآثار أن دفع المشاركين إلى التفكير بمهاجمة يزيد وقتله[4]. وبعد تحمّل كلّ المصائب التي وقعت في كربلاء، نرى السيّدة زينب عليها السلام تعود إلى المدينة لتقيم مراسم العزاء

(1) معالي السبطين، ج2، ص55.
(2) عزاء آل محمد، ص393.
(3) معالي السبطين، ص31؛ بحار الأنوار، ج45، ص59؛ نفس المهموم، ص210.
(4) الجزائري، السيد نور الدين، الخصائص الزينبية، ص296.

فـي مدينة رسـول الله ﷺ، واستمرّ هذا الوضع حتى فهمـت القبائل والعشائر ما جرى في كربلاء وبدأ البعض منهم يفكّر بالانتقام لشهداء كربلاء[1].

2ـ الخطابة

عندمـا وصلت قافلـة الأسرى إلـى الكوفة تجمّـع الناس كباراً وصغـاراً ونساءً ورجـالاً عند البوّابات والمعابـر وذلك بهدف مشاهدة الأسـرى، هناك كان بعض المتجمّعين يبكي والبعض الآخر أتى للبهتان وآخرون كانوا منزعجين ممّا يحصل.

استجمعـت السيّـدة زينب عليها السلام قواهـا ونظرت إلـى الناس، فسكـت الجميع فبدأت الخطابة وبكلمات وجمل دقيقة وقوية، قالت:

«الحمـد لله والصـلاة على أبي محمّد وآله الطيبيـن الأخيار، أمّا بعد يا أهل الكوفـة، يـا أهل الختل والغـدر أتبكون؟ فلا رقأت الدمعة ولا هـدأت الرنة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً تتخذون إيمانكم دخلاً بينكم، ألا وهـل فيكـم إلا الصَّلف والنطـف والصَّدر الشنف وملق الإمـاء وغمز الأعداء وهل أنتم إلا كمرعى على دمنةٍ أو كفضّة على ملحودة...»[2].

تحدّثـت فـي البداية عن الرسـول ﷺ وعبرت عنـه بكلمة «أبـي» حيث أرادت بذلك تعريف الآخرين بالأسـرى الموجودين في القافلة لتتضح النسبة بينها وبين النبيّ ﷺ ويفهم الحاضرون أيّ أشخاص هؤلاء الموجودون في القافلة. ثم أشارت إلـى نقطة هامة تؤكّد فيهـا على نقطة الضعف عند أهل الكوفة أي النكث بالعهود، حيث أرادت بذلك إخبارهم بخصالهم.

(1) عماد زاده، حسين، زينب الكبرى عليها السلام، ص150.
(2) ترجمة اللهوف، 146ـ148.

ثمّ تابعت الحديث في خطابها تتحدّث عن شخصيّة الإمام عليه السلام حتى لا يبقى أيّ شـكّ وترديد عند الناس وحتى لا يبقى أيّ عذر لديهم. كانت تتحدّث مع الناس وتعتبرهـم هم الذيـن قتلوا الإمـام الحسين عليه السلام وآل بيـت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. نعم، لقـد بدّل خطابها الموقف حتى ضجّت الكوفـة بالصراخ والعويل. ورسمت السيّدة زينـب عليها السلام صـورة أخرى عن القيامـة جعلتها ماثلة أمام أعيـن الناس: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾[1].

ولم تكتفِ السيّدة زينب عليها السلام بمخاطبة أهل الكوفة بل تحدّثت في دار الإمارة أمـام ابن زياد بجـرأة وقوّة. وعند وصولهـا إلى الشام تحدّثت بجـرأة أمام يزيد موضحة ما اقترفته يده وفاضحة إيّاه أمام الملأ.

3ـ ارتداء السواد

إنّ التدبيـر والتعقّـل كانـا مـن العوامـل الأساسيّـة لموفّقيـة ونجـاح السيّدة زينب عليها السلام. وزينب عليها السلام معروفة بالتدبير والتعقّل قبل قضيّة عاشوراء والأسر، حتى إنه أطلق عليها لقب عقيلة بني هاشم وعقيلة النساء...

بشكل عامّ كان للتدبير والتعقّل دور كبير في نجاحها في أعمالها وإلّا فلن تتمكّن مـن مواجهة يزيد وأزلامه، من جملة الأمور التي لجأت إليها السيّدة زينب عليها السلام إقامـة مجالس العزاء في الشـام والمدينة وقد طلبت من النسـاء ارتداء السواد، فقالـت: «**اجعلوهـا سـوداء حتـى يعلـم الناس أنّـا في مصيبـة وعزاء لقتـل أولاد الزهراء** عليها السلام».

صحيح أنّ الأعداء لا يهتمّون بهذه الأمور ويعتبرونها غير ذات قيمة، إلّا أنّ هذه الأعمال هي التي مهّدت لقيام الناس للثأر من قاتلي الإمام عليه السلام.

(1) سورة الفرقان، الآية: 27.

4ـ سلوكها النابع من علمها

من جملة أسباب نجـاح السيّدة زينب عليها السلام في إيصال رسالة الإمام الحسين عليه السلام أنهـا كانت تقـرن التبليغ بالعمل، وكانت تسعى للعمـل بالتكليف الإلهيّ ولم تتساهل في قضايا الحلال والحرام.

يُـروى أنّ الناس في الكوفة تقدّموا إلـى الأسرى مشفقين على الأطفال فأخذوا يقدمـون لهم الخبز والتمر، عند ذلك علا صـوت أمّ كلثوم[1] قائلة لهم: الصدقة حـرام علينا فكانت تأخذ الخبز والتمر مـن الأطفال وتعيده إلى الناس[2]. والأكثر مـن هذا أنها كانـت تقسم طعامها بين الأطفال فبقيت ثلاثـة أيام جائعة لم تأكل شيئاً وكل ذلك كي لا تسمح بدخول الصدقة إلى أفراد القافلة.

من الموارد العمليّة الأخرى التي كانت محطّ عمل تبليغيّ من قبل السيّدة زينب عليها السلام هـو حفظ الحجاب، فحافظت السيّـدة زينب عليها السلام على الحجاب وابتعدت عن الأنظار حتى في أكثر الظروف صعوبة.

يقول الـراوي: عندما رجعت من سفر الحجّ، دخلت الكوفة فوجدت الأسرى قد دخلوها ورأيت الإمـام السجّاد على بعير، فسألت: من هي؟ فقالوا: زينب الكبرى، رأيتها تتحدث إلى الناس بصوت عالٍ تطلب منهم غضّ الأبصار عن آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتطلب منهم الحياء من الله ورسوله[3]...

أرادت السيّدة زينب عليها السلام من خلال عملها أن تنبّه الجميع إلى أنّ الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه قد استشهدوا من أجل إحياء الأحكام الإلهية، ولهذا السبب أيضاً اقتيد النساء والأطفال أسرى، وأنّ بني أمية ويزيد على وجه التحديد هم الذين يعملون على تحريف الدين الإلهيّ.

---

(1) يعتقد البعض أن المقصود من أم كلثوم هنا السيدة زينب عليها السلام.
(2) بحار الأنوار، ج4، ص114.
(3) مقتل المقرم، ص371.

5ـ الدعاء والعبادة

الدعاء والعبادة واحد آخر من الأساليب التبليغية التي اتبعتها السيّدة زينب عليها السلام. كانت تعلم بأنّ الأعداء ينتظرون منها أيّ موقف يدلّ على الضعف إلّا أنها وقفت أمام الشهداء وتوجهت نحو جسد أبي عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعت الله تعالى: «**اللهم تقبّل منا هذا القربان**»[1].

ويشير هذا الدعاء إلى صلابة السيّدة زينب عليها السلام وثباتها رغم المصائب التي لحقت بها ثم خاطبت الله تعالى قائلة: «**يا عِمَادَ من لا عمادَ له ويا سَنَدَ مَنْ لا سَنَدَ له، يا من سَجَدَ لك سوادُ الليل وبياضُ النهار، وشعاعُ الشمس، وحفيفُ الشجر، ودويُّ الماء، يا الله، يا الله، يا الله**»[2].

وقد دعت في مجلس يزيد قائلة: «... **اللهمّ خُذْ بحقّنا، وانتَقِمْ ممن ظَالَمَنا واجعَل غضَبك على من سَفَك دماءَنا، ونقضَ ذمامَنا، وقَتَل حُماتنا، وهَتضك عنّا سُدُولَنَا**»[3].

6ـ الاستعانة بمبادئ نفسيّة

صحيح أنّ الحرب النفسيّة من ابتكار العلوم المعاصرة، إلّا أنه يجب القول بوجود هذا الأسلوب في الأصول السماوية، وقد استعان أهل البيت عليهم السلام بهذا الأصل. واستعانت السيّدة زينب عليها السلام في حربها ضدّ الأعداء بهذا الأصل فكانت تبيّن في خطاباتها مدى حقارة وصغر العدوّ وتثني على الأصحاب وتحرّك العواطف...

عندما خاطبت أهل الكوفة أكّدت بداية على أصالة العائلة التي تنتمي إليها لذلك تحدثت عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما شاهدته واصفة إيّاه بالأب لتلفت أنظار الناس

(1) المصدر نفسه، ص307.
(2) آل بيت النبي في مصر، ص52ـ53.
(3) بحار الأنوار، ج45، ص133ـ135.

إلى انتماء هؤلاء الأسرى... وفي أثناء مخاطبتها يزيد قائلة له: «**كيف يُرتجى مراقبة من لفظ فوه أكبَادَ الأذكياء، ونبتَ لحمُه من دماء الشهداء...**»[1].

وإذا قارنّا بين خطبتي السيّدة زينب في الكوفة والشام لوجدنا أنها كانت تعرف المخاطّب، فالمخاطَبون في الكوفة هم من الناس الجاهلين بما يجري من حولهم، لذلك خاطبتهم بناءً على ما هم فيه وأطلعتهم على ما ارتكبوه. أمّا المخاطَبون في الشام في مجلس يزيد فهم من الخواصّ العارفين بالأوضاع، لذلك اختلف لحن الخطاب.

ما تقدّم هو خلاصة عن الأساليب التي اعتمدتها السيّدة زينب عليها السلام في التبليغ، وهناك أساليب أخرى يمكن الإشارة إليها كالشجاعة والشهامة والفصاحة والبلاغة...

(1) المصدر نفسه.

إرهاصات أرضيّة إحياء العلوم الإسلاميّة في زمان الإمام الباقر عليه السلام

آيت عباسيان(*)

أسّس الأئمّة المعصومون الإثنا عشر عليهم السلام الجامعة الإسلاميّة وأوصلوها إلى مستواها الامكاني الأعلى. أمّا الأئمة الأربعة الأوائل فقد افتتحوا هذه الجامعة التي جوبهت وللأسف بحملات واسعة من الجهل والضلال والحروب والحوادث وجعل الأحاديث والخصومات، فلم تتسنَّ لهم الفرصة لتوسيع نطاقها. يقول الإمام عليّ عليه السلام وهو بقول رسول الله «**باب مدينة العلم**»(1): «**سلوني قبل أن تفقدوني**»(2). وكان كلّ من وجّه سؤالاً إليه، يجد أمامه بحراً فيّاضاً زاخراً من العلم والفضيلة، إلّا أنّ الأعداء كانوا يشكّلون الحاجز والمانع الحقيقيّ أمام انتشارتلك العلوم.

وواجه الأئمّة الحسن والحسين وزين العابدين عليهم السلام وبكلّ ما أوتوا من قوّة ما كان يمارسه الأعداء من مكر وحيل، ومع ذلك تمكّنوا من إثبات حقّهم واغتصاب بني أميّة للخلافة. وقد أوجدت ثورة الإمام الحسين عليه السلام الدامية ثورة فكرية قام الإمام زين العابدين عليه السلام بنقلها إلى الآخرين في قالب من الدعاء والتضرّع والتعليم.

وعمل الأئمّة عليهم السلام الأربعة اللاحقون على تهيئة الأرضيّة لتدريس العلوم الإسلاميّة، فانتشرت العلوم وتوجّه الطلاب للارتواء من علوم أهل البيت عليهم السلام

(*) كاتب إيراني في مجلة مبلغان.

(1) مناقب علي بن أبي طالب، ص83.

(2) بحار الأنوار، ج10، ص128، الرواية 7.

وفي مجـالات عديدة: أصول الديـن، فقه الإسلام، الطـبّ، الرياضيّات، الأخلاق والفضائل وغيرها. وكان الإمام الباقر عليه السلام طليعة هؤلاء الأئمّة الأربعة.

من هو الإمام الباقر عليه السلام ؟

والـده الإمـام زين العابديـن عليه السلام ووالدته فاطمـة «**أمّ عبـد الله**» ابنة الإمام الحسن عليه السلام. وهو أوّل علويّ يعود نسبُه من ناحية الأب والأمّ إلى فاطمة الزهراء عليها السلام: «**إنّ الإمـام الباقـر عليه السلام هاشمـيّ مـن هاشميّيـن، وعلويّ مـن علويّين وفاطميّ من فاطميّين؛ لأنه أوّل من اجتمعت له ولادة الحسن والحسين عليهما السلام وكانت أمّه أمّ عبد الله بنت الحسن بن علي** [1] عليه السلام.

وُلـد الإمـام عليه السلام في أوّل رجـب، أو في الثالث من صفر عـام 57هـ.ق حسب اختـلاف الروايات في المدينة المنوّرة، وتوفّـي يوم الاثنين السابع من ذي الحجّة عام 114هـ.ق في المدينة عن عمر 57 سنة. وقبره في البقيع إلى جانب قبر والده الإمام زين العابدين عليه السلام.

امتـدّت إمامتُـه لتسع عشرة سنة وعشرة أشهر واثنـي عشر يوماً (من عام 95 إلى 144هـ.ق). وقد مات مسموماً بأمر من هشام بن عبد الملك (الخليفة الأمويّ العاشر).

الخلفاء المعاصرون للإمام الباقر عليه السلام

عاصر الإمام عليه السلام مجموعة من الخلفاء وهم:

1 ـ الوليد بن عبد الملك.

2 ـ سليمان بن عبد الملك.

(1) المصدر نفسه، ج46، ص215، الرواية 13.

3 ـ عمر بن عبد العزيز.

4 ـ يزيد بن عبد الملك.

5 ـ هشام بن عبد الملك.

ويمكـن القـول إنّ جميع هؤلاء الخلفاء باستثناء عمر بـن عبد العزيز كانوا من الظالمين لأهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

1 ـ الوليد بن عبد الملك

ترافقـت خلافته مع اتساع المملكة الإسلاميّـة وانتصار المسلمين على الكفّار حيث اتسعت المملكة في الشرق والغرب فالتحقت أقوام كثيرة بالإسلام بالأخصّ في الهند وكابل وطوس... وامتدت إلى الأندلس[1].

وكان هذا الخليفة فاسداً غير مؤمن بالله، ظالماً وطالباً للأهواء والرذائل[2].

2 ـ سليمان بن عبد الملك

كانـت مدّة خلافتـه قصيرة إذ لـم تستمرّ لأكثر مـن ثلاث سنـوات[3]. أظهر الليونـة في بداية خلافته فأطلق سراح كافّة السجنـاء الذين اعتقلهم الحجّاج بن يوسـف وأزاح عامله على الخزينة. فتمكّن بذلك من تقديم صورة جميلة عن نفسه بيـن النـاس، لكنّ المدّة لم تطل حتّـى بدأ الظلم. وأخذ يعـاون بعض القبائل ضدّ أخرى[4] ومن جملة خصائصه الحرص الكبير، كثرة الأكل واشتغاله باللهو[5].

(1) الأندلس أو تاريخ حكومة المسلمين في أوروبا، د. محمد إبراهيم آيتي، ص17 ـ 18.
(2) راجع: مروج الذهب، المسعودي، ج3، ص96.
(3) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج5، ص11 و37.
(4) تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، ص197.
(5) مروج الذهب، ج3، ص175.

3 ـ عمر بن عبد العزيز

تُعتبر مرحلة خلافة عمر بن عبد العزيز من المراحل التي لم يمارس فيها ظلم كبيـر بحـقّ أهل البيت عليهم السلام حيث كان عادلاً إلى حـدود معيّنة. أصدر قراراً عند وصوله إلـى الخلافة بالتعويض على كلّ من تعرّض للظلم والاضطهاد في السابق. وطلـب عـدم القضاء بحقّ أيّ شخصـ إلّا بعد أخذ مشورتـه[1]. عمل على محاربة الفسـاد، فباع أحصنـة الخلافة في المزاد العلنيّ وعرضـ البسة سليمان بن عبد الملـك للبيع حيث بلـغ ثمنها في تلك المرحلة أربعة وعشريـن ألف دينار، واستردّ مـن زوجته كافّة الجواهر والهدايا التـي حصلت عليها من والدها أو من زوجها أو من بيت المال[2]. وكذلك أعاد إلى بيت المال ما كان قد اغتصبه أولاد عمومته من بيت المال أو من الناس ثمّ أعادها إلى أصحابها[3].

هدده بنو أميّة بالثورة على خلافته لكنه كان يقول لهم بأنه لا يخاف شيئاً سوى حسـاب القيامة[4]. واتبع أفضل أسلوب وطريـق لمواجهة الفساد فبدأ من بيته ثم من بيت الخليفة السابق، وبعد ذلك عمل على توسيع دائرة المواجهة تلك.

إنجازات عمر بن عبد العزيز

1 ـ منع سبّ عليّ عليه السلام

تُعتبر مسألة سبّ الإمام عليّ عليه السلام من البدع المشؤومة التي أوجدها معاوية. وقد تحدث التاريخ بأنّ معاوية عمد عام 40هـ. إلى إجبار أصحاب الإمام بالسيف والتهديد على الصعود إلى المنابر لسبّ الإمام عليه السلام ومنعهم من ذكر فضائله...

(1) تاريخ اليعقوبي، ابن واضح، ج3، ص50.
(2) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج2، ص116.
(3) تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص232.
(4) الأخبار الطوال، أبو حنيفة الدينوري، تحقيق عبد المنعم عامر، ص331.

ثمّ أمر الجميع بسبّ الإمام عليه السلام أيام الجمعة من على المنابر. هنا قام عمر بن العزيز بدورٍ في منع سبّ الإمام عليه السلام[1].

2ـ إرجاع فدك إلى أولاد فاطمة الزهراء عليها السلام

قيل إنّ عمر بن عبد العزيز التقى الإمام الباقر عليه السلام في المدينة[2] وأعاد إليه فدك إلا أن الخليفة يزيد بن عبد الملك اغتصبها من جديد.

3ـ الحؤول دون وقوع بعض الانحرافات

لعلّ من أبرز إنجازات عمر بن عبد العزيز إزالة منع الحديث. ومنع الحديث من أكبر الانحرافات التي حصلت في التاريخ الإسلامي بعد وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وقد منع الخليفتان الأول والثاني كتابة الحديث لأهداف سياسيّة. وكان أبو بكر يأمر بعدم نقل شيء من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعند السؤال حول مسألة ما يمكن الاجابة عليها من وجهة نظره بوجود كتاب الله، والقرآن الكريم حلاله حلال وحرامه حرام[3]. وكذلك أمر عمر بإزالة كل ما كتب من حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم[4].

ومنع عمر أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الذين يسافرون إلى الأطراف من رواية الحديث عنه، وقد سجن ابن مسعود وأبو الدرداء وأبو ذرّ. وقيل إنّ عبد الله بن عمر كان يكتب أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلّا أنه أخفاها خوفاً من المنع[5].

كان أبو بكر يذكر الدليل والدافع على ما يقوم به حيث كان يعتقد بضرورة إزالة الحديث حتى لا يختلط مع القرآن الكريم[6].

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج3، ص57.
(2) الخصال، الشيخ الصدوق، باب الثلاثة.
(3) تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبي، ج1، ص3.
(4) أضواء على السنة المحمدية، محمود أبو ريه، ص43.
(5) سيرة الأئمة، مهدي بيشوائي، ص324ـ325.
(6) أضواء على السنة المحمدية، محمود أبو ريه، ص43.

من جهة أخرى فإنّ هذا الكلام مرفوض لسببين:

1 ـ عندما رحل رسول الله ﷺ إلى جوار ربّه كان قد ضبط وعَيّن آيات وسور القرآن الكريم، وقد حفظها الحفظة بحيث يمتنع اختلاطها بغيرها.

2 ـ القـرآن معجـزة وهذا يعنـي أنّ أيّ كلام آخر لا يدانيه مـن حيث الفصاحة والبلاغة والسهولة والجاذبيـة وتركيب الجمل. وهذا يعني أنّ آيات القرآن الكريم كالجواهر المتلألئة بين عبارات نهج البلاغة حيث لا تختلط بها على الإطلاق.

نقـل بعض المحدّثيـن الرواية الآتية عن الرسول الأكـرم ﷺ: «**لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن من كتب شيئاً سوى القرآن فليمحه**»[1].

فهل هذا يعني أنّ الرسول ﷺ منع كتابة الحديث؟ وفي الجواب نقول بأنّ هذا الأمر لا أساس له من الصحّة لسببين:

1. **ضبط الإمام عليّ عليه السلام الكثير من الأحاديث التي انتقلت إلى الأئمّة عليهم السلام من بعده. فلو منع رسول الله ﷺ كتابة الحديث فلن يُقْدم عليه الإمام عليّ عليه السلام.**
2. **كتبت في حياة الرسول ﷺ أكثر من 300 رسالة في مجالات الأحكام والفرائض والمرافعات والسياسات.**

استفـاد بعض المزوّرين والكاذبين مـن قضيّة منع كتابة الحديث فقاموا بجعل البعض منها بمـا يصبّ في مصلحـة الحكومات والحـكّام. عندما يتـمّ الاكتفاء بالحافظـة يكثر الادعاء والنسبة إلى رسـول الله ﷺ. ولكن لِمَ فعلوا ذلك؟ أليس كلام الرسـول ﷺ حجّـة كما القرآن؟ أليس من الواجب علـى المسلمين اتباعه؟ ألـم يتحـدّث القرآن الكريم عن أنّ الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى إنّ هو إلا وحي يوحى[2]؟

(1) مسند أحمد ابن حنبل، ج3، ص12.
(2) سورة النجم، الآيتان: 3 ـ 4.

جاء في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[1].

4. يزيد بن عبد الملك

تُعتبر مرحلة خلافة يزيد بن عبد الملك من أكثر المراحل ظلاماً في تاريخ بني أميـة. تولّى ولاية العهد أثناء خلافة عمر بـن عبد العزيز فظهر على أنه شخصية مقبولـة، لذلك كان رضى الناس عنه كبيراً، أثناء موت عمر بن عبد العزيز، ولكنّ الأيام لم تطل حتّى بدأ الظلم. كان شديد التلهّي بالأهواء والمفاسد فبدّل القصر إلى مكان للفساد[2].

5. هشام بن عبد الملك

عمـل هشام بن عبد الملك بشكل كبيـر ومركّز على جمع الثروات والعمران[3]. واجه أثناء خلافته العديد من الثورات الداخلية حيث قضى عليها ثمّ عمل على إطفاء جذوة الحرب الخارجية. في هذه المدّة ازداد الضغط على الحكومة المركزيّة من قبل قبائل التركمان والخزر، ثمّ بدأت المؤامرات الخفية للعباسيّين ضدّ الحكومة الأموية. ازدادت حركة اعتراض الناس على الحكومة بسبب تصرّفاتها اللامقبولة وبسبب وجود غير اللائقين على رأس السلطة.

كان هشـام إنسانـاً بخيـلاً، خشناً، ظالمـاً، لا يحمل في قلبه أيّ نـوع من أنواع الرأفة[4].

(1) سورة الحشر، الآية: 7.
(2) سيرة الأئمة، ص334 ـ 336.
(3) مروج الذهب، ج3، ص205.
(4) تاريخ اليعقوبي، ج3، ص70.

ظروف نشأة الجامعة الدينيّة على يدي الإمام الباقر عليه السلام:

بـدأت حالة التململ وعدم الرضا من الخلفـاء في أيام الإمام الخامس عليه السلام وشهـدت البلاد الإسلاميّة العديد من الثورات الداخلية الرافضة لحكم بني أمية. صحيح أنّ العديد من هذه الثورات لم يكتب لها النجاح إلا أنها احتلّت مكاناً خاصّاً مـن اهتمامات الخلفاء فوجد الأئمة عليهم السلام فـي ذلك فرصة مناسبة لإحياء السنّة النبوية.

بدأ الإمام الباقر عليه السلام عمليّة التدريس وتعليم الدين فأمضى عمره في ذلك، حيـث لم يكن عنده فرصة للاستراحة، وكانـت مسؤوليّاته كبيرة في إيقاظ الناس وتعريفهـم بالحقائـق الدينية التـي بدأ النسيـان يطالها. اتسمـت مدرسة الإمام الباقر عليه السلام بأنها مدرسة الفضيلة والإحسان فتربّى على يديه العديد من الطلبة.

تلامذة مدرسة الإمام الباقر عليه السلام:

هناك العديد من الشخصيّات التي نهلت العلم من مدرسة الإمام عليه السلام ومن أبرز هؤلاء: محمّد بن مسلم، زرارة بن أعين، أبو بصير، بريد بن معاوية العجليّ، جابر بن يزيد، حمران بن أعين، وهشام بن سالم.

يُنقل عن الإمام السادس عليه السلام قوله: «... **بريد بن معاوية العجلي، وأبو بصير، ومحمّد بن مسلم وزرارة أربعة نجباء أمناء الله على حلاله وحرامه. لولا هؤلاء انقطعت آثار النبوّة واندرست**»[1].

تواضع العلماء أمام الإمام الباقر عليه السلام

يقول عبد الله بن عطاء في توضيح فضائل الإمام الخامس العلميّة: لم أرَ صغر وتواضع علماء الإسلام في أيّ مجلس كما كنت أراهم في مجلس محمّد بن علي

(1) اختبار معرفة الرجال، الشيخ الطوسي، تصحيح حسن مصطفوي، ص136، الحديث 219.

عليه السلام وكنت أرى «**الحكم بن عتبة**» المشهور في العلم والفقه يجلس أمام الإمام الباقر عليه السلام كالطفل عندما يجلس أمام أستاذ عظيم[1]...

لقد ساهم النشاط العلمي للإمام الخامس عليه السلام وكذلك الطلبة الذين تربّوا في مدرسته في تحقيق تلك الأمنيّة التي تحدّث عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. يقول جابر بن عبد الله الأنصاريّ (رض) وهو من الشخصيات الهامة في صدر الإسلام: «**... سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إنك ستدرك رجلاً مني اسمه اسمي وشمائله شمائلي يبقر العلم بقراً... قال فبينما جابر ذات يوم يتردّد في بعض طرق المدينة إذ مَرّ محمّد بن علي عليه السلام فلمّا نظر إليه قال: يا غلام أقبل فأقبل فقال: أدبر فأدبر، فقال شمائل رسول الله والذي نفس جابر بيده ما اسمك يا غلام؟ قال محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فقبّل رأسه ثمّ قال: بأبي أنت وأمي، أبوك رسول الله يقرئك السلام...**»[2].

(1) علم الحديث ودراية الحديث، كاظم مدير شانه جي، نشر جامعة المدرسين، ص67.
(2) بحار الأنوار، ج46، ص225، الرواية 5.

الباب الثالث

مجتمع وأسرة

- البنى التحتية للإصلاحات الاجتماعيّة
- أساليب التربية الدينيّة

البنى التحتية للإصلاحات الاجتماعيّة

محمود مهدي بور(*)

تشتمل الإصلاحات على جزءَيْن أساسيين مهمَّيْن الفرديّ والاجتماعيّ، ويساعد الإصلاح في كلّ جزء منهما في تحقّق الاصلاح في الجزء الآخر، وتعتبر التقوى والتزكية الأرضية المناسبة للإصلاحات الاجتماعية، والإصلاحات الاجتماعية هي الأرضيّة المناسبة لنموّ الفضائل الأخلاقيّة.

لا يمكن أن تتحقّق الإصلاحات الاجتماعيّة من دون تربية للنفس والفرد، وتفتح الاصلاحات الاجتماعية الطريق أمام التدين ونموّ الفضائل الأخلاقية.

أهمية الإصلاحات الأخلاقيّة

تتألف أرضيّة الإصلاح الاجتماعيّ من إصلاح الأفكار والاعتقادات وإصلاح المثل والأهداف والتوجّهات، وإصلاح المعنويّات، وإصلاح العادات والسلوكيّات، وإصلاح اللسان والقلم. وتعتبر التربية الأخلاقية مقدّمة على أيّ محاولة للإصلاح الاجتماعيّ، لا بل تعتبر التقوى والتزكية مقدّمة على عمليّة تنظيم الإصلاحات القوميّة والوطنيّة.

(*) كاتب إيراني في مجلة مبلغان.

ينقل الشيخ الكليني رَحِمَهُ اللهُ عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: «**من صدق لسانه زكا عمله**»[1] ونقرأ في غرر الحكم الحديث التالي: «**الصدق صلاح كلّ شيء والكذب فساد كلّ شيء**»[2].

لا يمكن أن تتحقّق الإصلاحات الحقيقية من خلال توسيع الشبكات الخبريّة ووكالات الأنباء وزيادة عناوين الصحف والمجلّات. جاء عن الإمام باقر العلوم عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: «**تعلّموا الصدق قبل الحديث**»[3].

ولذلك وقبل التخطيط لتوسيع الإعلام وتقديم الإمكانات الخبريّة ووضع الميزانيّات يجب العمل على التربية الأخلاقية ونشر المعنويّات والصدق...

لا يمكن أن تتحقّق الإصلاحات الاجتماعيّة بوساطة الكذب والخداع... وكلّما ازداد حجم ومقدار مراكز إنتاج وتوزيع الكذب ازداد غبار الجهل وعدم العلم وأصبحت الحياة أكثر اضطراباً، عندها تظلم العدالة والحريّة والمعرفة. لا بل يمكن القول إنّ البشر اليوم هم ضحايا وسائل إعلام الاستبكار الذين يضيّقون الخناق بحجّة الإعلام.

الصدق هو الأساس الأوّل للعدالة، ويظهر عدم العدالة دائماً في هالة من الجهل والكذب. ومن هنا كان ادّعاء الإصلاح من قبل غير الصادقين مجرّد نفاق لا أكثر.

الصدق عبارة عن أمانة تتعلّق بحقوق البشر، والكذب ليس إلّا جريمة بحقّهم. إنّ الذين يخونون الناس بأقوالهم فلن يتعاملوا معهم بصدق في سلوكيّاتهم. وهنا نتذكّر قول الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**الصدق أمانة والكذب خيانة**»[4].

(1) الكافي، ج2، ص104، ح3.
(2) غرر الحكم، الحديث 1119.
(3) الكافي، ج2، ص104، ح4.
(4) ميزان الحكمة، ح10175.

الاصلاح ونظام التعليم والتربية

لقد كان أساتذة الجامعة، والنظام التعليميّ، والمعلّمون والمبلّغون في مقدّمة النهضة الإصلاحية.

لا يمكن أن تتحقّق الإصلاحات الاجتماعيّة من دون الصدق ومن دون وعي وتعاون القيّمين على النظام التعليميّ في الحوزة والجامعة، وما لم تحاول الحوزة والجامعة تطبيق النصوص والأساليب والأهداف... مع الإسلام والقرآن ومعارف أهل البيت عليهم السلام ، ستبقى الإصلاحات مجرّد رؤيا لن تتحقّق.

أبعاد الإصلاح الاجتماعيّ

إنّ الجهل وعدم الاطّلاع على معارف القرآن والعترة عليهم السلام بمثابة أمّ الفساد على المستوى الثقافيّ والاجتماعيّ، ولن تتحقق الإصلاحات إلّا من خلال حالة التعاون بين النظام التعليميّ والتبليغيّ وبمساعدة النظام السياسيّ والاقتصاديّ. عندما تكون الميزانيات والبرامج متوجّهة إلى التوسعة السياسيّة والأحزاب والحرب الإعلامية للمجموعات والأجنحة وحوار الحضارات، أكثر مما هو مرصود لتعليم القرآن والدراسات القرآنية ونشر أفكار المعصومين عليهم السلام ، عند ذلك لن يبقى أيّ مجال للحديث عن الإصلاح الصادق.

عندما نصرف من الميزانيّات على الإرث الثقافيّ أكثر ممّا نصرف على المساجد وهي أكثر الأماكن شعبيّة، عند ذلك ستصبح المساجد في خدمة الإرث الثقافي لا العكس.

أمّا الفقر والبطالة فهما سببان للكثير من المفاسد الاجتماعية، والنظام التعليميّ والتربويّ في البلد هو الذي يمكنه القضاء على الفقر من خلال تربية أجيال مُجدّة ومجتهدة ومؤمنة تتبع الإيثار والتعاون. وما لم يتمّ دعم المعلّمين والأساتذة من الناحيتين الاقتصاديّة والاجتماعيّة، وما دامت مداخيل التجّار

والأبطال في الساحات الرياضية أكثر بكثير من الأساتذة والمعلّمين، عندها لن تكون الإصلاحات سوى رؤيا بعيدة المنال.

وتشكّل الأمراض الجسميّة المقدار الأكبر من مشكلات المجتمع، حيث يساهم تعليم طرق الوقاية في القضاء على الأمراض في اللحظات الأولى.

وتعود جذور الظلم والاعتداء على الآخرين إلى الجهل وتنمو هذه الأمور في المكان الخالي من الإيمان. والحوزة والجامعة هما المكان الوحيد الذي يمكن من خلاله القضاء على الجهل والطمع واستبدال الظلم والظلمة بأنوار الإيمان والأخلاق.

ويعود الفصل العنصري والتمييز إلى الاستكبار الروحيّ. والإسلام يدعو ليكون المسلمون أخوة ومتساوين في النظام الحقوقيّ. ويؤدّي تفضيل بعض الطبقات الاجتماعية على أخرى إلى رواج الكثير من المفاسد الاجتماعية.

لن تتحقّق الإصلاحات الاجتماعية إلا إذا خضعت المجموعات الاجتماعية للقانون الإلهي وليس للقوانين الشرقيّة والغربيّة، أي إذا تمّ التسليم المطلق للقرآن والسُّنَّة النبويّة وقيادة أهل البيت عليهم السلام.

أركان الإصلاح

للإصلاح أربعة أركان في الفكر الإسلاميّ، يشكّل الإيمان بالله والأنبياء والقيامة دعامتها الأساسيّة.

وأمّا هذه الأركان فعبارة عن: «**المعرفة، العبادة، العدالة**»، والوحدة. ولن تتحقّق الإصلاحات من المعرفة الإلهية والرؤية المعنوية، من دون العبودية لله والصلاة والتسليم للقانون الإلهيّ، ومن دون الرضوخ للعدالة وحقوق الآخرين.

إنّ أكبر وأعمق الإصلاحات هي الاصلاحات العقائديّة والإيمانيّة والأخلاقيّة. أمّا الذين يدعون إلى الاستسلام والكفر والشرك فهم في الواقع يحملون لواء

المفاسد الثقافيّة، وهم أعداء الاستقلال والحريّة والعدالة والعيش بسلام.

وأمّا الغفلة عن رسالة السماء وتكبير المالكين بالقهر، فهما أمّ الفساد الثقافيّ.

وأمّا جذور أغلب المفاسد الداخليّة والخارجيّة فتعود إلى سلطة الرأسماليّة وتجّار السلاح وأصحاب وسائل الإعلام حيث تؤثّر هذه الأمور في المصير السياسيّ والاقتصاديّ والثقافيّ للبشر، وهي سبب عدم الاهتمام بالقوانين الإلهيّة وإخراج الله تعالى من أذهان وقلوب البشريّة.

إنّ الإصلاح الاجتماعيّ هو حركة مستمرّة ونسبيّة قد ترتفع تارة وقد تنخفض أخرى، لذلك فإذا اقتربت البشريّة أكثر من المعايير القرآنية وأفكار حاملي الوحي والأحكام الإلهية، عندها تتحقّق الإصلاحات.

إنّ الإصلاح هو حركة توحيديّة، تكامليّة، أخلاقيّة، عادلة، تحرريّة، ومعرفية إيمانية وصادقة، إذا تم التغافل عن هذه الأمور في العملية الإصلاحية فهذا يعني أنّ الإصلاح كاذب.

أمّا برامج الشرك والارتجاع ومخالفة الأخلاق والغفلة والجهل، فكل هذه الأمور لا تدخل في الإصلاح. ولن تكون السياسة التي تؤدّي إلى عدم الاستقلال الاقتصاديّ والارتماء في أحضان السلطة الخارجيّة إصلاحاً على الإطلاق. وأمّا البرامج التي تحصل تحت إدارة وإشراف الأجانب والتي تطال الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية والفنية والرياضية، فهي في الواقع مخالفة للإصلاحات الصادقة، ولا يمكن أن تتحقّق الإصلاحات الصادقة من خلال وجود برامج وسياسات تشرف عليها الأمم المتحدة. ولا تتحقّق إذا كانت مقبولة في الإعلام التابع للصهيونية العالمية. والواقع أنّ الإصلاحات الصحيحة الصادقة هي التي تجري في ظلّ القوانين والسياسات والبرامج التي تضمن استقلال المسلمين، وتقوّي الإيمان وتدفع الفقر والبطالة، وتؤمّن الأمن والقوة الوطنية، وتنشر العدل

الاجتماعي وتقيم المعروف وتنكـر االباطل وتمجّد عزة المسلمين، وتخذل الكفّار والمنافقين..

والإصلاحـات الصادقـة هي التي تجري فـي ظلّ المُثُل والأخـلاق والسياسات العلويـة بالإضافة إلـى اسم وأمر القـرآن ونهج البلاغـة. والإصلاحات الصادقة عبارة عن كلمتين: **إحياء السُّنّة النبوية وإزالة بدع الجاهلية القديمة والحديثة.**

أساليب التربية الدينيّة

عبد الرحيم موكهي(*)

تُعتبر الاستفادة من مناهج وأساليب التربية الصحيحة من الأصول والمبادىء المهمّة التي يجب أن يهتمّ بها جميع المشتغلين بالمسائل التربوية، وذلك لأنّ:

عالم اليـوم هو عالم استعمال المناهج والأساليب، وقبل الشروع بالبحث يجب الإشارة إلى مسألتين مهمَّتين:

1 - حاولنا في هذا المقال استخراج المناهج التربوية من التعاليم الدينية والأفكار المتعالية.

2 - تعرّضنا للجوانب النظريّة في الموضوع رعاية للاختصار مع أنّنا نولي أهميّة كبيرة للجوانب العملية، وعلى هذا الأساس اعتمدنا الإجمال وابتعدنا قدر المستطاع عن التفصيل.

أمّا بعض أساليب التربية الدينية فهي عبارة عن:

1 - **التقليديّ**.

2 - **التلقينيّ**.

3 - **التدريجيّ**.

(*) كاتب إيراني في مجلة مبلغان.

4 - غير المباشر.

5 - الاقتداء.

6 - العمليّ.

1 - أسلوب التربية التقليديّ

التقليد أربعة أنواع:

أ - التقليد الواعي والمفيد (كالتقليد في الأمور الإيجابيّة).

ب - التقليد الواعي المضرّ (التقليد في الأمور السلبيّة).

ج - التقليد غير الواعي المفيد (تقليد الطفل عند تعلّم الكلام).

د - التقليد غير الواعي المضرّ (تقليد الطفل عند تعلم الكلام البذيء).

النوعان الأوّل والثاني هما الاقتداء الإيجابيّ والسلبيّ بالآخرين حيث سنتعرض لذلك عند الحديث عن أسلوب الاقتداء.

وأشـار القرآن الكريم إلى النوع الرابع من التقليـد عندما تحدّث حول الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1].

وعلـى هـذا الأساس فالتقليـد الأعمى مذموم. وبمـا أنّ التقليد هـو عمل كثير الحصـول بالأخصّ فـي السنين الأولى للحيـاة لذلك يجب أن نلتفـت إلى أقوالنا وسلوكنـا. مثال ذلك: أحـد أساتذة الرياضة كان يضع رباطاً على ركبته بسبب ألم أَلَـمَّ بـه، وبعد عدّة جلسات وجـد أنّ أغلب الطلاب قد وضعـوا رباطاً على ركبهم. وهذا يعني أنّ سلوك الأساتذة والمربّين مؤثّرٌ في مستوى تقليد الآخرين، حتّى وإن كان غير إراديّ.

(1) سورة البقرة، الآية: 170.

2 - أسلوب التربية التلقينيّ

التلقيــن الإيجابــيّ هو أحــد الأساليب التي يمكــن الاعتماد عليها فــي التربية. والتلقين وسيلة لمعالجة بعض الأمراض كالاضطراب واليأس والوسواس.

يقــول الإمــام أمير المؤمنيــن عليه السلام: «**إن لم تكن حليماً فتحلّم فإنــه قلّ من تشبّه بقوم إلّا أوشك أن يكون منهم**»[1].

ويقــول الإمام الخمينيّ قدس سره: «**التلقين واحد من الأمــور المفيدة للإنسان.. والمطلب الذي يجب أن يؤثّر في نفس الإنسان، فإنه يقوم بدورٍ مهمّ عن طريق التلقين والتكرار**»[2].

ومن هنا إذا تمّت الاستفادة من الأسلوب التلقيني بشكل إيجابي فسيترك آثاراً مهمّــة ومطلوبة، ألــم نسمع عبارات كثيرة يخاطبون بهــا التلميذ الذي حصل على علامة متدنّية يقولون له: ألم أقل لك إنك تلميذ فاشل؟! والعكس صحيح.

3 - أسلوب التربية التدريجي

يقول الطبيب النفسيّ: «**الجاذبيَّة في التعليم والتربية قبل الصناعة**». وجذب الآخريــن يحتاج في الغالب إلــى أرضيّة مناسبة. والأسلــوب التدريجيّ في التعليم والتربية من اللوازم المهمّة لتهيئة الأرضيّة المباشرة للتعليم والتربية. ونحن نعلم أنّ آيــات القــرآن الكريم قد نزلت في مدّة 23 سنــة. وبشكل تدريجيّ على الرسول الأكــرم صلى الله عليه وآله وسلم (سورة الإســراء، الآية: 106)، ونزلت الأحــكام التدريجيّة كالصيام والزكاة والجهاد في مدّة 15 سنة، ونزل التحريم التدريجيّ للربا في الآيات 39 من سورة الروم و161 من سورة النساء و130 من سورة آل عمران و275 إلى 279 من ســورة البقرة. ونزل التحريم التدريجــي للمشروبات الكحوليّة في الآيات 219 من

(1) نهج البلاغة، الكلمات القصار 198.
(2) القرآن من وجهة نظر الإمام الخميني قدس سره، ص44.

سـورة البقرة و43 من سورة النساء و90 و91 من سورة المائدة. وهذا يؤكّد أهميّة الأسلوب التدريجيّ في المسائل التربوية والتعليمية.

تجدر الإشارة إلى:

أ- أنّ الاهتمـام بالأسلوب التدريجيّ فـي التعليم والتربية لا يعني إمكان اللجوء إلى المسائل والاستدلالات الخاطئة عند تعليم المبتدئين.

ب - لا ينحصـر استعمـال الأسلوب التدريجـيّ في التعليـم والتربية في دائرة الاستـدلالات والبراهين، بل يمكن اللجوء إليـه في أنواع المطالب والأعمال أيضاً.

ج - يجـب الالتفات في عملية التعليم والتربيـة إلى المستوى العلميّ والقدرات الذهنيـة والشـروط العمرية والعلمية والثقافيـة والاقتصادية والاجتماعية لـدى المتعلّمين؛ لأنـه لا يمكن إعطـاء دواء واحد لمرضى كثـر يعانون من أمراضـ مختلفة. ومن هنا نفهم مـا كان يقوم به الأئمّة المعصومون عليهم السلام عندمـا كان يوجّـه إليهم سـؤال واحد من جهات مختلفـة فيجيبون إجابات متعدّدة.

4 - أسلوب التربية غير المباشر

تقسـم أساليـب التربيـة المطلوبة إلـى قسميـن: المباشرة وغيـر المباشرة. ويستعمـل كلّ واحـد منهمـا بنـاءً علـى الظـروف الزمانيـة والمكانيـة المحيطة بالمتعلّميـن. وقد اعتمد القرآن الكريم الأسلوبين، فخاطب البعض بشكل مباشر: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ واستعمل فـي مكان آخر الأسلوب غير المباشـر: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1].

(1) سورة المائدة، الآية: 116.

هنـا نـرى أن الله تعالى يخاطب النبـيّ عيسى بن مريـم عليه السلام مباشرة ولكنّه يخاطـب أتباعه بشكل غيـر مباشر، حيـث أراد القول إنّ اعتقـاد البعض بألوهيّة عيسى هو اعتقاد باطل.

ولعـلّ أبـرز مصداق للأسلـوب المباشر ما قام به الإمامـان الحسن والحسين عليهما السلام عندما أرادا تعليم الرجل الكبير كيفية الوضوء الصحيح.

تذكير

أ – أهـمّ مصاديـق الأسلوب غير المباشر عبارة عـن الشعر، القصة، الرواية، الحديث عن حياة الآخرين، الفيلم، المسرحيّة وأمثالها.

ب – تبقى النتيجة في الأسلوب غير المباشر على عهدة المخاطبين والمتعلّمين.

ج – يتمكّـن المربّـون والآباء والأمّهات مـن اعتماد الأسلوب غيـر المباشر في المسائل التربوية بوساطة أشخاص آخرين، وليس من خلال أنفسهم.

5 - أسلوب الاقتداء

يتّصف الإنسان بأنه يبحث عن الفضيلة والكمال. لذلك يسعى كلّما وجد فضيلة وكمالاً في شخصيّة ما (دينية، سياسية، اجتماعية، فنية..) إلى اتباعها والاقتداء بهـا. وهنا من المهـمّ أن يقوم المربون والآبـاء والأمّهات بتوجيـه أبنائهم لتمييز الفضائـل من غيرها، ليتمكّنوا بذلك من الاقتداء بالفضائل، وبالتالي الابتعاد عن الرذائل.

وتحدّث القرآن الكريم حول أسلوب الاقتداء مشيراً إلى بعض الشخصيات التي تشكّل نمـاذج مهمّة للاقتداء أمثال: الرسول الأكـرم صلى الله عليه وآله وسلم (سورة الأحزاب، الآية: 21) والنبـي إبراهيم عليه السلام (سـورة الممتحنة، الآية: 4) وامـرأة فرعون (سورة التحريم، الآية: 11).

وتحـدّث القرآن الكريم عـن شخصيّات تمثل نماذج سيّئة لا ينبغي الاقتداء بها كامرأة نوح وامرأة لوط (سورة التحريم، الآية: 10).

يقول الإمـام صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه: «**وفي ابنة رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم لي أسوة حسنة**»[1].

تذكير

أ - يتمكّن جميع المربّين (بالمعنى العامّ) ومن خلال ما يتّصفون به من أعمال وسلوكيّات حسنة من أن يكونوا قدوة للمتعلّمين.

ب - إذا كانـت احتياجـات واستعـدادات المتعلّميـن متعدّدة، فعلـى الأساتذة والمربّين تقديم نماذج مناسبة في أبعاد متعددة لتكون مصاديق للاقتداء.

ج - يجـب أن يمتنـع الأساتـذة والمعلّمـون عـن تقديـم النماذج التـي تحمل التعارض حيث قد يؤدّي الأمـر إلى إنكار أصل الاقتداء. هـذا يُلحق ضرراً كبيراً بالمتعلّمين.

6 - أسلوب التربية العمليّ

أشرنا في أسلوب الاقتداء إلى أنّ الأسلوب العمليّ هو الأسلوب الأهمّ في التربية. وما يؤسف له أننا لا نولي هذا الأسلوب الأهمية المطلوبة.

جـاء فـي القـرآن الكريـم قـول الله تعالـى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[2].

وجـاء عن الإمـام الصادق عليه السلام: «**كونـوا دعاة الناس بأعمالكم، ولا تكونوا دعاة بألسنتكم**»[3].

(1) بحار الأنوار، ج53، ص180.
(2) سورة البقرة، الآية: 44.
(3) بحار الأنوار، ج5، ص198.

ويعتقـد بعضـ علماء النفسـ أنّ حوالي 80% من العمليـة التعليمية يجري عن طريـق الأعين و13% عن طريق الآذان. وقد قيـل إنّ الصورة أكثر تأثيراً من ألف كلمة.

بنـاءً على ما تقدم يجـب القول بأنّ عمل المربّي هو خطـوة مهمّة وأساسيّة في مسألـة التربيـة والتعليم. فالمتعلّم لـن يقبل كلام المعلّم إذا لـم يشاهد ذلك في تصرّفاته. وتبدأ المشكلة إذا ما شاهد المتعلّمون وجود تناقض بين أقوال المعلّمين وأعمالهـم. يجـب الإشارة إلـى أن انتصار أو سقوط الديـن أو المذهب يرجع إلى أعمال وسلوك الأتباع.

بناءً على ما تقدّم:

أ – ندعـو الله تعالـى أن يجعلنا نقـوم ونعمل بكلّ ما نقول حتّـى لا يشملنا الذمّ الوارد في الآيتين 2 و3 من سورة الصفّ.

ب – إذا لم نعمل بما نقول فكيف يمكننا أن نطلب من الآخرين العمل به؟

ج – أمّا الخطر الكبير الذي نواجهه اليوم على مستوى الثورة فأننا وبعض الكبار والعظماء لا نعمل بالتعاليم الدينية ولا نهتم بالالتزام بأهداف الثورة. ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الحالة ستترك آثاراً سلبيّة في المدى البعيد.

الباب الرابع

مهارات تبليغية

- الترغيب والترهيب ركنان أساسيّان في التبليغ
- المبلّغون، مهامٌ وحلول
- عشرة أصول عملية في سبيل تبليغ حيويّ
- مستلزمات التبليغ

الترغيب والترهيب ركنان أساسيّان في التبليغ

السيد محمد الموسوي(*)

«**المبلّـغ**» شخـص ينقل للمخاطب رسالـة «**الترغيـب**» أو «**الترهيـب**» بوسائل تبليغيّـة متنوّعـة. الخوف والرجاء جناحان يطير بهمـا الشخص إلى قمّة الهدف، وهمـا ركنان أساسيّان في التبليغ بحيـث إذا كان أحدهما ناقصاً لم يتمكّن المبلّغ مـن الوصول إلـى النتيجة المطلوبة، لا بـل يأخذ بيد المستمع إلـى وادي الضلال والهلاك.

البشارة والإنذار في القرآن الكريم واللغة

استُعملت البشارة والتبشير في القرآن الكريم بمعنيين:

1 ـ بمعنى البشارة والخبر السّارّ، إذ جاء في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾[1]، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا ﴾[2].

2 ـ بمعنى صرف الأخبار والاطلاع من دون أن يتضمّن فحوى البشارة والخبر السارّ. يقول الله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[3]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[4].

(*) كاتب إيراني في مجلة مبلغان.

(1) سورة الصافات، الآية: 101.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 47.

(3) سورة النساء، الآية: 138.

(4) سورة التوبة، الآية: 3.

ليس صحيحاً ما ذكره بعض قدماء المفسّرين بأنّ الله تعالى استعمل هنا التهكّم وقد استعمل هذا التعبير بقصد الاستهزاء.

ويظهر من خلال الالتفات لآيات القرآن الكريم أنّ للبشارة والتبشير معنىً آخر أيضاً وهو عبارة عن: صرف الإخبار والاطلاع ونظائرهما، ولا يوجد ما يدلّ على ما من شأنه وجود قيمة أو جانب إيجابي أو أخبار بأمور سارّة.

وقد استعمل هذا المعنى ثلاث مرّات في القرآن الكريم:

1. ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[1].
2. ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[2].
3. ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[3] تجدر الإشارة إلى أنّ بعض التفاسير أمثال تفسير الجلالين وترجمة «**شاه وليّ الله دهلوي**» قد تحدثا عن التبشير بالمعنى الذي ذكرناه. ويؤكّد ابن منظور متحدّثاً عن رأي ابن سيدة أنّ التبشير قد يكون بالخير وقد يكون بالشر[4].

ونقل صاحب تاج العروس المعنى ذاته عن الفخر الرازي الذي بحث في الآية الشريفة فاعتبر أنّ التبشير في اللغة مخصوص بالخبر الذي يؤدّي إلى السرور مع أنه في أصل اللغة عبارة عن الخبر الذي يظهر على لون الوجه وما يحدث فيه من تغيير. وهنا يتضح أنّ الحزن كالسرور يؤدي إلى هذا التغيير في الوجه. لذلك يجب أن يكون لفظ التبشير في كلا المعنيين موجوداً بالوضع الحقيقي ويؤكد هذه

(1) سورة النحل، الآية: 58.
(2) سورة النحل، الآية: 59.
(3) سورة الزخرف، الآية: 17.
(4) لسان العرب.

النقطـة قول الحقّ تعالـى: ﴿فَبَشِّرْهُـم بِعَـذَابٍ أَلِيـمٍ﴾. يعتقد بعض اللغويّين أنّ التبشير هنا بمعنى الإخبار والقول الأوّل أكثر قبولاً. أمّا الفخر الرازي فيعتقد بأنّ التبشير هنا هو الإخبار بالأمر القبيح أو هو مطلق الخبر[1].

أمّا التبشير في اللغة فعبارة عن «**إخبار فيه سرور**»[2].

الإنذار أو الترهيب

استعملت كلمة الإنذار والكلمات المشتقّة من المادّة عينها 125 مرّة في القرآن الكريـم، وقد ذكر «**معجـم مفردات ألفاظ القرآن**» معناهـا، فجاء فيه: «**والإنذار إخبار فيه تخويف كما أنّ التبشير فيه سرور**»[3].

يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾[4]. ويتّضـح من هنـا أنّ الانذار عبارة عن الإخبار بما يؤدّي إلى الخوف في المستقبل. وقيل أيضاً إنّ الإنذار هو الإخافة من مخوف ذي سعة من الوقت ليتمّ الاحتراز منه وإذا لم يكن زمانه واسعاً أُطلق عليه «**الإشعار**»[5].

الأسلوب التربوي للتبليغ

يجـب الابتعاد في مسألة «**التعليم والتربيـة الإسلاميّة**» عن الترغيب والتنبيه الصرف، هـذا إذا أردنا إيجاد روحية متعادلة ومتوازنـة وصحيحة ومنطقية، لأنّ الاكتفاء بالترغيب والتنبيه يؤدّي إلى أضرار بالغة على مستوى روحيّات الأفراد.

(1) القرآن الكريم، ترجمة خرمشاهي، التعليق على الآيات 58 ـ 59 من سورة النحل.
(2) مفردات الراغب، ص508.
(3) المصدر نفسه.
(4) سورة الأحقاف، الآية: 21.
(5) قاموس القرآن، ج7، ص42.

وتستلـزم التربية الرضوخ للتكاليف، وهـذا يؤدّي إلى زوال الرغبة. لذلك يجب العمل من أجل قبول التكليف المبنيّ على الرغبة. ولعلّ التبشير هو إحدى الوسائل التي يتحقّق بها هذا الأمر.

والتبشيـر هو البشارة بالعطايا والهدايا التي يستحقّها الفرد بعد إنجاز التكاليف. وتخلـق البشارة الأمل في وجود الإنسان وتجعله مستعداً لقبول المشقّات. وقد استفاد أنبيـاء الله تعالى من هـذا الأسلوب باعتبار أنّهم مربّون لذلـك أطلق عليهم جميعهم عبـارة «**المبشّـر**»، فبذلوا جهوداً لإحيـاء الأمل في قلب الإنسان عـن طريق البشارة: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾[1].

هـذا هو الأمـل الذي يجعـل المؤمنين ينهضـون وسط الليل للعبـادة والدعاء. ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا... وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾[2].

والبشـارة التي استفـاد منها أنبيـاء الله تعالى واسعة تشتمل علـى الأشخاص المتقدّميـن والمشهورين وكذلك ضعاف النفوس أي الذين كانت عبادتهم عبادة التجّـار، فالأنبياء يبشّرون النـاس بالجنّة ﴿... وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾[3] وهنا مسألة مهمّة يجب التأمّل فيها وعدم الغفلة عنها.

عندمـا نفكّر فـي التربية فإننا فـي الغالب نَشْغَـلُ أذهاننا بالحالـة المثاليّة مع أنّ البشـارة تبيّـن لنا أنّ نطاقها يجب أن يكون واسعـاً بحيث يشتمل على كلّ إنسان فـي أيّ مرتبـة كان. والله تعالى لم يحـدّث جميع الناس عن الرضـوان، بل تحدّث وخاطـب الجميع بأمور أخرى كقولـه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾[4].

(1) سورة العنكبوت، الآية: 36.
(2) سورة الزمر، الآية: 9.
(3) سورة الزخرف، الآية: 71.
(4) سورة الواقعة، الآيتان: 20 ـ 21.

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[1].

و﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[2].

التبشير والتشجيع

التبشير والتشجيع مختلفان عن بعضهما البعض على رغم ما يظنّه البعض من مشابهة بينهما. التبشير يكون قبل العمل أو معه، والتشجيع بعد العمل. وعلى هذا الأساس التبشير ناظر إلى المستقبل والتشجيع إلى الماضي.

وتأثير التشجيع أكبر من التبشير، ولكنّ الشخص الذي يقبل التبشير يكون أكثر معرفة؛ لأنّ الحركة الناتجة من التبشير تستلزم نوعاً من الالتفات إلى النفس والمستقبل. وكلّما كان الشخص صغير العمر كان التبشير عنده قصير المدة[3].

الأسلوب التربويّ للإنذار

الإنذار هو إخبار فيه خوف[4]. من جهة أخرى فإنّ استعدادات البشر متفاوتة لا بل وتتغير استعداداتهم حسب مراحل الحياة المختلفة. وهذا يعني عدم القدرة على إقامة علاقة تربويّة واحدة مع مختلف الأفراد أو مع فرد واحد في مراحل الحياة المختلفة، بل يجب الالتفات إلى مسألة الاستعدادات الكامنة عند الأفراد في كلّ مرحلة من مراحل الحياة.

الإنذار أصل مبنيّ على أنّ الله تعالى سيجازي الأفراد بسبب المعاصي والأعمال القبيحة التي صدرت عنهم ولكنّ العدل يقتضي الاطلاع على الجزاء قبل وقوعه. فالشخص الذي يستحقّ الجزاء هو الذي يأتي بالمعصية عالماً عامداً، وهذا يعني

(1) سورة الكهف، الآية: 31.
(2) سورة الحجر، الآية: 45.
(3) رؤية جديدة إلى التربية الإسلامية، ص117.
(4) المفردات.

أنّ الذي يأتي بها نتيجة النسيان لا يستحقّ الجزاء.

الإنـذار هو الوسيلة التي يتـمّ بوساطتها الحصول على المعرفـة والعلم. وهذا يعنـي أن الذي يأتي بالمعصية بعد الإنذار يستحقّ الجزاء، فالجزاء الإلهيّ مطابق للعدل ولا يحصل مـن دونه. تحدّثت آيات القرآن الكريم حول هذه المسألة أيضاً: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[1] ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[2].

وقد استعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب بشكل واسع حتّى إنه تمّ تعريف القرآن على أنه نذير للبشر: ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ﴾[3]. وأطلق على الرسول الأكرم ﷺ اسم النذير: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾[4].

بناءً على ما تقدّم ينبغي أن يعمد المربّي إلى معرفة أعمال المتربّي والآثار التي تترتّب على ذلك، فيطلعه على عواقب أعماله ويحذّره منها[5].

دور «التبشير» و«الإنذار» في التبليغ

لا يخفـى على أحد تأثيـر التبشير والإنـذار (الترغيب والترهيـب) في مسألة تبليـغ معـارف وأحكام الدين. ويظهـر الأثر السلبـي لهذين الأمريـن عندما يتبع المبلّـغ الترغيب فقـط أو الترهيب فقط أو أن يكون مفرطـاً فيهما ممّا يترك آثاراً سلبية واسعة في المستمع: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾[6] والعديد من الآيات الأخرى التي تشير إلى وظيفة الأنبياء الحسّاسة والخطيرة.

(1) سورة الشعراء، الآيتان: 208 ـ 209.
(2) سورة فاطر، الآية: 37.
(3) سورة المدثر، الآية: 36.
(4) سورة الحج، الآية: 49.
(5) رؤية جديدة إلى التربية الإسلامية، ص129.
(6) سورة البقرة، الآية: 119.

لا ينبغي أن يكون الترغيب لمجرّد الإرشاد فقط، فلو أصبح الشخص على أمل نتيجة الترغيب فقد يؤدّي الأمر إلى التقليل من عمله وقد يرتكب بعض المعاصي على أساس أنه مرتاح البال ومطمئنّ من خلال الأمل الذي حصل عليه.

يعتقد بعض أتباع السيّد المسيح عليه السلام أنّ نبيّهم فداء لمعاصيهم، فيتحرّكون نحو المعاصي مطمئنّي البال لعدم تعرّضهم للعقاب؛ لأنّ المسيح قد ضحّى بنفسه فكان فداءً لما يرتكبون، ثمّ إنّهم قد يتمكّنون من شراء الجنّة وطلب العفو على ما يرتكبون. نقرأ في قاموس «**الكتاب المقدّس**»: «**الفداء يشير إلى كفّارة دماء السيد المسيح العظيمة حيث حملت تلك الدماء جميع معاصينا، فتحملها عندما عُلّقَ جسده على الصليب**».

أمّا القرآن الكريم فقد رفض هذه المدَّعيات وقال: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1].

إنّ تقوية روحيّة الرجاء والخوف عند الشخص يجعله شديد المراقبة لنفسه وبعيداً عن الأهواء. أمّا المبالغة في الإخافة فتؤدّي إلى اليأس عند الأفراد. لذلك لا ينبغي ترغيب الناس فقط ولا ترهيبهم فوق المستوى المطلوب، بل يجب الترغيب والترهيب معاً وبشكل متساوٍ ومعتدل.

وإذا كان المطلوب العمل بالترهيب والترغيب بشكل معتدل، فإنّ القرآن الكريم قد استعمل هذه المفاهيم مع بعضها البعض، فنراه يتحدّث حول البشير والنذير والإنذار والبشارة في آية واحدة كما جاء في الآية 119 من سورة البقرة. وكقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2] وهذا يشير إلى ضرورة رعاية الاعتدال بينهما[3].

(1) سورة البقرة، الآية: 213.
(2) سورة الأعراف، الآية: 188.
(3) تفسير الأمثل، ج1، ص305.

المبلّغون، مهامُ وحلول

السيد عباس رضوي

مهامّ المبلّغ

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[1].

إنّ كلّ شخص عمل وطوال التاريخ على تبليغ الإسلام كان مصداق الآية الشريفة المتقدّمة.

ذِكرُ الله تعالى في بداية الآية الشريفة عبارة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ليجعل المسألة كليّة، وهذا يعني أنّ الرسالة هنا ليست شخصيّة بل هي رسالة كلية، وهي ليست قضيّة خارجيّة كما يقول الأصوليون، بل هي قضية حقيقية، فالآية تتوجّه إلى جميع المبلّغين الذين جاءوا على مَرّ التاريخ. وقد بَيّنت الآية الشريفة ثلاث مهامّ وخصائص لمبلّغي الدين:

أ ـ تبليغ رسالة الله

يقول علماء النحو بأنّ «**الذين**» من جملة المبهمات التي لا يزول الإبهام فيها إلّا بما بعدها. ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يشير هذا المقطع من الآية الشريفة إلى إحدى مهامّ مبلّغي الدين وهي تبليغ رسالة الله تعالى. فليس من وظائفكم توضيح السياسات العالمية، ولا تناول هذا المذهب أو ذاك بالسبّ والشَّتم، بل كلّ

(1) سورة الأحزاب، الآية: 39.

هدفكم تبليغ الرسائل التي أتى بها الأنبياء والأولياء بالأخصّ الرسول الخاتم ﷺ وأوليـاؤه. لذلك ينبغي أن يتمحور أساس حديثكم حول: قال الله، قال رسول الله، قال الباقر، قال الصادق...

يجب أن يدرك الناس أنّ ما يتلفّظ به المبلّغ هو كلام الله تعالى حيث يكون لهذا الأمر آثارٌ ايجابية أكبر ممّا لو كانت غير ذلك.

بعض الأشخاص يتحدّثون ويتلفّظون بعبارات عديدة، ولكنّهم لا يذكرون ولا ينقلون آية أو رواية، بل يركّزون كلمتهم حول ما قال ذاك الدكتور وهذا البروفسور... هـؤلاء ليسوا مبلّغين للإسـلام، فالمبلّغ عليه أن يبلّغ رسالة الله. ولهذا الأمر يجب أن يتسلّح المبلّغ بالأمور الآتية:

1 ـ أن يكون المبلّغ حافظاً للقرآن إلى حدود بعيدة. وإذا لم يتمكّن المبلّغ من حفظ كلّ القرآن، عليه أن يحفظ الآيات والأجزاء المهمّة من القرآن.

مثـال ذلك: على المبلّغ أن يحفـظ سورة الحجرات والتي هـي سورة أخلاقيّة، وسور لقمان...

2 ـ أن يقرأ القرآن بشكل صحيح من دون أخطاء.

3 ـ أن يحفظ مقاطعَ من نهج البلاغة. مثال ذلك: عهد الإمام عليّ عليه السلام إلى مالك الأشتر، بالإضافة إلى بعض الشواهد التاريخية والكلمات القصار والعبارات المختصرة...

4 ـ يجب أن يكون كتاب «**تحف العقول**» مرافقاً للمبلّغ بشكل دائم؛ لأنه كتاب أخلاقي واجتماعيّ من أوله إلى آخره.

ب ـ العدالة وخشية الله

عندمـا يكون الكلام لأجـل الله تعالى، عند ذلك يكون هذا الدافع الإلهي مؤثّراً فـي كيفية أداء العبارات والكلمات وكذلك في مقدار التأثير. ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ هؤلاء

المبلّغون لا يزيدون ولا ينقصون شيئاً من الرسالة الإلهية، بل يتلفّظون بالواقع. وخشية الله عبارة عن العدالة. والعدالة هي حالة الخوف من الله تعالى التي يتمكّن الإنسان بوساطتها من عدم ارتكاب الكبيرة أو الاصرار على الصغيرة.

ج ـ الشهامة في قول الحق

لا تخافوا من الآخرين. ولا تقولوا: إذا تلفظت بهذه الكلمة فسينقطع رزقي. طبعاً يجب الالتفات إلى أنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ لا يعني عدم الأخذ بعين الاعتبار ظروف المنطقة التي تذهبون إليها. فالرسول الأكرم ﷺ عندما كان يرسل الأشخاص إلى مناطق متعدّدة كان يرسل الشخص إلى المنطقة التي يعرفها؛ لأنّ المعرفة بظروف المنطقة تساهم في حسن إيصال رسالة رسول الله ﷺ. ولا تظنّوا أنّ هذه الآية تدلّ على إمكان الحديث بكلّ شيء في جميع الأماكن.

أمّا العاقل فهو الذي يدرك الظروف المحيطة. ينبغي أن يدرك المبلّغ استعداد الناس واستعداد البيئة المحيطة والظروف الأخرى الحاكمة على المنطقة. هناك بعض المسائل التي لا يمكن الحديث بها في جميع الأماكن، فرسالة الرسول ﷺ إلى مكّة كانت تختلف عن رسالته إلى المدينة. في مكّة كان يقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ ولكنه عندما يصل إلى المدينة، كان يقول: «**قاتلوا المنافقين والمشركين**» على أساس أنّ الخطاب والموقف كانا يختلفان على مستوى الظروف. عندما يطالع المبلّغ مجموع الآيات التي نزلت في مكّة والمدينة سيجد الفارق الموجود في منطق الرسول ﷺ من حيث الشدّة واللّين. كان يتحدّث في مكّة بأسلوب معيّن، وفي المدينة بأسلوب آخر.

الموقف في مكّة هو موقف الضعف، لذلك كان الخطاب يغلب عليه طابع النصيحة، إلّا أنّ الموقف في المدينة كان موقف القوّة، لذلك كان الغالب على

الخطـاب طابع القوّة. إذا ذهبتم إلـى منطقة يُعْبَدُ فيها العجـل، فعليكم الحديث حول إثبات الله تعالى وإثبات التوحيد بما لا يلحق بك الأذى من قبل الجيران.

ينبغـي أن يدرك المبلّـغ الظروف المحيطة، وينبغي أن يكـون واعياً ثمّ يتحدّث طبقـاً للظـروف. والمقصـود أن ندخل الحلبـة بشكل عاقـل لنصل إلـى النتيجة المطلوبة.

الحساب

جاء في نهاية الآية الشريفة: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾. الله تعالى هو الحسيب الذي ينبغـي أن يلتفت المبلّغ إليـه. فهل ما يصدر عن المبلّغ يقع فـي مصلحة الإسلام أم فـي ضـرره؟ عندما يقول الله تعالـى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ فهذا يعني أنّ هناك مسؤولية ثقيلة تقع على عاتق المبلّغ.

وصايا تبليغيّة

نشير فيما يأتي إلى بعض المسائل المهمّة:

1 ـ الاهتمام بالشباب

عندمـا يدخل المبلّغ منطقة معينة بهدف التبليغ فيها فإلى أي الأشخاص يجب أن يذهـب؟ هل يذهب إلـى المشايخ وقادة القبائل أو إلى مجموعات أخرى؟ يعتقد الإمـام الصادق عليه السلام بضرورة الذهاب أوّلاً إلى الشباب. قيل إنّ الإمام الصادق عليه السلام أرسـل شخصاً إلـى البصرة. وكانت البصرة مركز عمـرو بن عبيد رئيس المعتزلة وقد توفي عام 143هـ.ق. وكان عمرو على صلة قريبة بالخليفة العباسيّ، وكان يشكّل تهديـداً حقيقياً للشيعة. بقي رسول الإمام عليه السلام مدّة في البصرة ثمّ رجع حيث سأله الإمام: هل كنت موفّقاً في عملك؟ قال له: لا، فسأله عن الأشخاص الذيـن ذهب إليهم، فأخبـره بأنه ذهب إلى رؤساء القبائـل. عند ذلك قال الإمام

سائـلاً إيّاه: «**كيـف رأيت مسارعـة النـاس إلى هـذا الأمر ودخولهـم فيه؟ فقال: والله إنهـم لقليـل، ولقـد فعلوا وإنّ ذلـك لقليل، فقال** عليه السلام: **عليـك بالأحداث فإنّهم أسرع إلى كل خير**». ثمّ عاد مرّة أخرى إلى البصرة وبدأ العمل مع الشباب هؤلاء الذين جذبهم عمرو بن عبيد بفكره الاعتزاليّ.

طبعـاً هذا لا يعنـي عدم الاهتمام بالكبـار في المدينة، بل يجـب الالتفات إلى الكبـار في السنّ وإيـلاء الاهتمام الأكبر بالشباب. ومـن المسائل المهمّة في هذا الإطار تشجيع الشباب على الكلام والسؤال والتبليغ.

لـو دقّقنا في الأساليـب التبليغية المتّبعة اليوم في العالـم المسيحيّ لوجدناها تتبـع هذا الأمر على وجـه التحديد. استمعوا إلى راديو المسيحيين في إيران حيث يشـكّل عنصر الشبـاب الجزء الأكبر مـن برامجه. وهكذا يفعـل البهائيون خارج إيران أي في جمهورية آذربايجان وتركمنستان.

وإذا عدنا إلى حركة الأنبياء لوجدنا أنّ عنصر الشباب كان الغالب حول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وعندما أرسل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم رسالته إلى قيصر يدعوه فيها إلى الإسلام، سأل قيصـر بعض القرشيين عن المحيطين بالرسـول وهل هم من العجزة أم الشباب، فأخبروه بأنّ الشباب هم الذين يحيطون به، فاعتبر أنّ هذا الأمر من علائم النبوة.

2ـ المنبر الحسيني

المنبر الحسينيّ هو إحدى وسائل صناعة الفرد المسلم، وهو الأداة التي يمكن بوساطتها إيجاد تحوّل في أرواح الناس. ولعلّ ما يتركه المنبر الحسينيّ من تحوّل لا يمكـن لأيّ وسيلة أخرى إيجادها. لذلك أنصـح المبلّغين بالاعتماد على المنبر الحسينيّ، وقد قيل: «**الإسلام محمديّ الحدوث، حسينيّ البقاء**».

والمنبـر الحسينيّ يحتـاج في البداية إلـى خطبة ثمّ آية ثمّ بعض الكلام، ثمّ

تحريـك عواطـف النـاس؛ لأنّ تحريـك العواطـف والمعنويات يصنـع الأشخاص المسلمين.

ولعـلّ من الأمور الأخرى التي يجب أن يتسلّح بها المبلّغ، المعرفة والاطّلاع، ثم فهم الموقف والظروف الزمانية المحيطة والشروط الحاكمة.

3ـ الأخلاق العمليّة

إنّ عمـل وأخلاق المبلّـغ تترك من الأثر ما لا يتركه كلامـه. وسلوك المبلّغ في المنطقـة الموجود فيها يؤثر في أهلها أكثر ممّـا يتركه كلامه من أثر. وإذا شاهد النـاس وجود فارق كبير بيـن كلامكم وعملكم فإنّ كافّة جهودكـم ستذهب أدراج الريـاح. ابذلوا جهودكم لتكـون أعمالكم أكثر من أقوالكم، وقـد أُمرنا على لسان المعصومين عليهم السلام: «**كونوا دعاة الناس بغير ألسنتكم**». يُضاف إلى ذلك ضرورة سيطرة حالة من التنظيم على أعمالنا.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**أوصيكم بتقوى الله ونظم أمركم**». لذلك ينبغي أن نكون منظَّمين في أعمالنا، أن نؤدّي الصلاة في وقتها، وأن نرتقي المنبر فـي الوقـت المعيّن، وأن ننهـي الخطبة عندما ينتهـي الوقت. فالوقـت ثمين عند الناس، فلا تعملوا ما يؤدّي إلى تعب الناس من خطاباتكم.

عشرة أصول عملية في سبيل تبليغ حيويّ

علي أقليدي نجاد(*)

يعتبر تحديد المضمون والرسالة من أهمّ الأجزاء التي يجب الالتفات إليها عند التبليغ. ولكن ما هو المضمون؟ في الجواب يجب القول إنّ المضمون يشتمل على العلم والمعرفة والمهارات والاحتياجات التي يحتاجها المخاطب بشكل واقعيّ. يتمكّن المضمون من إرشاد المخاطَبين وإيصالهم إلى الأهداف التبليغية.

ويتطلّب إعداد المضمون أصولاً خاصّة. وقبل الدخول في البحث عن تلك الأصول من المناسب أن نعلم وجود عدد من الأهداف الأساسية في الارتباط الكلاميّ وغير الكلاميّ:

الأوّل: إيصال العلم والمعرفة.

الثاني: الترغيب والتشجيع على القيام بأعمال خاصّة.

الثالث: التأثير والإقناع.

الرابع: تمضية الأوقات.

تقوم الكتب والمجلّات المتخصّصة بدورٍ أساسيّ في التعليم والمعرفة. وتساهم البيانات التلفزيونية والإعلانات التجارية في ترغيب وتشجيع الناس على شراء بضاعة خاصّة، ويعمل مرشَّحو الانتخابات والمروّجون لهم على التأثير والإقناع في مخاطبيهم. أمّا بعض البرامج المضحكة والمسلّية فتساهم في تمضية أوقات المخاطبين.

(*) كاتب إيراني في مجلة مبلغان.

واليـوم يجب الالتفات إلى المسألة التالية بالأخصّ فـي مسألة التبليغ الديني، وهـي أنّ أغلب المخاطبين قـد اعتادوا على التبسيط واللغـة السهلة وهُم يدركون الخطاب بعبارات قصيرة، واضحة ومفهومة. لذلك فالمبلّغ الموفّق هو الذي يسعى للحفـاظ علـى هذا الأمر. علـى هذا الأساس سنقـوم بدراسة الأصـول المشتركة الحاكمة على إعداد مضمون الإعلام والترغيب والإقناع.

الأصول المشتركة لإعداد البيان

الأوّل: الموضوعات الجذّابة والواقعة في دائرة الاهتمام

لعـل إحـدى النقاط التي يجـري إغفالها، هـي اهتمام وعلاقـة وحاجة المبلغ وإيمانه بالمواضيع التبليغية. فإذا كان الشخص لا يشعر بارتباط وعلاقة بموضوع مـا، ولا يحسّ به في أعماقه، فلا يوجـد أيّ عامل يجعله على ارتبـاط وثيق بأمور بعيدة عـن اهتمامه. ويصدق هذا الأمر في خصوصـ المبلغين الصادقين الذين يمارسـون التبليغ بنـاءً على الحاجات الشخصية وتوصيـات الآخرين. طبعاً هؤلاء الأفـراد لن يكونوا موفّقين في علاقتهـم لأنّ الأمور التي تخرج من القلب هي التي تترك آثارها في القلب، أمّا إذا كان الكلام هو الخارج من اللسان فقط فلن يتجاوز الآذان.

من جهة أخرى يجب أن تكون المواضيع والمحاور التبليغية محلّ اهتمام وعلاقة المخاطبين بحيث يشعر المخاطَبون أنهم قريبون إلى المبلّغ. وأمّا طريق حلّ هذه المسألة فهو أن يسأل المبلغ دوماً عن النفع الذي يعود على المخاطبين.

وعلى هذا الأساس يجب أن يعمل المبلِّغون على تقديم خطاب يجذب المخاطَب وتكـون هـذه المسألة هـي النقطة والمحـور الأساسي فـي إعداد المضمـون؛ لأنّ الخطاب الذي لا يلقى آذاناً لا بل قلوباً عند المخاطب سيكون من دون فائدة.

الثاني: استعداد وقدرة المخاطبين.

يجب الالتفات عند إعداد محتوى البيان إلى استعداد وقدرة المخاطَبين، وذلك بناءً على الخصائص العلمية والقيمية والفيزيائية. ولعلّه من المناسب أن نستذكر قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم**»[1].

الثالث: الصدق

الصدق هو من أبرز الأمور التي تجعلنا في مرحلة قريبة جداً من المخاطَبين. والخطاب المؤثّر هو الذي يكون بعيداً عن المصالح الجانبية. القرآن الكريم هو كتاب الحياة الذي يؤكّد فيه الله تبارك وتعالى على غناه: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾[2]. ومن هنا كانت الدعوة إلى التوحيد والصلاح تقع في مصلحة العباد فقط. وعلى هذا الأساس فمن المناسب أن يكون خطاب المبلّغ يُشْعر الناس بشيء من الصدق والحميمية ممّا يؤدّي إلى التأثير: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

يجب الاهتمام أثناء إعداد المحتوى بفعاليته ومقدار هدايته؛ لأنّ البيان المؤثّر هو البيان العمليّ والذي يشير إلى طريق الهداية والنجاة من الضلال. جاء في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾[4].

(1) فروع الكافي، ج8، ص268، ترجمة أصول الكافي، ج1، ص27.
(2) سورة الزمر، الآية: 7.
(3) سورة التوبة، الآية: 128.
(4) سورة الحج، الآية: 24.

الرابع: الاستعانة بالصور

لعـلّ مـن أبـرز عوامـل الموفّقيـة فـي التبليـغ القولـيّ والكتبي، هـو المحتوى التصويريّ. قد يسأل البعض: هل يمكن إظهار المحتوى القولي والكتبي على شكل صور؟ والجواب: نعم. وذلك عنـد الاستعانة بعبارات تساعد الذهن على التصوّر. يقـول المفكّر الغربيّ المشهور، في هـذا الخصوص: «**نحن لا نفكر بشكل كلي بل نتعرّض للجزئيات، لذلك يجب الامتناع عن استعمال الجمل التي تفيد المعاني الكلية...**»[1].

وعلـى هذا الأساس يجب اللجـوء إلى استعمـال عبارات تجعـل الذهن ينتقل مباشـرة إلى معانٍ تصويريّة. وهكذا يمكن استعمال الأمثال التي تساهم في هكذا تصويـر. وقد استعمـل القرآن الكريم هـذه القاعدة الهامة، حيـث جاء في سورة العاديات تصوير جميل ومحيّر لهجوم المجاهدين وروح الحماس التي كانت تعيش في عروقهـم: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾[2].

ووصف القرآن الكريم الجبال في مكان آخر: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[3] لذلك من المناسب في التبليغ الاستعانة بهذا الأسلوب.

الخامس: البساطة والسهولة

مـن الأصول الأخـرى الهامة في إعـداد البيـان أن يكون سهـلاً وبسيطاً، وهما مسألتـان نسبيتان تختلفـان باختلاف المخاطب. والهدف من هـذه النقطة رعاية مستويات المخاطبين وعدم اللجوء إلى استعمال عبارات ثقيلة غير مفهومة عندهم.

---

(1) قانون التحدث، ديل كارنفي، ص82.
(2) سورة العاديات، الآيات: 1 ـ 5.
(3) سورة القارعة، الآية: 5.

طبعاً لا ينبغي أن يكون المحتوى بسيطاً إلى درجة يشعر المخاطب بعدم الحاجة إليه أو بعدم أهميته. ولا ينبغي أن يكون معقَّداً بحيث يجعل المخاطب غير قادر على متابعته. يسعى بعض المبلغين وبدل العمل على تقديم بيان حسن إلى إثبات هويته العلمية فيستعمل عبارات معقدة، ليظهروا أنّ خطاباتهم علمية وهامة، مع العلم أن أغلب المخاطبين لا يتمكّنون من مرافقتهم في الانتباه إلى ما يقولون.

ويؤكّد القرآن الكريم على هذه المسألة عندما يقول: ﴿ٱلۡعَظِيمُ ٥٧ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1] وجاء في سورة القمر: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[2].

واتبع الأئمة المعصومون عليهم السلام هذا الأسلوب أيضاً متّبعين في ذلك القرآن الكريم والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. وقد أشار الأئمّة عليهم السلام إلى المشكلات التي تعترض العلماء، فاعتبر الإمام الصادق عليه السلام: «**والتكلف في تزيين الكلام بزوائد الألفاظ**»[3].

السادس: اتباع طريقة مراسلي الأخبار

يعتبر أسلوب مراسلي الأخبار من أبرز وأهمّ أساليب الارتباط والتبليغ المؤثّر والعملي. ونتمكّن بهذا الأسلوب من التخلص من النزعة الكلية والعبارات غير المفهومة التي تجعل المخاطبين لا يصدّقون ما يقال. مثال ذلك يلجأ بعض المخاطبين عند الإشارة إلى بعض القصص للقول: في إحدى القرى، أحد العظماء... لذلك يجب الالتفات لهذه المسألة والإشارة إلى مصدر الكلام ولو بشكل كلي، فإذا لم نتمكن من ذكر القرية والمدينة يمكننا الإشارة إلى اسم المحافظة.

(1) سورة الدخان، الآية: 58.
(2) سورة القمر، الآية: 17.
(3) بحار الأنوار، طبعة بيروت، ج2، ص52: القرآن والتبليغ، ص78.

ويعمل مراسلو الأخبار أثناء التغطية على الإجابة عن بعض العناوين:

1 – منْ 2 – أين 3 – متى 4 – ماذا (الموضوع) 5 ـ لماذا 6 – كيف

وعلى هذا الأساس يمكن وضع الخطاب في القالب المتقدّم.

السابع: إيجاد حدود للموضوع

قبل الشروع بالتبليغ يجب التعرف بشكل دقيق على حدود الموضوع والمضمون. المسلّم به أن المبلّغ لا يتمكّن في مدّة قصيرة من الإشارة إلى مواضيع متعدّدة.

مثـال ذلـك: افرضـوا أنّ عدداً من الشبهـات بدأت تطرق أذهـان الناس حول عاشـوراء، قبل أيام قليلة من بداية محرّم. ماذا يجب أن نعمل؟ هل يجب أن نقدّم إجابـات صغيرة وقصيـرة عن جميع الشبهـات الموجودة؟ أو أنه يجـب أن نحدّد الأولويـات، فنقدّم إجابات عن الإشكالات التي تقع في الأولوية الأولى بشكل واضح ودقيق؟

يبدو أنّ الخيار الثاني هو الصحيح، على أساس أنّ المخاطبين عندما ينظرون إلـى القـدرات العلمية التي يتمّتـع بها المبلّغ في الإجابة عـن الشبهة الأولى ومدى تسلّطه على الموضوع، لن يتردّدوا في قدرته على الإجابة عن الشبهات المتبقية.

ويؤكّـد القرآن الكريم على ضرورة معرفة هـذه الحدود في التبليغ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾[1].

الثامن: التنظيم، تقييم، اختيار

يجب الالتفات إلى مسألتين أساسيتين وهامتين عند إعداد البيان.

(1) سورة سبأ، الآية: 46.

أ- الترتيب والتنظيم المنطقي للأقوال والكتابات واللقاءات:

إذا كان المحتوى يفتقد الترتيب المناسب فإنّ ذلك سيؤدّي إلى ضعف الارتباط التبليغي. مثال ذلك: تقديم نتيجة البحث أو الكلام منذ البداية قد يكون نوعاً من الحكم السريع، كذلك أيضاً عدم تقديم نتيجة في النهاية سيؤدي إلى ازدياد حيرة وضياع المخاطَب. طبعاً الترتيب الصحيح هو الذي يراعي المخاطَبين المختلفين. وبشكل عامّ يمكن القول إنّ الترتيب الصحيح يفترض تقديم ما من شأنه أن يسرّع في فهم المخاطبين ويدفعهم إلى فهم ما يراد بسهولة، بعد ذلك يمكن الشروع بالموضوع وإيصاله إلى كماله، ومن ثَمَّ تقديم النتيجة في النهاية.

مطالب بسيطة وجذّابة - الموضوع الأصلي والمشكلة - النتيجة.

ب - النقطة الثانية تتعلّق بالتقييم والاختيار.

ويكون المحتوى مؤثّراً إذا كان يتمتّع بقوّة من الناحية الداخلية. ويكون البيان قوياً وغنياً إذا كان محرّكاً للمخاطَبين. والمبلّغ العارف هو الذي يختار بعض الخيارات من ضمن عشرات الخيارات الأخرى.

وعلى هذا الأساس لا يجب الالتفات إلى ردّة فعل المخاطَبين فقط، بل يجب إعطاء الاختيار وقبله التقييم أهميّة خاصّة.

اسمحوا لي أن أقدّم مثالاً جذّاباً: «**أصبح عبيدة بن الزبير والياً على المدينة بأمر من أخيه عبد الله بن الزبير. في يوم من الأيام قام خطيباً فقال: هل شاهدتم ماذا فعل الله بقوم صالح وكيف عذبهم بسبب ناقة لا يتجاوز ثمنها خمسة دراهم؟ هو يقصد ناقة صالح معجزة النبي صالح عليه السلام التي تحدث عنها القرآن الكريم تحت عنوان «ناقة الله». لقد حدد عبيدة قيمة الناقة بخمسة دراهم، واعتبر أنّ هذا الثمن هو ثمن بخس وقليل. اعترض الحاضرون وأطلقوا عليه لقب «مقوّم الناقة» أي الذي يحدّد ثمن الناقة. راج هذا اللقب بين الناس**

وأصبح عنواناً للاستهزاء به، وأدى به إلى العزل»[1].

فلـو كان عبيـدة عالمـاً بردّة فعـل المخاطَبيـن لما تحـدث بهذا المثـال على الإطـلاق. وفي هذا الإطار يتحدّث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بكلام رزين يقول: **«إنّ المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام، تدبره في نفسه فإن كان خيراً أبداه وإن كان شراً واراه»**[2].

ويجب أن ندرك أن الكلام الذي يؤثّر في المخاطَبين هو الذي يكون من اختيار مسبّق يتناسب مع روح وأحاسيس المخاطبين.

التاسع: معرفة اللغة، الثقافة والرؤى

نواجـه في التبليغ الدينـي اتساعاً في اللغـات والثقافات والـرؤى. لذلك يجب الالتفـات إلى أهمية معرفة لغـة المخاطَبين وثقافتهم. وقد اهتـمّ القرآن الكريم بهذه المسألة حيث جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[3].

ومـن هنـا يجب الاعتراف بـأنّ المبلّغيـن العارفين بلغة وثقافـة المناطق التي يعملون فيها سيكونون أكثر توفيقاً من غير العارفين بذلك، ويندرج في هذا الإطار التعرّف على استعمالات اللغة، فقد يكون لكلمة معنى عادي ومقبول في مكان ويكون لها معنى قبيح وسيِّئ في مكان آخر، لذلك يجب الالتفات إلى هذا الأمر.

من جهة أخرى يجب التعرف على المستوى الفكريّ والرؤيويّ للمخاطَبين. فقد يكون الكلام حقاً وصحيحاً إلّا أنه لا يمكن الإعلان عنه والتصريح به. فلكلّ كلام مكان.

---

(1) الخطاب والخطابة، فلسفي، ص124؛ القرآن والتبليغ، قراءتي ص66.
(2) نهج البلاغة، الخطبة 176؛ أصول ومباديء الخطابة، ص275.
(3) سورة التوبة، الآية: 122.

بناءً على ما تقدّم يجب رعاية الأمور التالية أثناء إعداد البيان:

أ - التعرّف على ثقافة المخاطَبين.

ب - الأخذ بعين الاعتبار الرؤية الكونية التي يؤمنون بها.

ج - الاستفادة من العبارات المناسبة.

العاشر: الاحترام في البيان والتبليغ

يقول أحد المسؤولين: أرسلنا مبلّغاً إلى إحدى المناطق، وبمجرد وصوله خاطب الناس قائلاً: «**أيها الناس أتيت لكي أؤدّبكم.. تحمّله الناس بمقدار استطاعتهم، ولكن في النهاية رفضوه**»[1].

ما هو رأيكم في ذاك المبلغ؟ أعتقد أنّ أحداً لا يتمكّن من قبول ادّعائه؛ لأنّ المخاطبين بشر والبشر يقبلون الخطاب ما لم يحمل إهانة لشخصيّاتهم وكراماتهم. وهنا أدعو المبلغين إلى الإصغاء لعبارات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الهامة، يقول: «**اجملوا في الخطاب تسمعوا جميل الجواب**»[2] ومن المناسب الالتفات إلى العبارات التالية: «**عوّد لسانك لين الكلام وبذل السلام يكثر محبوك ويقلّ مبغضوك**»[3].

ويمكن أن نقرأ نموذجاً للخطاب الذي يحمل الاحترام وما يتركه من آثار في قصّة الحوار الذي جرى بين المفضّل وابن أبي العوجاء في مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، والمعروف أن ابن أبي العوجاء كان مادياً وكان يحاور صديقه حول مبدأ الوجود.

بدأ ابن أبي العوجاء الكلام مشيراً إلى عدم وجود تدبير وتقدير، وهكذا كان كلامه يدور حول هذا الأمر...

(1) تجارب المبلغين، ص101.
(2) غرر ودرر، شرح السيد جمال، ج2، ص266.
(3) المصدر نفسه، ج4، ص329.

كان المفضّـل وهو من أصحاب الإمام الصـادق عليه السلام يشاهد الحوار بين ابن أبـي العوجـاء وصديقه، تقدم نحوهمـا بغضب وقال له: يا عـدو الله تنكر خالقك ومدبرك.. فكّر في نفسك وحياتك وعواطفك لترى آثار المخلوق والمصنوع...

وبمـا أنّ ابـن أبي العوجـاء كان لا يعرفه، سأله عن اسمـه. وطلب منه الجلوس للبحـث والحديث بناءً علـى الأصول والمبـادىء الكلامية وأكّد له أنـه سيتبعه إن كان يمتلـك أدلة قوية ومحكمة. وعرض عليه بـأن أصحاب الإمام الصادق عليه السلام لا يخاطبونـه بهذا الأسلوب. ثمّ بيّـن ابن أبي العوجاء كيف يتعامل الإمام الصادق عليه السلام مع من يخالفونه على المستوى الفكريّ...

وهنا نسأل ما الذي جعل ابن أبي العوجاء في حالة انجذاب للإمام عليه السلام؟

الواضـح أنّ أدّلة الإمام ليست الوحيـدة التي جذبته، بل الاحترام الذي شاهده في خطاب الإمام عليه السلام لأنّ الإمام كان يستمع إلى أدلة المخالفين بدقة ولا يقاطع أحاديثهم ثمّ بعد ذلك يقدّم الجواب بعبارات مقنعة مليئة بالاحترام.

فـي النهاية من الجدير أن نتمثّل قول الرسـول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**تحبّب إلى الناس يحبوك**»[1].

(1) مشكاة الأنوار، ص75.

مستلزمات التبليغ

تحت العنوان المتقدّم أقامت إدارة التحقيقات في مؤسّسة الإمام الخميني قدس سره التعليمية والتحقيقية مؤتمراً شارك فيه عدد من المحققين من أبرزهم آية الله مصباح اليزدي، وحجّة الإسلام والمسلمين محمدي عراقي رئيس منظمة الإعلام الإسلامي وآخرون.

فيما يلي نقدّم خلاصة من الأبحاث التي تناولها المؤتمر.

التبليغ: النواقص وطرق الحلول

جاء ضمن الكلمات التي قدّمت للمؤتمر أنّ الإسلام دين يجب أن يحظى بالحاكمية في المجتمع. ويصبح الإسلام موجوداً فيه عندما نرى الرؤية الكونية للإسلام تتجلّى في مجالات الحياة الاجتماعية.

نحن نعتقد بأنّ الدين يقوم بوظيفة إصلاح العلاقات البشرية، فكلّ ظاهرة موجودة بين البشر، إذا كان الإنسان هو أحد أقطابها، فلا بدّ سيكون الإسلام هو القطب الأساسي الذي تكون له الكلمة الأساس.

وتظهر حاكمية الدين إذا وجدنا أنّ القرارات الكبيرة والأساسية للبشر متأثرة بالرؤى الكونية الإسلامية. وهذا يعني أن يلجأ الشابّ مثلاً إلى الإسلام في اختياره الفرع الدراسي، والزوجة، والعمل، وطريقة الحياة. وعالم الدين يجب أن يتمكّن من الحديث عن العلاقات الفردية والاجتماعية بما يتناسب مع مقتضيات العصر.

لعـلّ مـن أبرز مراحـل التبليغ وأكثرها صعوبـة أن يحاول عالـم الدين الرجوع إلـى المبادىء الدينيـة والأصول الإسلاميّة ليحلّل الظواهـر اليومية ويحلّ مشاكل المخاطَبيـن. وأمّا في مجتمعنا الذي يحكمه الديـن فيجب أن يعمل بالتدريج على مؤسسـة الظواهـر الاجتماعية في الأفراد وبالأخصّ علمـاء الدين. ويعاني العالم الثالث من مشكلة كبيرة وهي أنهم يحاولون حلّ مشكلة ما فيوجدون مشكلة أخرى ثم إنّهم لا يلاحقون جذور المشاكل لحلّها من الأساس، وكل ذلك بسبب عدم وجود «**النظام**».

إنّ سرعـة التغييـرات هـي واحدة من المسائـل الهامة التي تظهـر بسرعة في المجـالات الاقتصاديـة والتبـدلات والمشـاكل، ولكنّ هـذه المشـاكل تتكدّس في المجال الثقافي ثم تتحوّل إلى مشكلة سياسيّة. ما يؤسف له أنّ الناس والمسؤولين بدأوا في العقديـن الأخيرين يهتمّون بالمسائل الاقتصادية القصيرة الأمد، بينما نلاحظ وجود حركة نزولية على صعيد الاهتمام بالبرامج الطويلة الأمد.

مـن المسائل الأخرى التـي يجب الإشارة إليهـا أيضاً: «**شبـاب المجتمع**» فقد ارتفـع عـدد التلاميذ في العام 1357هـ. ش من سبعة ملايـيـن ونصف إلى ثمانية عشـر مليونـاً ونصف المليون عـام 1378هـ.ش. وبمـا أنّ الفارق بيـن سنّ البلوغ والزواج اثنا عشر عاماً لذلك نرى الكثير من الشباب يعانون أزمة الهوية.

مـن جهة أخرى ساهمت بعض المسائل أمثـال اتساع دائرة الارتباطات وظهور مسألة حق الاختيار والانتخاب بين الأفكار المختلفة وزوال الحدود الرقابية وضعف مفاهيـم العائلة، المدرسـة، المنطقة المتدينة والبلد المتديـن، كلّ ذلك أدّى إلى زوال الحدود الخاضعة للرقابة. ثم إنّ حاكمية الفكر الإسلامي على البلد أدّت إلى وجـود خصومة بين القوى الاستكبارية الكبرى ممّـا جعلهم يفكّرون بشكل مستمرّ في إيجاد الأزمات والمشكلات بين الشباب في هذا البلد.

الإمكانيات لحلّ المشاكل

يمكن العمل على حلّ المشاكل إذا وجدت القدرات والاستعدادات الآتية:

أوّلاً: أن نعتمد على الإسلام الذي أوجد هذه الحكومة بعد انقضاء أكثر من خمسين عاماً على الحكم البهلوي، وقد احتضن الإسلام جميع أبناء الشعب بمن فيهم الشباب بعد كلّ المفاسد التي أوجدها النظام السابق.

ثانياً: أنّ إيران تمتلك موقعاً مميزاً بين دول المنطقة والعالم، لذلك تسعى أمريكا لإقامة علاقات مع إيران. طبعاً موطن القوة التي تتحلّى بها إيران كونها تلتزم الدين الإسلامي الذي ما زال شامخاً منذ أربعة عشر قرناً وكانت الثورة من أبرز نتاجاته.

ثالثاً: يمتلك الإنسان فطرة صافية وطاهرة وإذا ما تمّ إيقاظ هذه الفطرة وجعلها تتلاءم مع الإسلام فستتحول إلى قدرة كبيرة لا يعدلها شيء. يمتلك الشعب أطهر فطرة حتى إنّ بعض الأشخاص الملوثين بالشبهات ظاهراً يعودون إلى الإسلام بسرعة في المقاطع الحسّاسة.

رابعاً: إنّ ما يساعدنا وجود بعض المحطات الهامة التي ترفد الإنسان بالقوة والثبات كمحرّم وشهر رمضان اللذين يضفيان حالة من التوجّه المعنوي لدى أبناء الشعب وبالتالي يمكّنان الشخص من مواجهة أكبر القوى الاستكبارية على الإطلاق.

من المسائل الأخرى المطروحة في هذا الخصوص عدم وجود تعادل في النموّ. وهذا يعني أننا تقدمنا كثيراً في بعض المجالات وما زلنا متأخّرين في مجالات أخرى. مثال ذلك أننا تقدّمنا كثيراً على مستوى الطبّ ولكننا ما زلنا متأخرين مائتين أو ثلاث مئة سنة على مستوى التبليغ الديني. طبعاً تعود أسباب التأخر إلى

التعقيـد في السلوك الإنساني وتبدل قداسة الخطـاب ليحلّ مكانه نوع من قداسة الأداة. إنّ الذي يمتلك القداسة هو القرآن والحديث، أمّا أداة نقل القرآن والحديث فليست مقدّسة بل يجب أن تتغيّر طبق ظروف الزمان والمكان.

لعـلّ من أبـرز الأدوات المناسبة لموضـوع التبليغ هي الجلسـات التي تنبع من الصميميـة والمحبّة بالأخص عندما تكون مع جيـل الشباب. نحن أخطأنا عندما اعتبرنـا أنّ حلَّ المشاكل الثقافية يبدأ من وجـود معمَّم على التلفزيون يتلو خطاباً دينياً أو ثقافياً.

يجب أن نتعرّف على الأزمات التي يعاني منها مجتمعنا، وإذا رغبنا في أن يتجلّى مفهوم حاكمية الإسلام في جميع المجالات، يجب علينا تربية علماء متخصّصين فـي المجال التبليغي بما يتناسـب مع ظروف الزمان والمكان، نحن نحتاج إلى نوع من التنظيم في نظام التعليم الديني لنعمد إلى تعريف الاختصاصات.

يجـب أن نعمـل على تعريف حضـور العالم الديني في المجتمـع. وإذا أردنا أن يكـون الله تعالى حاكماً على علاقاتنا يجـب أن يستعيد المسجد دوره الأوّل ويجب إعادة ترتيب الشروط التي يُحتاج إليها للحياة في المسجد.

في يوم من الأيام كان المسجد مركز ومصدر التحول والتغيير ثم انتقلت المهمة بالتدريج إلى المدارس، الثانويات والجامعات، عندما يضعف المسجد، فهذا يعني أنّ حضور عالم الدين في العلاقات الاجتماعية أصبح ضعيفاً، وقد شاهدتم مقدار الأمـوال التي تصرف هنا وهناك ولكننا غفلنا عن تجهيز المساجد. عندما يخرج الشـابّ من بيته فمن الطبيعي أن يختار المكان الأكثر جاذبية، وهكذا كان يضعف دور المسجد عاماً بعد آخر.

بنـاءً على ما تقـدّم يجب إعداد كافّة الأدوات والوسائـل التي تساهم في جذب جيل الشباب إلى المساجد، لتحافظ على نشاطها وحيويتها.

بعد انتصـار الثورة تغيرت العديد من المفاهيم، فبعـد أن كان الناس يخافون بدايـة على دين أولادهم أصبحـوا يخافون عليهم من الرسوب في امتحان الدخول إلى الجامعة وبعض المسائل الأخرى من هذا القبيل. وهكذا تبدّل النظام التنفيذي والإداري وأصبـح الشبـاب يفرّون منـه. في يوم من الأيـام كان الطالب يدرس لله تعالـى ولأجله ولأجل العمل والخدمة، ولكنـه اليوم أصبح يدرس لأجل الوصول إلى الرفاه والحياة الفُضلى.

يجـب أن نوثّق العلاقـة بين المسجد والمدرسة، ويجـب أن تقع المدرسة تحت تأثير المسجد، طبعـاً المقصود من المسجد ذاك الذي يتولى إدارته عالم مدرك وبعض المتخصّصين الواعين.

مسائل عملية حول التبليغ:

يتحـدث حجّة الإسلام والمسلمين محمّدي عراقي تحت عنوان «**مسائل عملية حـول التبليغ**» فيعتبـر أنّ الله تعالى يقول في القـرآن الكريم: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾[1]، حيـث اعتبـر القـرآن الكريـم أنّ البصيـرة والمعرفة همـا الشرط الأول للتبليغ، والبصيـرة مسألة تخصّصية. إذا لـم تكن الفقاهة في التبليغ أهمّ وأصعب من الفقاهة في الفقه، فهي من دون شك ليست أسهل منه، لأنه يمكن الاستعانة بآراء الفقهاء المتقدّمين في الفقه، لكن في مسألـة التبليغ يجب علـى المبلّغ أن يجمع الكثير من العلـوم وعليه أن يدرك أيضاً ظروف المجتمع والمخاطب.

(1) سورة يوسف، الآية: 108.

يجب مراعاة الأمور الآتية في التبليغ:

1 – وُجوب الاستفادة من المفاهيم القرآنية أثناء التبليغ وتشجيع الآخرين على فهم وتدبر القرآن، وهذا أمر لا يقوم به إلّا طلّاب العلوم الدينية.

2 – توضيح الأحكام الشرعية.

3 – الإجابة عن الأسئلة الشرعية والفكرية.

4 – إقامة جلسات فردية وجماعية والإجابة عن الأسئلة والشبهات.

5 – التحدّث من دون تكلّف بل من منطلق الصداقة والمحبة والصميمية وقد أثبتت التجارب مقدار الأثر الذي يتركه هذا النوع من التواصل.

6 – الالتفات إلى الواقع وعدم التحرك في الفضاء المعنوي العالي.

7 – الالتفات إلى مسائل وأسئلة الأخوات وهم أكثر من الأخوة كمّاً وكيفاً.

8 – الالتفات إلى الواقع الاقتصادي والعمل والبطالة وارتفاع سنّ الزواج، والظاهر أنّ الحلول أصبحت أصعب لهذه المشاكل ويبقى أنّ علينا العمل على موضوع التقوى والبنية الإيمانية للشباب.

من جهة أخرى يحتاج العمل الثقافي إلى تخطيط دقيق وميزانيات كافية، وكان هذان الأمران كافيين للدخول في عالم التقدم في بعض المستويات والاختصاصات العلمية، وهذا ما نحتاج إليه في تقدّم العمل التبليغي.

الباب الخامس

من التراث

- سُلَّمٌ إلى السماء
- حديث الغدير، الولاية أو المحبة؟
- النقل المجعول والمشهور

سُلَّمُ إلى السماء

عبد الله بن يادي(*)

أُطلق الاسم المبارك للإمـام علي بن أبي طالب عليه السلام كعنوان للعام الماضي. والواقـع أنـه يجب الاهتمام بتبين شخصيّة هذا الإمام ليس في عام واحد فقط بل في جميع الأزمنة والسنوات. ولعلّ أحد طرق التعرف على هذه الشخصية العظيمة اللجـوء إلـى كتاب «**نهـج البلاغـة القيّم**». وينبغـي على المبلّغيـن الاستعانة بهذا الكتـاب المهمّ لتوضيـح شخصيّة مولى الموحّدين وتقديـم رؤية متعالية للمعارف الدينيـة. سنحاول في هـذا المقال الإطلالة على كتاب نهـج البلاغة الشريف من وجهة نظر علماء الشيعة وغير الشيعة.(1)

فنهـج البلاغة هو سُلَّم عروج الإنسان نحو السماء، وهو دائرة معارف إسلاميّة عظيمة وهو جامعة إلهيّة كبيرة.

صحيح أنه قد مضى حوالى الأربعة عشر قرناً على وجوده إلّا أنه ما زال جديداً ولم يتعرض للنسيان والكهولة، لا بل نراه يتجدّد يوماً بعد يوم، يُحيي أمال العطشى للمعرفـة. وصحيح أن العديد من الشروحات قد كُتبت على نهج البلاغة إلا أنّ هذا الكتـاب ما زال مجهـولاً، وقد جذب هذا الكتـاب الكثير من العلمـاء سنَّة وشيعة، مسلمين وغير مسلمين، وفيما يلي نتعرض لبعض عبارات هؤلاء العلماء:

يقول الإمـام الخمينيّ قدس سره في الوصيّة السياسيّـة الإلهيّة: «**نحن فخورون أنّ**

(*) كاتب إيراني في مجلة مبلغان.

كتـاب نهج البلاغة الذي هو بعد القرآن أعظم دستور للحياة المادية والمعنوية وأسمـى كتاب لتحريـر البشر، وتعالميه المعنويـة والحكومية أرقى نهج للنجاة هو من إمامنا المعصوم»[1].

ويقـول أيضاً في رسالة وجّهها إلى مؤتمر نهج البلاغة: «**أمّا كتاب نهج البلاغة الـذي هـو من روحه فهـو لتعليمنا نحن الغارقين في سبـات الأنا والغارقين في حجـاب الأنا والأنانية وهو شفاؤنا وبلسم للآلام الفردية والاجتماعية، كتاب له أبعـاد بحجـم الإنسان والمجتمع الإنساني الكبيـر منذ ظهوره وعلى مرّ التاريخ مهمـا تقـدم ومهما ظهـرت المجتمعـات وتوالت الـدول والشعـوب، ومهما ظهر المفكّرون والمفسّرون، والفلاسفة وغاصوا فيه وغرقوا.**

فليـأتِ الحكمـاء والفلاسفـة ويحقّقـوا فـي جمـل الخطبـة الأولـى مـن هذا الكتـاب الإلهي وليستخدموا أفكارهم العظيمة والكبيـرة ويفسّروا هذه الجملة القصيـرة بمساعـدة أصحـاب المعرفـة وأربـاب العرفـان وليطلبوا بحـقّ إرضاء ضمائرهـم مـن أجـل الفهـم الحقيقـيّ لهـذه الجملـة، بشـرط أن لا تخدعهـم الأقـوال التـي ظهـرت في هذا المضمـار وشريطة ألّا يخدعـوا ضمائرهم بدون فهـم صحيـح ولا أن يقرأوها ويتركوها، عندئـذٍ يفهمون الأفق الواسع لفكر ابن الوحـي ويعترفون بقصور نظرتهـم. والجملة هي (مع كلّ شي لا بمقارنة وغير كلّ شيء لا بمزايلة).. عرّفوا هذا الكتاب الكبير للمجتمعات البشرية واعرضوه كمتاع يقتنيه الناس والعقول النيّرة»[2].

يتحـدث الإمام القائد الخامنئي دام ظله في رسالة وجهها إلى ألفية نهج البلاغة، يقـول: «**فـي الواقـع فـإن نهـج البلاغة هـو كتـاب التعريف بعلـي بن أبـي طالب**

(1) مقدمة الوصية السياسية الإلهية للإمام الخميني.
(2) صحيفة الإمام، ج14، ص275.

عليه السلام. لم تظهر شخصية الإمام عليه السلام في أي مكان كما ظهرت في كتاب نهج البلاغة. وتجلى في نهج البلاغة شخصية الإنسان الكامل، والإنسان الكامل هو أمير المؤمنين عليه السلام. وهذا الكتاب في المجموع هو درس حياة اجتماعية للمسلمين».

«نحن اليوم في حاجة إلى نهج البلاغة أكثر من أيّ وقت مضى. اليوم هو يوم الاستفادة الأكبر من نهج البلاغة»[1].

يقول الأستاذ الشهيد مطهّري قدس سره: «أخيراً بدأ العالم الإسلاميّ يكتشف نهج البلاغة وبعبارة أخرى بدأ نهج البلاغة بفتح العالم الإسلاميّ...»

«يلزمنا نحن الشيعة أن نعترف بأنا ظلمنا حقّ من نفتخر بالتشيّع له، أو على الأقلّ قصّرنا عن أداء ما يلزمنا له من حقوق وواجبات، والتقصير هو أيضاً نوع من الظلم كأننا لم نرد أن نعرف علياً عليه السلام، إنما كانت أكثر مساعينا في التحقيق والبحث حول نصوص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عليّ عليه السلام، وفي سبّ وشتم الذين تجاهلوا هذه النصوص أو تغافلوا عنها، لا في معرفة شخصيّة نفس الإمام عليه السلام، كأننا في غفلة عن أنّ المِسْك الأذفر الذي دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس إلى طيبه له من الطيب الزكي ما يدعو الناس إلى نفسه، وإنما يجب علينا أن نعرف الأريج الطيّب ثمّ نعرّف الناس به، وإنما كان داعي الله يحاول بنصوصه فيه أن يعرّف الناس طيبه، ولا يريد أن يقنع جماعة من الناس بأقواله صلى الله عليه وآله وسلم ثم يصرفوا أعمارهم في التعريف به قبل أن يكونوا هم يعرفونه».

«ليت شعري لو كان نهج البلاغة من غير الإمام عليه السلام أكان يبقى هكذا...؟»[2].

(1) بيام وخطابه، ص105 - 109.
(2) في رحاب نهج البلاغة، الشهيد مطهري، ص13، 29، 10، 9.

وينقل الشهيد مطهّري عن أحوال أستاذه المرحوم الميرزا علي الشيرازي يقول: «**لقد كان فقيهاً حكيماً وأديباً وطبيباً... الدرس الوحيد الذي كان يجلس إليه بشوق ورغبة هو درس نهج البلاغة فإنه كان يطير به في آفاق لم نكن نستطيع أن ندركها جيداً.**

إنه كان يعيش بنهج البلاغة ويتنفس به، وقلبه ينبض به وعروقه تفور بدمه. وكان هذا الكتاب ورده الذي يلهج به ويستشهد بجمله، وكثيراً ما كان إجراء كلماته على لسانه يقارنه إسبال الدمع من عينيه على محاسنه. لقد كان اندماجه في نهج البلاغة الذي كان يقطعه عنا وعن كلّ شيء حوله منظراً ذا إيحاء نفسي لذيذ، ولا غرو، فإنّ الاستماع إلى كلام القلب من ذوي القلوب خلاب ذو وقع في النفوس. إنه كان أنموذجاً صالحاً من ذلك السلف الصالح»[1].

ثم يتحدّث الأستاذ الشهيد مطهّري عن مرحلة ما بعد التعرّف على هذا الأستاذ العظيم والكتاب القيّم: «**ومنذ ذلك الحين تبدّلت صورة نهج البلاغة في نظري، وتعلّق قلبي به وأحببته، وكأنه كتاب آخر غير الذي كنت أعرفه منذ صغري، وكأني اكتشفت عالماً جديداً**»[2].

ويتحدّث المحدّث البارع الشيخ عبّاس القمّي رحمه الله في شرح حال «**الحريري**» صاحب كتاب المقامات معتبراً أنّ المقامات كتاب قد اهتمّ به أهل الفضل وكتبوا شرحاً عليه وقد واظبت مرّة على مطالعته حتّى أدركت أنّ مطالعة هذه الكتب تبعث على اسوداد القلب. ومع وجود كتاب نهج البلاغة المستطاب الذي هو شرح للفصاحة والبلاغة فلا يبقى أيّ حاجة لمطالعة المقامات. وأمّا النسبة بين كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وكلام غيره فكالنسبة بين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والناس:

(1) المصدر نفسه.
(2) المصدر نفسه.

عـلـيٌّ الـــدّرُّ والـــذهـــب الـمـصـفَّـى
وبـــاقـــي الـنـــاس كـلُّـهـمُ تـــرابُ[1]

وقارن الدكتور شهيدي بين المعلقات ونهج البلاغة وقال:

«**قبل خمس أو ستّ سنوات طلب بعض الأصدقاء قراءة المعلّقات عندي، قلت حينها إنّني قرأت هذه القصائد مرّات عديدة، والشعر الجاهلي هو أثر قيّم من حيث اللفظ والتركيب أمّا تعابيره فقد تكون صافية وقد تكون غير ذلك، وقد تكون تارة كالنسيم للروح وقد تكون تارة أخرى كالشرر المحرق، فَلِمَ لا تتوجّهون نحو نهج البلاغة؟ فألفاظه تمتلك صلابة الشعر الجاهلي وهي تحمل المعاني المتعالية للقرآن الكريم والسنّة النبوية. ونهج البلاغة يحمل الموعظة، ويعلّمنا الحياة، ويوضح لنا طريق العبودية لله تبارك وتعالى.**

«**هناك أبحاث متعدّدة حول نهج البلاغة ومحتواه وهناك تفاسير وشروحات متعدّدة وبلغات شتّى لهذا الكتاب القيّم، ولكن مهما كتب ومهما سيصدر من كتابات فإنها بأجمعها لن توفّي حقّ هذا الكلام**»[2].

يتحدّث المرحوم السيد علي نقي فيض الإسلام حول هذا الكتاب القيّم، ويقول: «**بدأت مطالعة هذا الكتاب المقدّس منذ سنوات متعدّدة. وكان يزداد شوقي لمطالعة هذا الكتاب والتفكير فيه يوماً بعد يوم. لا أبالغ إذا ما قلت بأنني لم أعد أرى سوى كتاب نهج البلاغة ولم أعد أسمع سوى كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لا بل لم أجالس أحداً من الفضلاء والعلماء إلّا بدأت الحديث حول عظمة هذا الكتاب وما قدّمه السيّد الشريف الرضيّ (رحمه لله) فيه**»[3].

(1) هدية الأحباب، الشيخ عباس القمي، ص141.
(2) ترجمة نهج البلاغة، د. شهيدي، المقدمة.
(3) مقدمة ترجمة نهج البلاغة، فيض الإسلام، ص7.

يقول العارف المشهور المرحوم السيد ابن طاوس (رضوان الله تعالى عليه) في وصيته لابنه: «**فانظر إلى كتاب نهج البلاغة وما فيه من الأسرار**»[1].

وينقل العلّامة حسن زادة الآملي (حفظه الله) عن أستاذه ما يلي: «**كان المرحوم السيد قمشئي يتحدّث مراراً حول عظمة شأن نهج البلاغة ويقول: لنذهب إلى جنة نهج البلاغة ولندرس عند أمير المؤمنين عليه السلام لنفهم ما أراد الإمام قوله**»[2].

يتحدث آية الله ناصر مكارم الشيرازي عن تلك المرحلة التي وضعه فيها نظام الشاه في السجن (عام 1342هـ.ش) وقد وجد فرصة مناسبة لمطالعة نهج البلاغة: «**طالعت نهج البلاغة، وكانت لي فرصة أتمكّن من خلالها من المرور على هذا الكتاب بدقّة وتنظيم بالأخص وأنّ التوفيق الإلهي قد شملني في هذا الأمر. وطالعت القسم الثاني من هذا الكتاب (الرسائل والتعاليم السياسيّة والأخلاقية) في تلك الأيام أدركت أنّ مستوى نهج البلاغة أعلى بكثير مما كنا نفكّر ونعتقد.**

«**في الحقيقة واجهت بحراً من العلم والمعرفة يتعلّق بأهمّ مسائل الحياة الإنسانية وفي جميع الأبعاد المعنوية والمادية. هو بحر تهيج أمواجه لتلقي الجواهر على الساحل فيغرق ساكنوه في أنواع العطايا والمواهب المعنوية والمادية. إلّا أنّ الغوّاصين يحصلون على مقدار أكبر. وأدركت في ذاك اليوم كم هم محرومون الأشخاص الذين لا علم عندهم بوجود هذا الأثر العظيم الذي يمدون اليد إلى الأجانب ليحصلوا على ما يريدون**»[3].

---

(1) كشف المحجة، السيد ابن طاووس، ترجمة أسد الله مبشري، الفصل16، ص13.

(2) نامه ها وبرنامه ها، ص 88.

(3) رسالة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، شرح جديد وجامع لنهج البلاغة، ج1، آية الله مكارم الشيرازي، ومؤلفين آخرين، ص34.

ولو عدنا إلى شارح نهج البلاغة المشهور ابن أبي الحديد المعتزلي لوجدناه يؤكّد في أماكن متعددة على عظمة هذا الكلام، يقول في ذيل الخطبة221:

«**وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس وتُلي عليهم أن يسجدوا... واقسم بمن تقسم الأمم كلّها به لقد قرآت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة ما قرأتها قط إلا وأحدثت عندي روعة وخوفاً وعظة وأثرت في قلبي...**»[1].

ويقول أحمد أمين، الكاتب والمفكّر المعاصر حول نهج البلاغة: «**أمّا كتاب نهج البلاغة فهو الكتاب الذي أقامه الله حجة واضحة على أنّ علياً (رضي الله عنه) قد كان أحسن مثال حيّ لنور القرآن وحكمته، وعلمه وهدايته، وإعجازه وفصاحته، اجتمع لعلي في هذا الكتاب ما لم يجتمع لكبار الحكماء وأخذ الفلاسفة، ونوابغ الربانيين من آيات الحكمة السامية، وقواعد السياسة المستقيمة، ومن كلّ موعظة، باهرة وحجّة بالغة...**»[2].

وقد كتب الأستاذ محمد دشتي في مقدمة ترجمته لنهج البلاغة: «**منذ بداية الدراسة الحوزوية أخذت بمطالعة الترجمات الموجودة فأدركت النواقص الموجودة، كنت دائم التفكير في طريق حلّ حتى قرأتُ إحدى كتابات جورج جرداق الذي اعترف بأنّ جاذبية كلمات الإمام عليّ عليه السلام قد أوجدت شوقاً في داخله دفعه لمطالعة نهج البلاغة 200 مرّة.**

ارتعدت من هذا الكلام وشعرت بأنّ ضربة قد نزلت على تعصّبي الاعتقاديّ وبدأت أفكر لماذا يقرأ المسيحيّ نهج البلاغة 200 مرّة وكم قرأته أنا الشيعي الذي أدّعي محبة وولاية الإمام عليه السلام، **وكم أعرف من تلك المفاهيم القيّمة التي قدّمها**»[3].

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج11، ص153.
(2) رسالة الإمام أمير المؤمنين، شرح جديد وجامع لنهج البلاغة، ج1، ص34، 43 و44.
(3) مقدمة نهج البلاغة، ترجمة محمد دشتي، ص14.

إذا أردنا التعرف على الثقافة العلوية الخالصة والاطّلاع على السيرة الشخصية والاجتماعية والسياسية والعبادية و.. للإمام أمير المؤمنين عليه السلام فلا بدّ من العودة إلى نهج البلاغة.

حديث الغدير، الولاية أو المحبة؟

أكبر أسد علي زاده(*)

المقدّمة:

أشار الرسول الأكرم ﷺ خلال فترة رسالته وبشكل متكرّر إلى مسألة الخلافة بعده حيث اعتبرها أمراً يعود لله تعالى. وإذا كانت الكتب الشيعية تؤكّد على مسألة تنصيب الإمام من قبل الله تعالى فإنّ الكثير من كتب أهل السنّة قد صرحت بذلك أيضاً.

يتحدث الطبري في تاريخه عن أن الرسول الأكرم ﷺ وبعد مضي ثلاث سنوات على بداية البعثة جاءه أمر من الله تعالى بدعوة عشيرته إلى الإسلام حيث نزلت الآية الشريفة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1]. عند ذلك جمع الرسول ﷺ قادة بني هاشم حيث حدثهم بأنه يريد لهم خير الدنيا والآخرة.

وأخبرهم بأمر الله تعالى له لدعوتهم إلى الإسلام داعياً إياهم إلى مساندته على أن يكون أخيه ووصيه وخليفته. وكرّر دعوته ثلاث مرّات حيث كان ينهض الإمام علي عليه السلام في كلّ مرّة ليعلن موقفه المساند للرسول الأكرم ﷺ. هنا وقف الرسول ﷺ وقال: «**إنّ هذا أخي وصيي وخليفتي فيكم**»[2].

ويتحدّث الطبري في مكان آخر بأن الرسول ﷺ عندما كان يتجوّل في قبيلة

(*) كاتب إيراني في مجلة مبلغان.

(1) سورة الشعراء، الآية: 214.

(2) تاريخ الطبري، محمد بن جرير، طبعة بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1979م، ج2، ص64 ـ 66؛ مسند أحمد بن حنبل، ج1، ص159.

بنـي عامر داعيـاً إياهم إلى الإسلام، أعلن أحد الأشخاص قبوله الدعوة، وتوجّه إليـه قائـلاً هل ستؤول قيـادة المسلمين إلينـا من بعدك إذا مـا نصرك الله على عدوك؟ خاطبه الرسول ﷺ قائلاً: «**الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء**»[1].

أراد الرسول ﷺ من هـذا النوع من الكلام الصريح والواضح إعداد الأذهان وتهيئة الأرضية لوصول الخطاب الإلهي الأخير حول قيادة الأمة الإسلامية، لذلك كان يشير إلى مسألة الولاية والقيادة من بعده ويتحدّث عن أن عليّاً عليه السلام هو أفضل شخص مؤهّل لهذا المنصب. وفي النهاية تحقّق الوعد الـذي كان ينتظره وقام الرسـول ﷺ خطيباً بين أعداد كبيرة مـن المسلمين كانت عائدة من الحجّ حيث جمعهـم في مـكان يدعى غدير خمّ، وأعلن من هنـاك تنصيب الإمام عليّ عليه السلام وأولاده لخلافـة المسلمين، وبقيت العبـارة المشهورة التي تؤكد ولاية وخلافة عليّ عليه السلام: «**من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه**» وبعد وفاة الرسول ﷺ تغيّرت الأوضاع وبدأت حملة واسعـة تعارض ولاية الإمام عليّ عليه السلام وتخالف حديث الغدير. وبما أنهم كانوا عاجزين عن إنكار واقعة الغدير، لجأوا إلى تأويلات وتفسيرات متعددة. قالوا إنّ المقصود من عبارة «**المولى**» هو النصير والمحبّ والصديق لعلّهم بذلك يتمكنـون من تحريـف الحديث والوصول إلى مبتغاهم. وفيمـا يلي نشير إلى بعض الشواهد التي تثبت أنّ المقصود من «**المولى**» هو الإمامة والقيادة.

الشواهد

1 ـ مقاطع من حديث الغدير الشريف

ألـف ـ تحـدّث الرسول الأكـرم ﷺ في يوم الغدير قائـلاً: «**لا إله إلا هـو. لأنه قد أعلمني أني إن لم أُبلغ ما أنزل إليَّ في حقّ عليَّ فما بلّغت رسالته، فقد ضمن لي (تبارك وتعالى) العصمة من الناس وهو الله الكافي الكريم، فأوحى إليَّ.**

(1) الطبري، المصدر نفسه، ج2، ص84؛ تاريخ ابن الأثير، ج2، ص65؛ السيرة العلوية، ج2، ص3؛ سيرة ابن هشام، ج2، ص32.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [في علي «يعني في الخلافة لعلي بن أبي طالب عليه السلام»] ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1].

معاشر الناس! ما قصّرت في تبليغ ما أنزل الله تعالى إليَّ، وأنا أبين لكم سبب هذه الآية.

إنّ جبرائيل عليه السلام هبط إليَّ مراراً ثلاثاً يأمرني عن السلام ربي وهو السلام أن أقوم في هذا المشهد، فأُعلم كلّ أبيض وأسود أنَّ عَلي بن أبي طالب، أخي وصيِّي وخليفتي على أمتي والإمام من بعدي، الذي محلّه مني محل هارون من موسى، إلا أنه لا نبيّ بعدي، وهو وليكم بعد الله ورسوله وقد أنزل الله تبارك وتعالى عَليَّ بذلك آية من كتابه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[2].

وعلي بن أبي طالب عليه السلام الذي أقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راكع يريد الله عزَّ وجلَّ في كل حال.

ب- معاشر الناس! لا تضلوا عنه ولا تنفروا منه، ولا تستنكفوا من ولايته، فهو الذي يهدي إلى الحقّ ويعمل به، ويزهق الباطل وينهى عنه، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

- معاشر الناس فضِّلوه فقد فضّله الله، واقبلوه فقد نصبه الله.

- معاشر الناس إنه إمام من الله، ولن يتوب الله على أحد أنكر ولايته ولن يغفر لله له، حتماً على الله أن يفعل ذلك ممّن خالف أمره فيه وأن يعذبه عذاباً نكراً، أبد الآباد ودهر الدهور. فاحذروا أن تخالفوه فتصلوا ناراً وقودها الناس والحجارة أُعدّت للكافرين.

(1) سورة المائدة، الآية: 67.
(2) سورة المائدة، الآية: 55.

ج ـ ألا إنّ جبرئيـل أخبرنـي عن اللّه تعالـى بذلك ويقول: «**من عـادى علياً ولم يتولّه فعليه لعنتي**».

د ـ معاشر الناس... من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، وهو عليّ بن أبي طالب أخي ووصيّي ومولاته من اللّه عزَّ وجلَّ أنزلها عَلَيَّ.

هـ ـ ألا وقـد بلغت، ألا وقد اسمعت، ألا وقد أوضحـت، ألا وإنّ اللّه عزَّ وجلَّ قال وأنا قلت عن اللّه عزَّ وجلَّ، ألا إنه لا أمير للمؤمنين غير أخي هذا.

و ـ معاشر الناس! هذا علي أخي ووصيّي وواعي علمي، وخليفتي في أمتي... إنه خليفة رسول اللّه وأمير المؤمنين، والإمام الهادي إلى اللّه...

ز ـ معاشـر الناس! إنما أكمل اللّه عزَّ وجلَّ دينكم بإمامته فمن لم يأتمّ به وبمن يقـوم مقامه من ولـدي من صلبه إلى يـوم القيامة، والعرضـ على اللّه عزَّ وجـلَّ، فأولئك الذيـن حبطت أعمالهـم، وفي النار هم خالـدون، لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون»[1].

2 ـ اعتراف علماء السنّة

نقل مجموعة من علماء أهل السنّة روايات متعددة وذكروا فيها أنّ المراد منها ولاية الإمام عليّ عليه السلام.

أ ـ عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ على رسول اللّه صلى الله عليه وآله يوم غدير خم في عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

(1) العلامة الأميني، الغدير، ج1، ص159.
ـ الاحتجاج، أبي منصور أحمد بن أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، تحقيق إبراهيم بهادري، ومحمد هادي؛ تحت اشراف العلامة جعفر السبحاني، طهران، انتشارات اسوة التابعة لمنظمة الأوقاف والشؤون الخيرية، 1413هـ.ق، ج1، ص138 ـ 160.
ـ تفسير الصافي، محسن فيض الكاشاني، مشهد، دار المرتضى للنشر، ج2، ص52، 66.
ـ راجع واقعة الغدير الكبرى، محمد الدشتي وأسرار الغدير، محمد باقر الأنصاري.

ب ـ عـن ابن عباس في قوله تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قـال: نزلت فـي علي عليه السلام، أمر رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلـغ فيه فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيد علي عليه السلام فقال: «**من كنت مولاه فعلي مولاه اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه**»[1].

3ـ إشهاد الناس

عندمـا بدأ الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم حديثه حصل على اعتراف وإقـرار الناس حول ثلاثة أمور: «**ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله وأنَّ الجنّة حقّ والنار حقّ؟**».

مـا هـو هـدف هذا الإقـرار والاعتراف؟: فـي الواقع إنّ هذا الإقـرار يُراد منه إعـداد أذهان الناس لقبول المقام والموقع الذي تمّ إثباته للإمام عليّ عليه السلام كما يتـمّ قبول تلك الأصول وليدرك الناس أنّ الإقرار بالولاية والخلافة للإمام عليه السلام هـو رديفُ الأصـول الثلاثة التي يقرّ ويعتـرف بها الجميع. فلـو كان المقصود من المولـى الصديق والنصير لما أمكـن ربط الجمل ببعضها ولفقدت قوتها البلاغية والكلاميّة وذلك لسببين:

(1) يعتقد العديد من علماء أهل السنة أن آية التبليغ نزلت يوم غدير خم للاعلان عن ولاية الإمام علي عليه السلام: جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي، تفسير الدرّ المنثور في التّفسير بالمأثور، (بيروت، المكتبة الشعبيّة)، ج2، ص327، ذيل الآية الشريفة؛ فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن، تفسير مفاتيح الغيب، ج12، ص49، ذيل الآية الشريفة؛ رشيد رضا الوهابي مذهباً، تفسير المنار (بيروت، دار المعرفة، الطبعة الثانية)، ج6، ص463، ذيل الآية الشريفة؛ القاضي محمد بن علي الشوكاني اليمانيّ، تفسير فتح القدير، ج3، ذيل الآية الشريفة؛ سيد محمود بن عبد الله الآلوسي البغدادي، تفسير روح المعاني، ج2، ذيل الآية الشريفة؛ حافظ بن عساكر الشافعي، تاريخ دمشق، شرح حال أمير المؤمنين، ج2، ص84، ح589؛ الشيخ أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، أسباب النزول (بيروت، دار التب العلمية، 1400هـ.ق)، ص135؛ غياث الدين بن همام الدين الحسيني المشتهر بـ خوان مير، حبيب السّير، طهران، مطبعة الحيدري، ج2، ص12؛ الشيخ سليمان القندوزي الحنفي، ينابيع المودة، بيروت، (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ج1، ص119، باب 39؛ حافظ أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله بن أحمد الحسكاني، شواهد التنويل، حققه وعلق عليه الشيخ محمد باقر المحمودي، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، 1393،ج1، ص187، أحاديث شماره 243، 244، 245، 247، 248، 192؛ حافظ أحمد بن عبد الرحمان أبي بكر الفارسي الشيرازي، ما نزل القرآن في علي عليه السلام، ص68؛ بدر الدين محمود الشهير بابن العيني الحنفي، عمدة القارئ في شرح صحيح البخاري، ج8، ص584.

الأوّل: أنّ الإمـام عليّـاً عليه السلام مـن دون الولاية، هو شخص مسلم عاش في ذاك المجتمع حيث لا يشكّ أحد في ضرورة محبة وصداقة الأشخاص المؤمنين فلا حاجة ليأتي الرسول ويؤكّد عليه.

الثاني: لا يمكن أن تكون هذه المسألة هامة إلى درجة وضعها رديفَ الأصول الثلاثة.

4ـ بيعة أبي بكر وعمر

ينقل كبار مفسّري ومؤرّخي أهل السنّة أنّ أبا بكر وعمر كانا من أوائل الأشخاص الذيـن توجّهوا إلـى الإمام عليّ عليه السلام بعد خطبة الرسـول صلى الله عليه وآله وخاطبوه قائلين: «**بـخ بـخ يا علـيّ أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنـة**» أو «**هنيئاً لك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كلّ مؤمن ومؤمنة**»[1].

5ـ حول شأن نزول آية إكمال الدين

نقـل عدد كبير من مفسّري ومؤرّخي أهل السنّة أنه بعد إعلان ولاية الإمام عليّ عليه السلام يوم غدير خمّ وتوافد الناس لبيعته كوليّ ووصيّ، نزلت آية الإكمال الشريفة (المائدة: 3).

---

(1) الحافظ بن عساكر الشافعي، تاريخ دمشق، شرح حال أمير المؤمنين عليه السلام، ج2، ص52ـ47 وص 78ـ76، أرقام الأحاديث 548، 549، 550، 551، 552، 580،579؛ فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين، التفسير الكبير، ج12، ص49، ذيل آية «التبليغ» (مائدة، 67)؛ إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ج5، ص212؛ الشيخ سليمان القندوزي الحنفي، ينابيع المودة، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ج1، ص28 و29؛ صدر الدين الحموينى الشافعي، فرائد السمطين، ج1، ص77، باب 13، ح44، وص70، باب 12، ح38؛ أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، المسند، ج4، ص281؛ حافظ عبد الرحمان بن علي بن محمد أبي الخرج ابن الجوزيّ، المناقب؛ أبو الفريد الموفّق بن أحمد خطيب الخوارزمي، المناقب، ص94؛ أبو الحسن علي بن محمد الخلائيّ المعروف به «ابن المغازلي الشافعي»، المناقب، ص18 و24؛ جلال الدين السيوطي الشافعي، الحاوي للفتاوى، ج1، ص122؛ محب الدين أبو جعفر أحمد بن عبد الله الأذرعيّ، بديع المعاني، ص75؛ أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن أحمد الحسكاني، شواهد التنزيل، ج1، ص156، ح213؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج8، ص290؛ ابن حجر العسقلاني، الصواعق المحرقة، ص26؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ج6، ص397؛ شيخ محمد حبيب الله بن عبد الله الشنقيطيّ المدنيّ المالكي، كفاية الطالب لمناقب علي بن أبي طالب، ص28؛ جمال الدين محمد الزرندي، درر السمطين في مناقب السبطين، ص109؛ أبو المظفّر يوسف بن قزاوغلي بن عبد الله البغدادي شمس الدين الملقب به سبط ابن الجوزي الحنبلي ثم الحنفي، تذكرة الخواص، بيروت، مؤسسة أهل البيت عليهم السلام، 1401هـ.ق، ص37؛ أبو حامد محمد الغزالي، سرّ العالمين، وكشف ما في الدارين، ص21؛ أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي، شرح المواهب اللدنيّة، ج7، ص13؛ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الثانية، ج6، ص465، ذيل الآية الشريفة «تبليغ، مائدة:71»؛ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، ج4، ص417.

عندما نزلت الآية الشريفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، تحدّث الرسول الأكرم ﷺ فقال: «**الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الربّ برسالتي وولاية عليّ بن أبي طالب من بعدي (ثمّ قال) من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصُر من نصره واخذِل من خذله**»[1].

6ـ التعميم

أخذ رسول الله ﷺ يوم غدير خمّ عِمامته المعروفة باسم «**السحاب**» ووضعها تاج افتخار على رأس الإمام عليّ عليه السلام ثمّ وضع طرفها على كتفه وقال: «**العِمامة تاج العرب**». يقول الإمام عليّ عليه السلام في هذا الخصوص: «**عمَّمني رسول الله ﷺ يوم غدير خمّ بعِمامة فَدَلّ طرفها على منكبي وقال: إنَّ الله أيدني يوم بدر وحنين بملائكة معتمّين بهذه العِمامة**»[2].

7ـ المعجزة والتأييد الإلهيّ

جاء في الأخبار أنّ الحارث الفهريّ وفد إلى رسول الله ﷺ من اثني عشر رجلاً حيث سأل الرسول ﷺ: «**يا أحمد أمرتنا بالصلاة والزكاة أفمنك كان**

(1) الحافظ الحسكاني، شواهد التنزيل، ج1، ص157، حديث 211؛ محمد الحموينى، فرائد السمطين، ج1، ص74، ذيل الآية الشريفة؛ البداية والنهاية، ج7، ص347 وصفحات التي بعدها؛ حافظ بن عساكر الشافعي، ترجمة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من مدينة دمشق، ج2، ص85، ح588؛ ابن المغازلي الشافعي،المناقب، ص19؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص35؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج8، ص290؛ ابن الجوزي الحنفي، تذكرة الخواص، ص37؛ السيوطي الشافعي، تفسير الدر المنثور، بيروت، المكتبة الشيعية، ج2، ص251، ذيل الآية الشريفة؛ الشيخ سليمان القندوزي، ينابيع المودة، جلد واحد، ص115؛ الخوارزمي الحنفي، المناقب، ص80؛ الآلوسي، تفسير روح المعاني، ج6، ذيل الآية الشريفة؛ الثعلبي، تفسير الكشف والبيان، ذيل الآية الشريفة؛ عبد الله الحنفي، أرجح المطالب، ص568؛ الخوارزمي الحنفي، مقتل الحسين، قم، منشورات مكتبة المفيد، ج1، ص47؛ عبد الله الشافعي، المناقب، ص106.

(2) محمد الجويني، فرائد السمطين، ج1، ص76، الباب 12، الأحاديث رقم 41، 42، 43. وقد نقل الجويني، وآية أخرى: عن جعفر بن محمد قال: «حدثني أبي، عن جدي أن رسول الله ﷺ عمم علي بن أبي طالب عليه السلام عمامته السحاب فأرخاها من بين يديه ومن خلفه ثم قال: أقبل، فأقبل ثم قال له أدبر فقال: هكذا جاءتني الملائكة.

هذا أم من ربّك يا محمّد؟... فأمرتنا بحبّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام زعمت أنه منـك كهـارون من موسى... أهـذا سبق من السمـاء أم كان منك يا محمد؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بلى سبق من السماء ثمّ كان منّي...».

عند ذلك نهض الحارث ومن معه وقال: اللهمّ إن كان محمَّد صادقاً في مقالته فـارم علينا بشوظ من نار. وقيل إنّ صاعقة نزلت بـه وبأصحابه من السماء. وفي هـذا الشأن نزلـت الآيـة الشريفـة: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾[1] وقـد ساهمـت هذه المعجزة في وجود حالة مـن اليقين عند الجميع بأنّ مسألة الغدير تعود إلى مصدر الوحي وهي أمر إلهيّ[2].

8ـ ظروف إعلان الحديث

لـو كان المقصود من حديث الغديـر الإعلان عن مراتب ودرجات محبّة الإمام أميـر المؤمنين عليه السلام فليـس من الضروريّ أن يقف الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك الجوّ الملتهـب ليجمع القوافل تحت أشعّة الشمس المحرقة، مع العلم أنّ القرآن الكريم قـد صرّح بأنّ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[3]، وهذا يعني أنّ الأخوة والمحبّة تربطان أفراد المجتمع المسلم، وعليّ عليه السلام هو أحد أفراد هذا المجتمع، فلا حاجة ليقوم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالإعلان عن أمر معروف وواضح، وقد تحدّث به القرآن الكريم.

---

(1) سورة المعارج، الآيتان: 1 ـ 2.

(2) نقل العديد من علماء السنة هذه الرواية، وفيما يلي نشير إلى بعض المصادر:
أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1405، ج18، ص278، ذيل الآية الشريفة؛ سبط بن الجوزي، تذكرة الخواص، ص37؛ شواهد التنزيل، ج2، ص286، ح1030؛ جمال الدين محمد الزرندي الحنفي، نظم درر السمطين، طهران، مكتبة نينوى الحديثة، ص93؛ أبي السعود محمد بن محمد العمادي، تفسير أبي السعود، بيروت، دار احياء التراث العربي، ج8، ص29، أول تفسير سورة معارج؛ المناوي، فيض القدير، شرح الجامع الصغير، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثانية، 1391هـ.ق، ج6، ص218، در تفسير حديث 9000؛ السيرة الحلبيّة، ج3، ص337؛ نور الأبصار، ص78، اشبلنجي؛ الشيخ سليمان القندوزي، ينابيع المودة، بيروت، مؤسسة الأعلمي المطبوعات، ج2، ص99، باب58.

(3) سورة الحجرات، الآية: 10.

النقل المجعول والمشهور

السيد محمد الموسوي(*)

نسب بعض كتبة المقاتل والعزاء، الكثير من الكلام إلى الإمام الحسين عليه السلام والمعصومين الآخرين بحيث لا يمكن الحصول على سند ووثيقة على ذلك. بعض هذه الكلمات مشهورة ومعروفة إلى درجة كبيرة مع أنها غير موثّقة ومجعولة وقد رفضها المحقّقون، فكانت مقبولة عند العوامّ، والأهمّ من ذلك أنّ بعض المحقّقين والكتّاب المشهورين المعاصرين قد استعان بهذه الكلمات من دون تأمّل وتحقيق. فيما يلي نشير إلى بعض هذه الكلمات ذات العلاقة بمحرّم وعاشوراء والإمام الحسين عليه السلام.[1]

1 ـ «إن كان دين محمّد لم يستقم...».

يُنسب هذا القول للإمام الحسين عليه السلام، وهو بيت من قصيدة لشاعر اسمه «**الشيخ محسن أبو الحبّ الحويزيّ**». وهو واحد من شعراء وخطباء كربلاء عاش بين الأعوام 1235 ـ 1305هـ.ق.

الشيخ محسن الحويزيّ الحائريّ المعروف بـ أبي الحبّ الحويزي من شعراء الشيعة، وله ديوان شعر تحت عنوان «**الحائريّات**» حيث يقول في أبياته:

أعطيتُ ربّي موثقاً لا ينتهي

إلّا بقتلي، فاصعدي وذريني

(*) كاتب إيراني في مجلة مبلغان.

إن كـــان ديـــن مـحـمّـد لـم يـسـتـقـم

إلّا بـقـتـلـي، يـا سـيـوفّ خذيني[1]

2ـ «اسقوني شربة من الماء...»

ينسـب هذا القول للإمام الحسين عليه السلام أيضـاً، وهو يفتقد السند والوثيقة، لا بـل يحمل مضموناً ومفهوماً يدلّان على نوع من الإهانة والذلّ، ولم يذكر في الكتب المعتبرة. والنصّ المصطنع، أكبر دليل على كونه مجعولاً.

يقـول الشهيد مطهّري في هـذا الخصوص: «**بلغ عطش أبي عبـد الله مستوى بحيث كان لا يرى فوق رأسه عندما ينظر إلى السماء. وهذا ليس مزاحاً. ولكني مهما بحثت في المقاتل (بالمقدار الذي أتمكّن منه) لأجد هذه العبارة المشهورة التـي يُقـال إنّ أبـا عبـد الله عليه السلام خاطب الناس بهـا قائلاً: «اسقونـي شربة من الماء**»، فلم أجدها. لم يكن الحسين عليه السلام الشخص الذي يطلب من أولئك الناس هـذا الأمر، وهنـاك مكان واحد يتحدّث فيه الإمام عندمـا كان يحمل على الأعداء «**وهو يطلب الماء**». وتشير القرائن إلى أنه كان يبحث عن الماء عندما كان يتقدّم نحو شريعة الفرات، وليس من الصحيح أنه طلب الماء من الناس[2].

3 ـ «هل من ناصر ينصرني...»

ليـس هناك من سنـد أو وثيقة تدلّ على صحّة نسبة هذا القول للإمام الحسين عليه السلام. ويبيـن معنى ومفهوم هذه العبارة أنّ قارئـي المجالس كانوا يتحدثون بها علـى أنها لسان حـال الإمام الحسيـن عليه السلام والهدف إبكاء الناس. ولم يُعْثر في الوثائق المعتبرة على ما يشبه هذا القول يمكن من خلاله تصحيحها[3].

(1) سيماء كربلاء، ص216.
(2) الملحمة الحسينية، ج2، ص218.
(3) ثقافة عاشوراء، جواد محدثي، ص470.

4 . «أيا شِمر خافَ الله واحفظ قرابتي...»

نصل في البحث عن تحريفات عاشوراء إلى تحريف يحمل الكثير من الإهانة. كتب البعض أنّ الشمر عندما جلس على صدر الإمام الحسين عليه السلام وأراد فصل رأسه عن بدنه، قال له الإمام الحسين عليه السلام:

أيا شمر خاف الله واحفظ قرابتي

من الجدّ منسوباً إلى القائم المهدي

أيا شمر تقتلني وحيدرةُ أبي

وجدّي رسول الله أكرم مهتدي

وفاطمة أمي والزكيّ ابن والدي

وعمي هو الطيار في جنّة الخُلدِ

ثم يتابع في أبيات متعددة تتحدَّث عن زينب وأمّ كلثوم وسكينة ورقية، إلى أن يقول:

أيا شمرُ إرحم ذا العليل وبعده

حريماً بلا كفلٍ يلي أمرَهم بعدي[1]

والمقصود هنا أنّ الإمام الحسين عليه السلام في اللحظات الأخيرة من حياته الشريفة توجّه إلى الشمر بلسان شعري يطلب منه أن يرحم الإمام السجّاد العليل، وأن يرحم العائلة التي ستبقى من دون كفيل. وفي هذا البيت الأخير، نوع من الإهانة بحق الإمام سيّد الشهداء عليه السلام ومن جملة هذه الاهانات: أنه أطلق على العائلة أنها ستبقى من دون كفيل مع أنّ الإمام السجّاد ما زال على قيد الحياة،

(1) أسرار الشهادة، ص426، أدب الحسين وحماسته، ص46.

أطلق على الإمام السجاد عليه السلام لقب العليل، ولعلّ هذا القول هو الذي دفع البعض لإطـلاق اسم الإمام المريض على الإمـام السجّاد عليه السلام وأخيراً فإنّ الشعر يشير علـى لسان الإمـام الحسيـن عليه السلام إلى أنـه أودع الشمر كفالـة أهل البيت عليهم السلام والإمام السجاد عليه السلام.

5. تفسير «كهيعص»

أشار كتاب «**كمال الدين وتمام النعمة**» للشيخ الصدوق إلى تفسير وتأويل هذه الكلمة، وقد جاء فيها:

يقـول الـراوي سألت إمام الزمـان عجل الله فرجه، فأخبِرْني يا ابن رسـول الله عن تأويل «**كهيعص**» قال هـذه الحروف من أنبـاء الغيب، أطلع الله عليها عبـده زكريا، ثم قصّهـا على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وذلك أنّ زكريا سأل ربه أن يعلمه أسماء الخمسة فأهبط عليـه جبرئيل فعلمـه إياها، فكان زكريـا إذا ذكر محمداً وعليـاً وفاطمة والحسن والحسيـن عليهم السلام سُرِّيَ عنه همُّـه، وانجلى كربه، وإذا ذكر الحسين عليه السلام خنفته العبـرة، ووقعت عليه البهرة، فقال ذات يوم: يا إلهي إذا ذكرت أربعةً منهم تسلّيت بأسمائهم من همومي، وإذا ذكرت الحسين عليه السلام تدمع عيني وتثور زفرتي؟ فأنبأه الله تعالـى عن قصته، وقـال: «**كهيعص**» «**فالكاف**» اسم كربـلاء. و«**الهاء**» هلاك العتـرة، و«**الياء**» يزيد، وهو ظالم الحسيـن عليه السلام، و«**العيـن**» عطشه. و«**الصاد**» صبره.

ذكـر المحقّق الكبير، الشيخ محمّد تقي الشوشتـري، الحديث المتقدم بعنوان أنـه أوّل حديـث مجعول وذلك فـي كتابه «**الأخبـار الدخيلة**» تحت عنـوان «**الباب الثاني في الأحاديث الموضوعة**».

وعرض المحقّق الشوشتري أبحاثاً مفصّلة في نقد هذا الخبر، وخصّص للنقد

تسـع صفحات من كتابه وذكر أحاديـثَ أخرى تبيّن أنّ «**كهيعص**» من جملة أسماء الله المقطعة.

ويكتـب أحد المحقّقين في هـذا الخصوص: «**تشتمل الروايـة المتقدّمة على أمـور غيـر مأنوسـة مـن قبيـل (تفسير كهيعص بكربـلاء) حيث يجـب التأمّل فيهـا... بالإضافة إلى ذلك إنّ فـي سند الرواية بعض الرواة المتّهمين بالكذب فـي الحديـث ومـن جملتهـم «محمّـد بـن مجـد الشيبانـي»**. وهو مـن المفوّضة والغلاة، وهو من الذين ينقلون الحديث عن رواة ضعاف»[1].

وكتـب الأستاذ علـي أكبر الغفـاريّ، مصحّح كتاب كمال الدين فـي ذيل الرواية المبحـوث عنها: «**بعض رجال سند هذه الرواية مجهولـو المحالّ والبعض منهم مهمل، ونصّ الرواية يتضمّن كلاماً غريباً من البعيد أن يصدر عن المعصوم**»[2].

وفـي حاشيـة بحـار الأنوار بعض الإشكالات على هـذا الخبر تبـدأ بقول: فيه غرابة[3].

6 ـ تحريف عبارة في زيارة عاشوراء

نقـرأ في زيـارة عاشـوراء العبارة التاليـة: «**اللهـمّ العـن العصابة التـي جاهدت الحسين**»[4]، وقد حصل تحريف فيها. وأمّا الشكل الصحيح للعبارة فهو أحد شكلين:

1 ـ «**اللهمّ العن العصابة التي حاربت الحسين**»[5].

2 ـ «**اللهمّ العن العصابة التي جاهدت الحسين**»[6].

(1) الأخبار المجعولة، هاشم معروف الحسني، ص 305.
(2) كمال الدين، ص454، الهامش.
(3) م.ن، ص 457، الهامش.
(4) مفاتيح الجنان، ص 810.
(5) كامل الزيارات، ص176، الأخبار الدخيلة، ج4، ص254.
(6) الأخبار الدخيلة، ج3، ص318.

والظاهـر أنّ الاشتباه فـي نقل العبارة قد وقـع به الناسخـون. والعبارة الأولى أقرب إلى الصحّة من الثانية أي حاربت التي ذُكرت في كامل الزيارات.

وكتـاب كامل الزيارات، من تأليف الفقيه والمحدّث الجليل، أبي القاسم جعفر بن محمّد بن قولويه (المتوفى عام 367 ق)، وهو كتاب معتبر ومورد اهتمام علماء الشيعـة. وهو أقدم كتاب ذكـر نصّ زيارة عاشوراء. وبعبـارة أخرى صاحب كامل الزيـارات أقرب إلى زمـان صدور الرواية مـن أصحاب الكتب الأخـرى، والسبب فـي ذلك أنّ من بين المصـادر القديمة، يمكـن الإشارة إلى «**مصبـاح المتهجّد**» للشيـخ الطوسيّ (المتوفى عام 46 ق) الذي ذكـر لفظ «**جاهدت**» في عباراته وقد نقـل المحدّث القميّ (رحمه) العبارة عنـه، أمّا ابن قولويه فهو متقدّم على الشيخ الطوسيّ وهو الذي صرّح بـ: حاربت.

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار مفهوم ومعنى العبارة، يتّضح أنّ حاربت هي الأصحّ، فليس من الصحيح أن نطلق الجهاد على عمل أعداء الإمام الحسين عليه السلام.

وتشيـر معاجـم ألفاظ القـرآن الكريم والصحيفـة السجّاديـة ونهج البلاغة والخصوص المعتبـرة كالكتب الأربعة إلـى أن كلمة «**الجهاد**» تحمـل في طياتها نوعـاً من القداسة، وبالتالـي لا يمكن إطلاقها على قتلـة الإمام الحسين عليه السلام. بـل مـا قام به أعـداء الإمام الحسين عليه السلام هـو محاربته وهذا مـا جاء في نفس الزيارة: «**إني سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم**». وجاء في الزيارة المنقولة عـن الإمام الصادق عليه السلام: «**اللهمّ عذّب الذين حاربـوا رسلك وشاقّوك وعبدوا غيرك...**»[1].

(1) إقبال الأعمال، السيد ابن طاووس، ج3، ص67.

7 ـ «كلّ يوم عاشوراء وكلّ أرض كربلاء»

نُقلت العبارة المتقدّمة عن الإمام الصادق عليه السلام، ولكن لا يوجد أيّ سند يدلّل على ذلك، لا بل تتضمّن النصوص المعتبرة أحاديثَ تتعارض معها. ومن جملة ذلك:

أ. يتحدث الإمام الحسن عليه السلام مخاطباً الإمام الحسين عليه السلام ومتوقّعاً شهادته: «**لا يوم كيومك يا أبا عبد الله**»[1].

ب ـ يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «**لا يومَ كيوم الحسين**»[2].

ج ـ ينقل العلامة الحليّ عن أحمد بن يحيى البلاذري (المتوفى عام 279 ق) صاحب كتاب أنساب الأشراف أنّ عبد الله بن عمر قال: «**لا يوم كيوم قتل الحسين**»[3].

والعجيب أنّ عبارة «**كلّ يوم عاشوراء وكلّ أرض كربلاء**» مشهورة إلى درجة بعيدة ومنسوبة للإمام الصادق عليه السلام من دون سند يؤيّد ذلك، لا بل نقل البعض العبارة بمزيد من التفصيل حيث جاء فيها: «**كلّ يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء وكلّ شهر محرّم وكلّ فصل عزاء**». مع العلم أنّ هذه العبارات لا تمتلك أيّ سند على صحّة انتسابها. بل لعلّ هذه العبارات تعود إلى شاعر نظمها في أمور ذات علاقة بالحرب. ويظهر من معنى ومفهوم هذا الشعر أنه قريب من الزيدية والكيسانية أو الإسماعيلية أكثر من المذهب الشيعيّ.

(1) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص177.
(2) م. ن، ص547.
(3) نهج الحق وكشف الصدق، العلامة الحلي، ص 356.

مجمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL-MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

المركز الإسلامي التبليغي
www.almenbar.org

بيروت - لبنان - المعمورة - الشارع العام
هاتف: 01/471070 - ص - ب: 25/327024/53
www.almaaref.org
email.info@almaaref.org

1009070

DB UK 00961 3 336218